الطبعة العربية الأصلية

حاج كومبوستيلا

رواية

پاولو كويلو

مؤلف الرائعة العالمية "الخيميائي"

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

الكتاب

يمثل هذا الكتاب باكورة أعمال كويلو، ويروي قصة سعي روحي مميز على طريق مار يعقوب في إسبانيا.

ينطلق الراوي في مسيرة طويلة، بحثاً عن سيفه الذي فقده لحظة كان يُقدم إليه. اشترط عليه المعلّم لاسترداده أن يقوم بالحج على طريق قديمة، كان يعبرها حجّاج القرون الوسطى، واعتُبرت مزاراً من أهم المزارات الدينية في الغرب.

في الطريق، يقوم المرشد پتروس بتلقين الراوي پاولو تمارين وطقوس «رام» (جمعية روحانية قديمة)، وهي ممارسات بسيطة تساعد الإنسان على اكتشاف طريق خاصة به، وتمدّه بالطاقة والشجاعة، معمّقة حدسه الشخصي الذي يصله بالحقيقة.

يتعرّض الراوي، في مسيرته، لتجارب روحية كثيرة، تتمثل في اكتشاف معانٍ جديدة للحب والورع والموت والألم. والأهم من ذلك كلّه، يتبيّن أن التوصّل إلى مرحلة المصالحة مع النفس والإشراق ليس نخبوياً، وليس حكراً على الناس المختارين، بل هو أيضاً متاح أمام كل إنسان يسير على طريقه الخاصة به، كما سار الراوي على طريق مار يعقوب: ذلك أن الخارق موجود على طريق الناس العاديين. المهم هو الطريق بحدّ ذاتها، واكتشافنا لأنفسنا من خلال السفر والمغامرة والسعي. وأمام هذا الاكتشاف، يصبح الهدف أمراً ثانوياً. فالراوي، بعد أن سار على الدرب بغية اكتشاف سرّ سيفه، يكتشف ذلك السر، لكنه لا يعلنه. فالسرّ هو ما يُكتشف، ولا يُعلن.

تعتبر رواية «حاج كومپوستيلا» المحطة الأهم في حياة كويلو التي انطلق منها إلى محطات أخرى. إنها بداية «الجهاد الحسن»، الذي سيدفع بكويلو ليربح معارك الأدب الرفيع.

حاج كومبوستيلّا

پاولو كويلو

ترجمة: ماريا طوق

تدقيق لغوي: روحي طعمة

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

نُشر في الأصل بالبرتغالية، بعنوان: O Diário de um Mago

نُشرت هذه الطبعة بالاتفاق مع سانت جوردي وشركاه، برشلونة،
اسبانيا، بوكالتهم عن پاولو كويلو

موقع پاولو كويلو على الانترنت:
http://www.paulocoelho.com.br



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر
شارع جان دارك - بناية الوهاد
ص.ب: ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان
تلفون: ٣٥٠٧٢١/٢ (٠١)
تلفون + فاكس: ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ (١ ٩٦١)
e-mail: allprint@cyberia.net.lb

الطبعة الثالثة ٢٠٠٥

تصميم الغلاف: عباس مكي
الاخراج الفني: زاهية عاصي

فقالوا: «يا رب إن ههنا سيفين»
فقال لهم: «يكفي»

لوقا، الفصل الثاني والعشرون، الآية ٣٨

مقدمة الكاتب لسلسلة رواياته الصادرة بالعربية

كان أحد كبار متصوفي الإسلام، وسوف ندعوه هنا حسن، يُحتضر، عندما سأله تلميذ من تلاميذه:

ـ من كان معلّمك ايها المعلّم؟

أجاب: «بل قل المئات من المعلمين. وإذا كان لي أن أسميهم جميعاً، فسوف يستغرق ذلك شهوراً عديدة، وربما سنوات. وسوف ينتهي بي الأمر إلى نسيان بعضهم».

ـ «ولكن، ألم يكن لبعضهم تأثير عليك أكبر من تأثير الآخرين؟»

استغرق حسن في التفكير دقيقة كاملة، ثم قال:

«كان هناك ثلاثة في الواقع، تعلّمت منهم أموراً على جانب كبير من الأهمية:

«أولهم كان لصاً. فقد حدث يوماً أنني تُهت في الصحراء، ولم أتمكّن من الوصول إلى البيت إلا في ساعة متأخرة جداً من الليل. وكنت قد أودعت جاري مفتاح البيت، ولم أملك الشجاعة لإيقاظه في تلك الساعة. وفي النهاية، صادفت رجلاً طلبت منه المساعدة، ففتح لي قفل الباب في لمح البصر.

«أثار الأمر إعجابي الشديد، ورجوته أن يعلّمني كيف فعل ذلك.

فأخبرني بأنه يعتاش من سرقة الناس. لكنني كنت شديد الامتنان له، فدعوته إلى المبيت في منزلي.

«مكث عندي شهراً واحداً. كان يخرج كل ليلة، وهو يقول: سأذهب إلى العمل. أما أنت، فداوم على التأمل، وأكثر من الصلاة. وكنت دائماً أسأله عندما يعود، ما إذا كان قد غنم شيئاً. وكان جوابه يتخذ، على الدوام، منوالاً واحداً لا يتغير: 'لم أوفق في اغتنام شيء هذا المساء. لكنني، إذا شاء الله، سأعاود المحاولة في الغد'.

«كان رجلاً سعيداً. لم أره يوماً يستسلم لليأس جراء عودته صفر اليدين. من بعدها، وخلال القسم الأكبر من حياتي، عندما كنت أستغرق في التأمل يوماً بعد يوم، من دون أن يحدث أي شيء، ومن دون أن أحقق اتّصالي بالله، كنت أستعيد كلمات ذلك اللص: 'لم أوفق بشيء هذا المساء، لكنني، إذا شاء الله، سأعاود المحاولة في الغد'. كان ذلك يمنحني القوة على المتابعة».

ـ «ومن كان المعلّم الثاني؟»

ـ «كان كلباً. فقد حدث أن كنت متوجهاً إلى النهر لأشرب قليلاً من الماء، عندما ظهر هذا الكلب. كان عطشاً أيضاً. لكنه، عندما اقترب من حافة النهر، شاهد كلباً آخر فيه. ولم يكن هذا غير انعكاس لصورته في الماء.

«دبّ الفزع في الكلب، فتراجع إلى الوراء وراح ينبح. بذل ما بوسعه ليُبعد الكلب الآخر، ولكن شيئاً من هذا لم يحصل بالطبع. وفي النهاية، قرّر الكلب، وقد غلبه الظمأ الشديد، أن يواجه الوضع، فألقى بنفسه في النهر. وكان أن اختفت الصورة هذه المرة».

توقّف حسن قليلاً، ثم تابع:

ـ «أخيراً، كان معلّمي الثالث ولداً. فقد حدث أن رأيته يسير باتجاه الجامع، حاملاً شمعة بيده، فبادرته بالسؤال: هل أضأت هذه الشمعة بنفسك؟ فردّ علي الصبي بالإيجاب. ولما كان يقلقني أن

يلعب الأولاد بالنار، تابعت بإلحاح: اسمع يا صبي: في لحظة من اللحظات كانت هذه الشمعة مطفأة. أتستطيع أن تخبرني من أين جاءت النار التي تشعلها؟

«ضحك الصبي، وأطفأ الشمعة، ثم ردّ يسألني: وأنت يا سيدي، أتستطيع أن تخبرني إلى أين ذهبت النار التي كانت مشتعلة هنا؟

«أدركت حينها كم كنت غبيًا. من ذا الذي يُشعل نار الحكمة؟ وإلى أين تذهب؟ أدركت أن الإنسان، على مثال تلك الشمعة، يحمل في قلبه النار المقدّسة للحظات معينة، ولكنه لا يعرف إطلاقاً أين أشعلت. وبدأت، منذ ذلك الحين، أسرّ بمشاعري وأفكاري لكلّ ما يحيط بي: للسحب والأشجار والأنهار والغابات، للرجال والنساء. كان لي، طوال حياتي، الآلاف من المعلمين. وبتّ أثق بأن النار سوف تتوهّج عندما أحتاج إليها. كنت تلميذ الحياة، وما زلت تلميذها. لقد استقيت المعرفة وتعلمت من أشياء أكثر بساطة، من أشياء غير متوقّعة، مثل الحكايات التي يرويها الآباء والأمهات لأولادهم».

تبيّن لنا هذه القصة الجميلة المقتبسة من موروث التصوّف في الإسلام، أن أحد أقدم الطرق التقليدية، التي اعتمدها الإنسان لنقل معرفة جيله، كانت القصص والروايات. وفي ما يتعلق بي، كانت الثقافة العربية إلى جانبي خلال معظم أيام حياتي، تبيّن لي أموراً لم يستطع العالم، الذي أعيش فيه، أن يفقه معناها. واليوم، أستطيع للمرة الأولى، أن أردّ على المكرمة بمثلها، وأنا أرقب كتبي تنشرها «شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ـ لبنان»، في المنطقة نفسها التي كثيراً ما أثارت مخيلتي. وإنّني مُمتنّ للناشر السيد تحسين الخياط لما أبداه من حماس لجعل أعمالي في متناول قرّاء العربية، من خلال ترجمتها، ترجمة اتّسمت بالجديّة، بعد حصوله مني، وفقاً للأصول المعتمدة، على حقوق النشر.

وأود أخيراً، أن أتوجه بالشكر إلى الوكيلة ـ المشاركة والصديقة، سوزان ناصيف، التي جعلت بحماسها، هذا الحلم ممكناً، ذلك أنني ما كنت، من دونها، لأستطيع إشراك هؤلاء الناس، الذين أحمل لهم الإعجاب الشديد، بمكنونات قلبي.

پاولو كويلو

ملاحظات الكاتب

منذ عشر سنوات دخلت بيتاً صغيراً في مقاطعة «سان جان بييه دو بور»، وأنا مقتنع بأن ما أفعله مضيعة للوقت. كان سعيي الروحي مرتبطاً بالفكرة القائلة إن هناك أسراراً وطرائق غامضة وأناساً قادرين على فهم الأشياء العصية على معظم الفانين، والتحكّم بها. وهكذا، فإن عبور «طريق الناس العاديين» بدا لي مشروعاً لا فائدة منه.

إن قسماً من جيلي ـ وأنا بالذات ـ انقاد لسحر الشيع والجماعات السرية، والاعتقاد القائل إن ما هو صعب ومعقَّد يقودنا حتماً إلى فهم أسرار الحياة. عام ١٩٧٤، دفعت ثمن هذا الاعتقاد غالياً. زال الخوف لكن افتتاني بالخفي ظلّ هاجساً في حياتي. لذلك، عندما حدَّثني معلّمي عن طريق «مار يعقوب»، وجدت فكرة هذا الحج مضنية وغير مجدية. لا بل أنني اتّخذت قراراً بترك «رام»، وهي جمعية دينية صغيرة غير ذات شأن، تستند إلى التبادل الشفوي لكلام مُفعم بالرموز.

وأخيراً، عندما حدتني الظروف لأنفِّذ الرحلة التي طلبها مني معلّمي، قررت أن أقوم بها على طريقتي. في بداية الحجّ، سعيت لأن أجعل من بتروس، مرشدي خلال الرحلة، شخصاً أشبه بـ «دون خوان»، الساحر الذي يلجأ إليه كارلوس كاستانيدا ليفسّر اتصاله بالخارق. اعتقدت أنه يمكنني، بقليل من الخيال، أن أجعل من تجربة طريق «مار يعقوب» تجربة ممتعة، مستبدلاً بالخفيّ الموحى به، وبالمعقّد البسيط، وبالسّري المضيء.

لكن بتروس كان يتصدّى لي كلّما سعيت لتحويله إلى بطل، ممّا جعل علاقتنا شاقّة للغاية. وافترقنا أخيراً، ونحن نشعر أن هذه الصداقة لم توصلنا إلى أي مكان.

بَيْدَ أنني أدركت، بعد مرور وقت طويل على افتراقنا، الأهمية التي تتّصف بها هذه التجربة. وهذا الإدراك بالذات هو الآن أغلى شيء عندي: الخارق موجود على طريق الناس العاديين. إن هذا الإدراك أتاح لي ألّا أحفل بالمخاطر، لكي أصل إلى أقصى ما أؤمن به، وقد أمدّني بالشجاعة لأكتب أول كتاب لي: «حاج كومبوستيلا»، وبالقوة لأصارع من أجله، بالرغم ممّا كان يُقال عن استحالة أن يعتاش كاتب برازيلي من أدبه. وأستطيع القول أيضاً إنه ساعدني على التحلّي بالكرامة والدأب، وهما زاد «الجهاد الحسن» الذي يجب خوضه كل يوم مع النفس، إذا ما أردتُ الاستمرار في سلوك «طريق الناس العاديين».

لم تتسنَّ لي رؤية مرشدي مرة ثانية. حاولت الاتصال به حين نُشر الكتاب في البرازيل، ولكن لم أتلقَّ منه جواباً. وعند صدور الترجمة الإنكليزية للكتاب، شررت لأنه، عن طريق القراءة، بات بإمكانه استعادة الفترة التي عشناها معاً. حاولت أن أوافيه من جديد، لكنه غيّر رقم هاتفه.

بعد عشر سنوات، نُشر «حاج كومبوستيلا» في البلاد، حيث باشرتُ رحلتي، وحيث رأيت بتروس للمرة الأولى على الأرض الفرنسية. وآمل أن ألتقيه يوماً، لأقول له:

«شكراً، أهديك هذا الكتاب»

باولو كويلو

تمهيد

«وأنتَ، أمام وجه رام المقدّس، تلمس بيديك «كلمة الحياة»، وتتلقّى قوة فائقة تخوّلك أن تشهد للكلمة حتى أقاصي الأرض».

رفع المعلم سيفي الجديد دون أن يخرجه من غمده. أضرمت النار، فتضاربت ألسنتها، واشتدت فرقعتها، وهذا بشير خير، ويعني الاستمرار في ممارسة الرتبة الدينية التي بدأناها. عندئذٍ، انحنيت وطفقت أحفر الأرض أمامي بيديَّ العاريتين.

حدث ذلك ليلة ٢ يناير ١٩٨٦. كنا على إحدى قمم جبل «سيرا دومار» بالقرب من الناحية التي تدعىَ «الرؤوس السوداء». كان هناك، بالإضافة إليّ وإلى معلّمي، زوجتي، وأحد تلامذتي، ومرشد محلّي، وممثل عن الأخوية الدينية الكبيرة التي تضمّ كافة الجمعيات الروحانية في العالم، والمعروفة باسم «الميراث». كنّا نحن الخمسة، بمن فيهم المرشد الذي أعلم مسبقاً بالمراسيم التي ستجري، نشارك بسيامتي كمعلّم في جمعية «رام»، وهي أخوية مسيحية قديمة أنشئت عام ١٤٩٢.

حفرتُ في التراب حفرة قليلة العمق، لكن واسعة، ورحت أضرب الأرض بطريقة احتفالية، وأنا أتلو الكلمات الطقوسية. عندئذٍ، اقتربت زوجتي، وأعطتني السيف الذي استخدمته عشر سنوات، والذي كان معاوني طوال هذا الوقت. وضعت السيف في الحفرة، ثم غطيته بالتراب، ومهّدت الأرض فوقه. وفيما كنت أقوم بهذه الحركات، عاودتني ذكرى المحن التي مررت بها، وأشياء

تعلّمتها، وظواهر كنت قادراً على افتعالها، لا لشيء إلا لأنّ هذا السيف الموغل في القدم كان حليفي ورفيقي الدائم. الآن، سيلتهمه التراب، وسيُغذّي نَصْله وخشبُ مقبضه المكان الذي غرف منه القدرة والنفوذ.

اقترب مني معلّمي، ووضع سيفي الجديد أمامي فوق مدفن سيفي القديم في حين أن جميع من كانوا بقربي بسطوا أذرعتهم؛ وبعث المعلّم حولنا بنور غريب لا يضيء، ولكنه ظاهر، ويُضفي على القامات لوناً مختلفاً عن الأصفر الذي تبعثه النار. أخرج المعلم سيفه الخاص من غمده، ولمس به كتفي ثم رأسي، وقال:

«بقدرة ومحبة «رام»، أعيّنك معلّماً وفارساً في الجمعيّة، اليوم وكلّ أيام حياتنا: حيث الحرف الأول من رام يعني الصرامة، والثاني يعني الحبّ، والثالث الرحمة. عندما يصبح سيفك بتصرّفك، لا تجعله سجين غمده فترة طويلة، لأنه بذلك يصدأ. وعندما تستلّه من غمده، ترجعه إليه قبل أن تقوم بعملٍ خيّر، أو تفتح طريقاً».

وبرأس سيفه، أحدث جرحاً بسيطاً في رأسي. عندئذٍ، لم أعد بحاجة للصمت، ولم يعد ضرورياً إخفاء ما كنت قادراً عليه، أو التستّر على الأعمال الخارقة التي تعلّمت القيام بها، تبعاً لنهج «الميراث». وابتداءً من هذه اللحظة، أصبحت أخاً.

بسطْتُ يدي لأمسك سيفي الجديد المصنوع من الفولاذ الذي لا يصدأ ومن الخشب ذي الترب الذي لا يتآكل، بمقبضه الأسود والأحمر وغمده الأسود. ولكن، ما إن لمسَتْ يداي الغمد وتهيّأتْ لاستلّ السيف منه، حتى قام معلّمي بخطوة إلى الأمام وداس أصابعي بعنفٍ، جعلني أزعق ألماً، وأرخي السيف من يدي.

نظرْتُ إليه دون أن أفهم ما حصل. اختفى النور الغريب، ومنحت النار وجه المعلم منظراً شبحياً.

نظر المعلم إليّ ببرودة، ونادى زوجتي، وسلّمها السيف الجديد. ثم اتّجه ناحيتي، ونطق بهذه الكلمات:

«أبعدْ يدك التي تخدعك، فطريق «الميراث» ليست طريق بعض المختارين، بل طريق كل الناس! والقدرة، التي تعتقد نفسك أنك تمتلكها وحدك، لا قيمة لها، لأنّك لا تتقاسمها وسائر البشر. كان أولى بك أن ترفض السيف، فيُعطى لك لأن قلبك بات نقياً.

«ولكن، حصل ما كنتُ أخشاه: زللْتَ وسقطْتَ. فبسبب طمعك، عليك أن تعاود السير من جديد بحثاً عن سيفك. وبسبب عجرفتك، عليك أن تفتش عنه وسط الناس البسطاء. وبسبب انبهارك بالخارق، عليك أن تصارع كثيراً لتجد ما سوف يُعطى لك مجّاناً».

بدا لي وكأنّ العالم كلّه أغمي عليه تحت قدمي. بقيت راكعاً، أخرس ومجهض الروح. الآن، وقد أودعْتُ سيفي القديم التراب، لا أستطيع استعادته. وبما أن السيف الجديد لم يُعطَ لي، فإني أجد نفسي من جديد في وضعية المبتدئ، لا قدرة لي ولا دفاع. أرجعني عنف معلّمي الذي سحق أصابعي، في اليوم الأول لسيامتي الكبرى، إلى عالم «الحقد» و«الأرض».

أطفأ المرشد النار، فدنتْ زوجتي منّي لتساعدني على النهوض. الآن، سيفي الجديد في عهدتها. أما أنا، بحسب طقوس «الميراث»، فلا أستطيع أبداً إمساكه دون إذن من معلّمي. انحدرنا عبر الغابات بصمت، مقتفين أثر ضوء السراج الذي يحمله المرشد، ووصلنا في النهاية إلى الطريق الترابية الصغيرة، حيث كانت السيارات متوقفة.

لم يُلقِ أحد التحية عليّ قبل المغادرة. وضعت زوجتي السيف في صندوق السيارة، وأدارت المحرّك. بقينا لوقت طويل صامتين، فيما هي تقود ببطء، لتتجنّب حفر الطريق ومطبّاتها.

قالت على سبيل التشجيع:

ـ لا تهتمّ. أنا واثقة أنك سوف تستعيد السيف.

سألتها عمّا كان المعلّم يقول لها.

قالت:

ـ ثلاثة أشياء: أولاً، كان عليه أن يجلب معه ملابس دافئة لأن الطقس كان أشد برودة ممّا توقّع. ثانياً، لم يُفاجأ بما حصل، لأنه سبق لأناس كثيرين أن وصلوا إلى الرتبة التي وصلت إليها، وتصرّفوا كما تصرّفت. وثالثاً، سيفك ينتظرك في مكان ما من الطريق التي عليك سلوكها. لم يحدّد التاريخ ولا الساعة. حدّثني فقط عن المكان الذي يجب أن أخبّئ السيف فيه كي تجده.

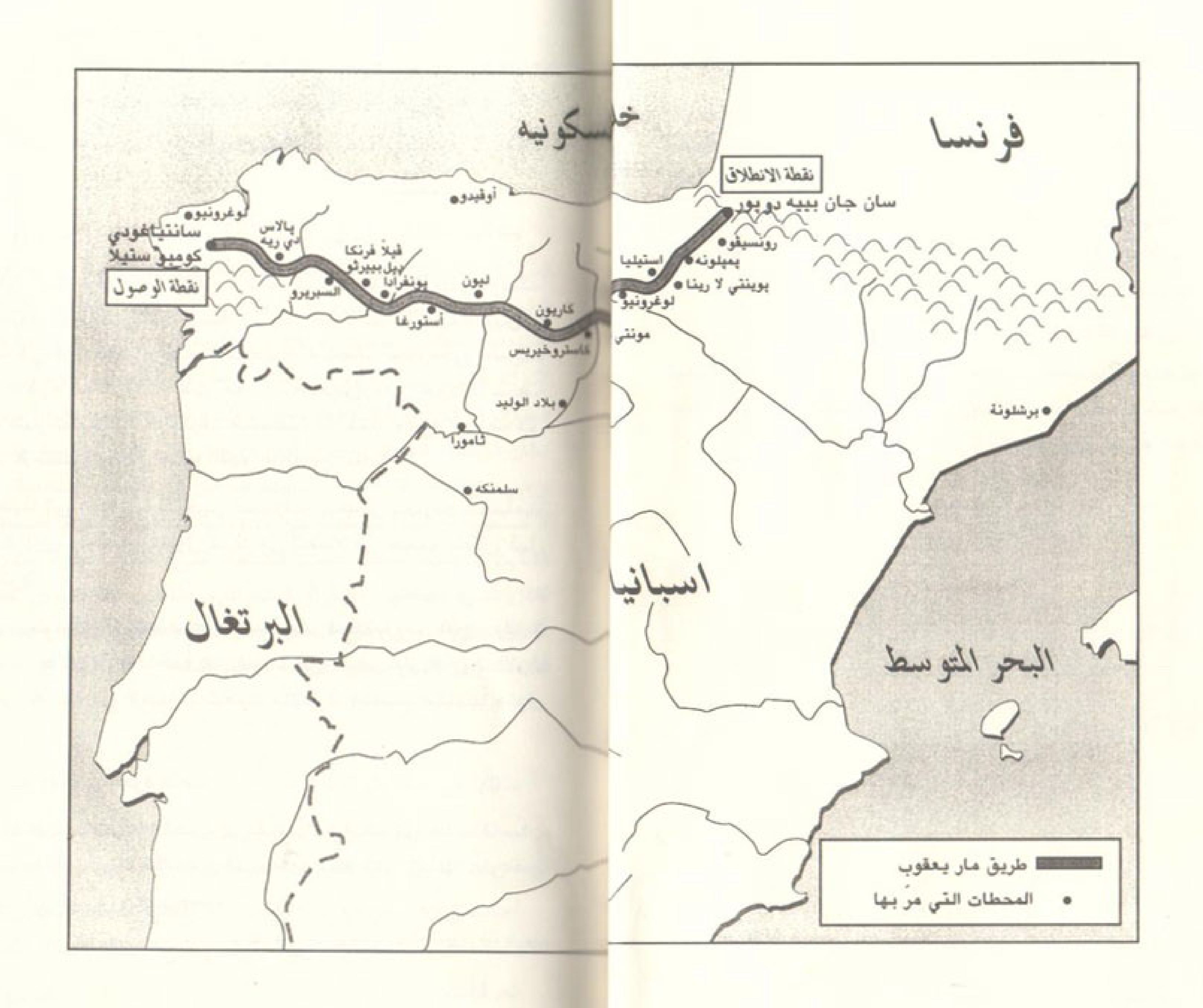
سألتها بعصبية:

ـ وأين هي هذه الطريق؟

ـ آه! هذا لم يشرحه لي جيّداً. قال لي فقط إنه يجب أن تبحث في خارطة إسبانيا عن طريق قديمة قروسطية، تُعرف باسم غريب، هو طريق «مار يعقوب»(*)

* * *

(*) مار يعقوب هو سانتياغو في اللغة الإسبانية.



سكونيه
فرنسا
نقطة الانطلاق
سان جان ببيه دو بور
رونسيفو
بمبلونه
استيليا
بوينتي لا رينا
لوغرونيو
كاريون
كاسترو خيريس
برشلونة
بلاد الوليد
ثامورا
سلمنكه
أوفيدو
ليون
أستورغا
بونفرادا
فيلا فرنكا
السبريرو
پالاس دي ريه
لوغرونيو
سانتياغو دي كومبو ستيلا
نقطة الوصول
اسبانيا
البرتغال
البحر المتوسط
طريق مار يعقوب
المحطات التي مرّ بها

الوصول

نظر الجمركي طويلاً إلى السيف الذي تحمله زوجتي، وسألنا ماذا ننوي أن نفعل به. أجبتُه أن أحد أصدقائنا سيعاينه قبل أن نضعه في المزاد العلني. نجحت الكذبة. وأعطانا الجمركي تصريحاً يؤكد فيه أننا دخلنا، عبر مطار «باجاداس» وفي حوزتنا سيف، كما أشار علينا أنه إذا طرأت مشكلة ما عند إخراج السيف من البلاد، فيكفي، والحال هذه، إظهار التصريح للجمارك.

ذهبنا إلى مكتب لتأجير السيارات، لنحجز سيارتين. تسلّمنا التذكرتين، وذهبنا لنتناول شيئاً من الطعام في مطعم المطار، قبل أن نفترق.

قضيت ليلة في الطائرة، عانيت فيها الكثير من الأرق، وأنا لا أعرف إن كان الأرق ناجماً عن الخوف من السفر على متن الطائرة، أو مما تخبئه لي الأحداث. شعرت بالإثارة، وبقيت متنبهاً طوال الوقت.

ردّدت زوجتي للمرة الألف:

ـ لا تهتم. عليك الذهاب إلى فرنسا. وهناك في مدينة «سان جان بييه دو بور»، تسأل عن السيدة سافان، وهي تدلّك على من يرشدك إلى طريق «مار يعقوب».

وسألت للمرة الألف، مع أني كنت أعرف الجواب مسبقاً:

ـ وأنت؟

ـ أذهبُ إلى المكان الذي ينبغي أن أنجز فيه ما طُلب إليّ القيام به. وأبقى، من ثمَّ، في مدريد بضعة أيام، أرجع بعدها إلى البرازيل. أنا قادرة على إدارة شؤوننا بشكل جيد، تماماً مثلك أنت.

أجبتُ باختصار، لأني لم أشأ التعرض، الآن، للموضوع:

ـ أنا أدرك ذلك.

كنتُ منشغلَ البال كثيراً على الأعمال التي تركتُها في البرازيل. عرفت كل ما تجب معرفته عن طريق «مار يعقوب»، في فترة لا تتعدى الخمسة عشر يوماً بعد وقوع حادثة «الرؤوس السوداء». ولكني كنت أحتاج إلى سبعة أشهر، لأبتّ في المسألة، أي لأترك كل شيء وأقوم بالرحلة. وأخيراً، قالت لي زوجتي، ذات صباح، إن الساعة واليوم قد حانا، وإنني، ما لم أتخذ قراراً حاسماً بشأن الرحلة، فسوف يكون عليّ أن أنسى إلى الأبد الجمعية وتعاليم «رام». حاولت أن أشرح لها أن المعلّم أوكل إليّ مهمة مستحيلة، لأني لا أستطيع أن أتبرّأ ببساطة من مسؤولية أعمالي اليومية. ضحكتْ، وقالت إن هذه الحجة ليست مقنعة، لأني، خلال سبعة أشهر، لم أفعل الشيء الكثير، اللهمَّ إلّا قضاء الأيام والليالي، وأنا أتساءل عمّا إذا كان عليّ الشروع في السفر أم لا. ثمَّ أعطتني، بكلّ بساطة، التذكرتين اللتين سجلّ عليهما موعد السفر.

سألتها في كافيتريا المطار:

ـ لمَ اتّخذت هذا القرار هنا بالذات؟ ولست أدري هل من المستحسن أن أدع أحداً غيري يتّخذ القرار بالتفتيش عن السيف.

أجابتني زوجتي أن من الأفضل، إذا كان علينا تكرار هذه الأقوال السخيفة، أن نفترق في الحال.

ثم قالت:

ـ «لن تسمح أبداً لأحد في حياتك أن يتّخذ قراراً بدلاً منك. فلنذهب. لقد تأخر الوقت».

أخذت حقائبها، واتّجهت إلى وكالة السفر. لم أتحرك، بل بقيت جالساً أراقب بأيّ دأب كانت تتأبط سيفي الذي يوشك، في كل لحظة، أن ينزلق من تحت ذراعها.

توقّفتْ في منتصف الطريق، ثم رجعت إلى جانب الطاولة، حيث كنت جالساً أمامها، وطبعت قبلة صاخبة على فمي، ونظرت إليّ طويلاً دون أن تنطق بكلمة. وفجاة، أدركتُ أنها إسبانيا، وأني لا أستطيع الرجوع إلى الوراء. كان لديَّ اليقين المخيف بأن إمكانات الفشل كبيرة، لكني ها قد قمت بالخطوة الأولى. عانقت زوجتي بشغف كبير، تعبيراً عن الحب الذي كنت أكنّه لها في هذه اللحظة. وفيما كنت أعانقها، رفعتُ صلاة إلى كل ما أؤمن به، وكل الذين أؤمن بهم، متوسلاً أن أستمدّ منهم القوة للرجوع والسيف في حوزتي.

قالت إحدى النسوة الجالسات إلى الطاولة المجاورة، بعد رحيل زوجتي:

ـ أرأيت؟ إنه سيف جميل.

فاجابها صوتُ رجلٍ:

ـ لا تهتمّي، ساشتري لك واحداً مثله بالضبط. هناك المئات منه في المحالّ الخاصة بالسياح في إسبانيا.

بعد مرور ساعة على قيادتي السيارة، بدأت أشعر بالتعب الذي تراكم منذ الليلة الفائتة. كان قيظُ شهر أغسطس مرتفعاً، بحيث أن جهاز قياس الحرارة سجّل رقماً مرتفعاً، على الرغم من أن الطريق لم تكن مزدحمة كثيراً. قررت التوقف قليلاً في مدينة صغيرة أُشير إليها، في خارطة الطريق، على أنها موقع سياحي. وفيما كنت أتسلّق المنحدر الوعر الذي يودي إليها، تذكّرت مرة أخرى كل ما تعلّمته عن طريق «مار يعقوب».

في التقليد الإسلامي، يجب على كلّ مؤمن أن يقوم بفريضة الحج إلى مكّة، ولو لمرة في حياته. وكذلك، شهدت الألفية الأولى من عهد المسيحية طرقاً ثلاثاً مقدّسة، تمنح كلّ من يجتاز إحداها سلسلة من الغفرانات والنِعم. تقود الطريق الأولى إلى قبر القديس بطرس في روما وشعارها الصليب. وقد دُعي الذين يسلكونها بـ «حجيج روما». أمّا الطريق الثانية، فتفضي إلى كنيسة القيامة في القدس، وذُعي الذين يسلكونها بـ «النخيليين»، لأنّ شعارهم كان أغصان النخيل التي استُقبل بها السيد المسيح لدى دخوله القدس. والطريق الثالثة والأخيرة تؤدي إلى زفات يعقوب الرسول الذي يرقد في مكان ما من شبه الجزيرة الإيبرية، بالضبط، حيث رأى أحد الرعيان نجمةً تسطع فوق حقل من الحقول. وتقول الخرافة إن مار يعقوب والعذراء مريم مرّا من هناك بعد موت السيد المسيح، وبشّرا بكلام الإنجيل داعيَيْن الشعوب إلى اعتناق المسيحية. أُطلق على المكان اسم «كومبوستيلا»، أي حقل النجمة. ولاحقاً، ارتفعت فوقه مدينة اجتذبت إليها كلّ الزوّار المسيحيين. كما أطلق على هؤلاء، الذين عبروا الطريق الثالثة، اسم «الحجّاج»، واتخذوا الصَدَفة شعاراً لهم.

خلال العصر الذهبي للمسيحية، إبّان القرن السادس عشر، كان أكثر من مليون شخص يفدون من أنحاء أوروبا سنوياً، ليجتازوا طريق «المجرة» (وقد دُعيت الطريق بهذا الاسم لأن الحجاج كانوا يهتدون أثناء الليل بهذه النجوم). واليوم، لا يزال هناك متصوّفون ورجال دين وبحّاثة يجتازون، سيراً على الأقدام، مسافة سبعمائة كيلومتر تفصل المدينة الفرنسية «سان جان بييه دوبور» عن كاتدرائية مار يعقوب في كومبوستيلا الواقعة في أسبانيا.[١]

(١) تتفرّع من طريق مار يعقوب الواقعة في الأراضي الفرنسية، عدة طرقات تلتقي جميعها في مدينة «بوينتي لارينا» الإسبانية. ومدينة «سان جان بييه دو بور» هي إحدى هذه الطرق، لكنها ليست الوحيدة، ولا الأكثر أهمية.

وبالاستناد إلى ما يقوله الكاهن الفرنسي إيميري بيكو الذي حجَّ إلى كومبوستيلا عام ١١٢٣، فإن الطريق التي يسلكها الحجاج اليوم مشابهة تماماً للدرب التي سلكها، في القرون الوسطى، شارلمان وفرنسيس الأسيزي وإيزابيلا دي كاستيل، وحديثاً البابا يوحنا الثالث والعشرون، والكثيرون غيرهم. ألّف بيكو، عن تجربته هذه، خمسة كتب جرى تقديمها على أنها من أعمال البابا كاليكستس الثاني، وهو من أتباع مار يعقوب. وعرفت مجموعة هذه الكتب باسم «مخطوط كاليكستس». في الكتاب الخامس من «مخطوط كاليكستس» وعنوانه «كتاب مار يعقوب»، يعدّد بيكو المواقع الطبيعية وسبل الماء والمضافات والملاجئ والمدن التي تنتشر على طول الطريق. وارتكزت جماعة تدعى «أصدقاء مار يعقوب» إلى شروح بيكو لتقوم برعاية هذه الأماكن الطبيعية، وإرشاد الحجاج إليها حتى أيامنا هذه.

خلال القرن الثاني عشر، بدأت الأمّة الاسبانية تستفيد من قدسية مار يعقوب، في صراعها ضد المغاربة الذين غزوا شبه الجزيرة. وأُنشئت فرق عسكرية عدّة على طول الطريق. وأضحى رفات الرسول سوراً روحياً عظيماً لردع المسلمين الذين كانوا يدّعون أنهم يملكون «ذراع محمد». ولكن، بعد أن انحسرت حملات الفتوحات، عظمت قوة التنظيمات العسكرية، بحيث باتت تشكّل تهديداً للدولة، ممّا أجبر الملوك الكاثوليكيين على التدخّل للحؤول دون تمرّد محتمل تقوم به هذه الوحدات ضد النبلاء. وهكذا سقطت الطريق شيئاً فشيئاً في غياهب النسيان. ولولا بعض التجلّيات الفنية النادرة، مثل «المجزة» لـ «بونويل»، «العابر» لـ «خوان مانويل سيرا»، لما تذكّر أحد اليوم أن آلاف الناس الذين يمّموا لاحقاً شطر «العالم الجديد»، قد مرّوا من هنا.

كانت القرية، التي وصلتُ إليها في السيارة، مُقفرة تماماً. وبعد طول تفتيش، عثرت على حانة صغيرة موجودة في عمارة من الطراز القروسطي. ألحّ لي صاحب الحانة، الذي لم يشح بنظره عن

البرنامج المعروض على شاشة التلفزيون، إلى أن هذا الوقت وقت القيلولة، وأن تنقّلي بالسيارة يُعدّ ضرباً من الجنون.

طلبت شراباً بارداً مستسلماً قليلاً لإغراء مشاهدة التلفزيون. لكني لم أكن استطيع التركيز على شيء. كنت أعتقد فقط أنني، في اليومين المقبلين، سأعيش من جديد، سأعيش، في خضمّ القرن العشرين، شيئاً يشبه المغامرة الإنسانية الكبرى التي أعادت عوليس من طروادة، ورافقت دون كيشوت إلى المانش، وقادت دانتي وأورفيوس إلى الجحيم، وكريستوف كولومبوس إلى أميركا. وأعني بها مغامرة السفر نحو المجهول.

حين رجعت لأستقلّ سيارتي، كنت أكثر هدوءاً؛ حتى ولو لم أجد سيفي، فإن الحجّ على طريق «مار يعقوب» سوف يمكّنني في جميع الأحوال من اكتشاف ذاتي.

* * *

«سان جان بييه دو بور»

كان ثمة أشخاص مقنعون وجوقة من البواقين، وكلهم يرتدون الأحمر والأخضر والأبيض وهي ألوان الباسك الفرنسي، يعبرون الشارع الرئيسي لـ «سان جان بييه دو بور». كان اليوم أحداً. كنت قد قضيت يومين وراء مقود السيارة، ولا يمكنني الآن أن أضيع دقيقة واحدة من وقتي في مشاهدة هذا الاحتفال. شققت طريقي وسط الحشد، وسمعت بعض الشتائم بالفرنسية، لكني استطعت في النهاية، اجتياز الحصون التي تؤلّف القسم القديم من المدينة، حيث عليَّ لقاء السيدة سافان. كان الطقس حاراً خلال النهار، حتى في هذه المنطقة من البيرنيه. وقد خرجت من السيارة والعرق يتصبب من جسمي.

قرعت الباب، وقرعته ثانية، وثالثة. وحده الصمت أجابني. جلست على حافّة الجدار الصغير، والقلق ينتابني. قالت لي زوجتي إنّ عليَّ التواجد هنا في هذا اليوم بالذات، لكن لم يتحرّك أحدٌ للقائي، ولم يستجب لندائي. لعلَّ السيدة سافان خرجت لتشاهد العرض. أو لعلّني وصلتُ متأخراً جداً، فقررتْ ألّا تستقبلني. ها إن طريق مار يعقوب تنتهي قبل أن تبدأ.

وفجاة، فُتح الباب، وقفزت طفلة إلى الشارع. ونهضت أنا أيضاً متوثّباً، وسألتها بفرنسية سيئة عن السيدة سافان، فراحت الفتاة الصغيرة تضحك، وأشارت إلى الداخل. عندئذٍ فقط، فهمت خطئي: فالباب يشرف على صحن دار فسيح تَحدق به بيوت قديمة

قروسطية مزدانة بالشرفات. وقد تُرك الباب مفتوحاً من أجلي، في حين أنني لم أجرؤ على الإمساك بمقبضه!

دخلْتُ راكضاً باتجاه البيت الذي أشارت إليه الفتاة الصغيرة. كانت في الداخل امرأة بدينة متقدّمة في السن نسبياً، تزعق بلغة الباسك موجّهة الكلام إلى صبيّ هزيل عيناه كستناويتان حزينتان. انتظرت حتى انتهت المشاجرة، وأرسلتِ العجوز الصبيَّ إلى المطبخ تحت وابل من الشتائم. عندئذٍ فقط، استدارت نحوي دون أن تسألني ماذا أريد. واقتادتني، تارة تراعيني وتارة تدفعني، إلى الطابق الثاني من البيت الصغير. كانت هناك غرفة واحدة مفتوحة، فيها مكتب مزدحم بالكتب والأغراض وتماثيل مار يعقوب وتذكارات الطرق. أخذت المرأة كتاباً من المكتبة، وجلست أمام الطاولة الوحيدة في الغرفة، وتركتني واقفاً.

قالتْ دون مواربة:

ـ لا بدَّ أنك زائر آخر لطريق مار يعقوب. عليَّ تدوين اسمك في سجل الحجّاج.

ذكرت لها اسمي. وأرادت أن تعرف إن كنت قد أحضرت معي الأصداف، التي تمثّل شعار الحج، وهي تغطّي قبر يعقوب الرسول وتسمح للحجّاج بأن يتعارفوا فيما بينهم[1]. قبل مجيئي إلى إسبانيا، قصدت في البرازيل أحد الأماكن المقدسة هو: «أباريسيدا دو نورتي» واشتريت صورة لسيدة «أباريسيدا» مرسومة فوق ثلاث أصداف. أخرجتها من حقيبتي، وقدمتُها للسيدة سافان.

قالت: «جميلة». ثم عقّبت، وهي تردّ لي الأصداف: «لكنها ليست عمليّة كثيراً. فقد تنكسر أثناء الطريق».

---

(١) الأمر الوحيد الذي تركته طريق «مار يعقوب» في الثقافة الفرنسية يتجلّى في المطبخ، وهو، في كل حال، يمثّل مفخرة هذا البلد: «صَدَفيّة مار يعقوب» (الصدفية لون من الطعام يعدّ من لحوم الأسماك ويقدم في صَدَفة).

قلت:

– لن تنكسر، سأضعها على قبر يعقوب الرسول.

بدا وكأنّ السيدة سافان لا تملك الكثير من الوقت لتخصصه لي. قدمت لي مفكرة صغيرة تسهّل عليّ إقامتي في الأديرة الموجودة على الطريق، وألصقت طابعاً يمثل «سان جان بييه دو بور»، مؤذنة بأنّ رحلتي قد ابتدأت. ثم قالت لي إني أستطيع الرحيل الآن بمباركة الرب.

سألتها:

– أين مرشدي؟

أجابت مصطنعةً الدهشة، وفي عينيها يلتمع بريق ما:

– عن أي مرشد تتحدث؟

عندئذٍ، أدركتُ أن أمراً أساسياً قد فاتني القيام به، والسبب انشغالي بالوصول، والعثور على أحد يستقبلني. نسيتُ أن أقول الكلمة القديمة التي تمثّل رمز التعارف بين هؤلاء الذين انتموا، أو ينتمون إلى جمعيات «الميراث». أصلحت خطئي في الحال، وتلفظت بالكلمة. فسارعت السيدة سافان، وانتزعت من يدي، بعنف، المفكرة التي أعطتني إياها منذ دقائق قليلة.

قالت، وهي تنتزع كدسة من الجرائد القديمة الموضوعة في أعلى صندوق مصنوع من الكرتون:

– لن تكون في حاجة إليها. طريقك ومحطّاتك مرتبطة بالقرارات التي يتخذها مرشدك.

انتشلت السيدة سافان من الصندوق قبّعة ورداء، كانا يبدوان قديمين، ولكن في حالة جيدة. طلبت مني أن أبقى واقفاً في منتصف الغرفة، وبدأت تصلّي بصمت. ثم وضعت الرداء على كتفي والقبعة فوق رأسي. لاحظتُ أن أصدافاً حيكت على القبعة

فضلاً عن كتفيّات الرداء. تناولت المرأة، دون أن تكفّ عن الصلاة، عصا حاج مستندة إلى زاوية المكتب، ووضعتها في يدي اليمنى. وقد عُلّق في طرف العصا الطويلة كرنيب صغير للماء. وهكذا وجدتُني وسط الغرفة مرتدياً بنطال جينز قصير وقميصاً كتبت عليها عبارة: "I love Ny"، ومغطّى بلباس قروسطي كان يرتديه حجّاج كومبوستيلا.

اقتربت العجوز مني. بسطت يديها فوق رأسي، وقد انتابها ما يشبه الرعدة، ثم قالت:

– فليرافقك يعقوب الرسول، ويدلّك على الشيء الوحيد الذي يجدر بك اكتشافه. لا تمشِ بسرعة ولا تتمهّل، بل احترم قوانين الطريق وضروراتها. أطِعْ مرشدك، حتى ولو أمرك بالقتل، أو بالتجديف، أو بالإقدام على عمل أخرق. عليك أن تقسم متعهّداً الطاعة الكاملة لمرشدك.

– أقسمتُ.

ثم أضافت:

– إن روح الحجّاج القدامى إلى كومبوستيلا سترافقك في رحلتك. والقبعة تحميك من الشمس ومن الأفكار الشريرة. والكرنيب يردّ عنك الأعداء والأعمال الشريرة. بركة الرب ومار يعقوب والعذراء مريم تكون معك، وترافقك على مدى الأيام والليالي. آمين.

بعدها، عادت المرأة إلى سابق عهدها. لملمت الثياب بسرعة، ووضعتها في الصندوق من جديد، وقد بدت سيئة المزاج. كما أعادت الكرنيب والعصا إلى الركن في الغرفة. لقّنتني كلمات السر، ثم طلبتْ مني الرحيل سريعاً، لأن مرشدي ينتظرني على بعد كيلومتر أو اثنين من «سان جان بييه دو بور».

قالت:

– هو يكره الأبواق. لكن بالإمكان سماعها حتى على بعد كيلومترين من الساحة، ذلك أن جبال البيرنيه مخزن لصدى الأصوات.

ومن دون أيّ تعليق إضافي، نزلت راجعة إلى المطبخ، لتمعن في تعذيب الصبي ذي العينين الحزينتين. عندما خرجتُ، سألتُها ماذا عليّ أن أفعل بسيارتي، فنصحتني بأن أترك المفاتيح عندها، لأن أحداً ما سيأتي لأخذها. ذهبت لأنتشل من صندوق السيارة حقيبة الظهر الزرقاء التي غلّق إليها كيس النوم، ووضعت، في جيبها الأكثر أماناً، صورة سيدة «أباريسيدا» والأصداف. تأبطت الحقيبة، ورجعت لأسلّم مفاتيح السيارة للسيدة سافان.

– غادرِ المدينة سالكاً هذا الشارع حتى تصل إلى الباب الذي هناك عند آخر الأسوار. عندما تصل إلى مار يعقوب كومبوستيلا، أتلُ من أجلي «السلام لك يا مريم». لطالما عبرْتُ هذه الطريق. أما الآن، فأكتفي بأن أقرأ في أعين الحجّاج الانفعال الذي ما زلت أشعر به، ولا يمكنني أن أعيشه كاملاً من جديد بسبب سنّي. قلْ هذا لمار يعقوب. قلْ له أيضاً إنني سألتقيه قريباً، ولكن عبر طريق أخرى أكثر استقامة وأقل إرهاقاً.

تركتُ المدينة الصغيرة مجتازاً الأسوار عبر باب إسبانيا. قديماً، كانت هذه الطريق المعبر المفضَّل للغزاة الرومان. ومن هنا أيضاً، مرّت جيوش شارلمان ونابليون. مشيت بصمت مستمعاً إلى جوقة البوّاقين في البعيد. وفجأة، لدى بلوغي أنقاض إحدى القرى القريبة من «سان جان»، تملّكني انفعال شديد، واغرورقت عيناي بالدموع: هنا، فوق هذه الأنقاض، أدركت للمرة الأولى أن قدميّ تدوسان الطريق الغريبة لمار يعقوب.

كانت تنبعث من جبال البيرنيه المحيطة بالوادي موسيقى امتزجت ألحانها بألوان الشمس الصباحية. منحني مرآها إحساساً بأني أشاهد منظراً طبيعياً بات منسياً من البشر، لا أستطيع تحديده بأيّ شكل من الأشكال. ومع ذلك، كان هذا الإحساس غريباً وجارفاً. قرّرت أن أسرع الخطى لأصل إلى المكان الذي حددته لي السيدة سافان، وحيث كان ينتظرني مرشدي. أثناء المشي، خلعتُ القميص ووضعتها في حقيبة ظهري، لأن حمّالاتها آلمت كتفيّ العاريتين. أما حذائي الرياضي القديم، فكان مناسباً تماماً لقدميّ، ولم يشعرني بأيّ انزعاج. وبعد أربعين دقيقة من المسير، وعند منعطف يحاذي صخرة ضخمة، وصلْتُ إلى بئر قديمة مهجورة يجلس قربها رجل شارف الخمسين، ذو شعر أسود، وهيئة تشبه هيئة الغجر. كان يبحث عن شيء في حقيبته.

قلت في الإسبانية، وبالخجل الذي أشعر به دوماً عندما ألتقي الغرباء:

– مرحباً. لا بدَّ أنك تنتظرني. أدعى باولو.

توقّف الرجل عن التفتيش في حقيبته، وتفحّصني ملياً من رأسي إلى أخمص قدميّ. كانت نظرته باردة، ولم يبدُ مندهشاً لرؤيتي. وقد خالجني شعور غامض مماثل بأني رأيته من قبل.

قال:

– أجل، كنت بانتظارك، لكني لم أتوقّع أني سألتقيك بهذه السرعة. ماذا تريد؟

أربكني سؤال من يُفترض به أن يرشدني إلى طريق «المجزة»، بحثاً عن سيفي.

قال الرجل:

— الأمر لا يستحقّ العناء. أستطيع أن أجده بدلاً عنك إذا شئت. ولكن اتّخذ قراراً، في الحال.

وجدتُ هذا الحوار غريباً. ومع ذلك، وبما أني تعهدتُ الطاعة التامة، فقد تهيأت للردّ. إذا كان بوسعه أن ينوب عني في العثور على السيف، فهذا سيجعلني أكسب وقتاً هائلاً، وأستطيع، عندئذٍ، العودة سريعاً إلى البرازيل، إلى عائلتي وأعمالي التي شغلت أفكاري طوال الوقت. أو لعلّ في الأمر خدعة. مهما يكن، فلا حرج في الإجابة.

هممتُ أن أجيب بالموافقة. وفجأة، انطلق من ورائي صوت يقول بلغة إسبانية ذات نبرة قوية جداً:

— لا يحتاج المرء إلى تسلّق الجبال، ليعرف أنها عالية.

هذه كلمة السر. استدرتُ ورأيت رجلاً شارف الأربعين يرتدي بنطالاً قصيراً كاكي اللون، وقميصاً بيضاء مبلّلة بالعرق. كان شعره رمادياً وقد أحرقت الشمس بشرة وجهه. تفرّس الرجل بالغجريّ. وأدركتُ، عندئذٍ، أنني لفرط استعجالي نسيتُ القوانين الأكثر بدائية لحماية النفس، ورميت بنفسي، جسداً وروحاً، بين ذراعي أوّل مجهول صادفته في طريقي.

أجبته عن كلمة السر:

— المركب في أمان عندما يكون في المرفأ، لكن ليس لأجل هذا أضعت المراكب. ومع ذلك، فإن الرجل لم يشح بنظره عن الغجري ولا الغجري أشاح بنظره عن الرجل. تفرّس كلّ منهما بوجه الآخر ملياً دون خشية ولا جسارة... إلى أن رمى الغجري حقيبته أرضاً والابتسامة الساخرة تعلو وجهه، ثم رحل باتجاه «سان جان بييه دو بور».

عندما اختفى الغجري خلف الصخرة الضخمة التي انعطفت بمحاذاتها منذ دقائق قليلة، قال الواصل الجديد:

— أدعى بتروس[1]. كن أكثر حذراً في المرّة المقبلة.

كانت هناك نبرة ودية في صوته لم أعهدها في صوت الغجري، ولا في صوت السيدة سافان. التقط حقيبته التي رُسمت فوقها صَدَفة، ثم انتشل منها زجاجة من النبيذ. احتسى جرعة، ثم قدّمها إليّ. بعد أن شربت، سألته عن هوية الرجل الغجري.

أوضح بتروس قائلاً:

— هذه الناحية الحدودية يؤمّها الكثير من اللصوص والإرهابيون الملتجئون إلى الباسك الإسباني. إن الشرطة لا تجرؤ على المجيء إلى هنا.

— ليس هذا جواباً مقنعاً. رأيتكما تنظران أحدكما إلى الآخر وكأنّ هناك معرفة سابقة بينكما. كما شعرت أنا أيضاً بأني أعرفه. لذا كنت متهوراً إلى هذا الحدّ معه.

ضحك بتروس، ثم قال إن علينا متابعة السير.

أخذتُ أمتعتي ومشينا بصمت. لكن ضحكة بتروس أتاحت لي أن أدرك أننا، كلينا، نعتقد الشيء نفسه: أننا قابلنا لتوّنا شيطاناً.

أوغلنا في المسير دون أن ننبس بكلمة. كانت السيدة سافان على حقّ: حتى على بعد ثلاثة كيلومترات، يمكننا دوماً سماع صوت الأبواق التي لا تكفّ عن العزف. أردت أن أطرح على بتروس أسئلة كثيرة تتعلّق بحياته وعمله وسبب وجوده هنا. كنت أعرف، مع ذلك، أن أمامنا سبعمائة كيلومتر علينا اجتيازها معاً، وأن اللحظة المناسبة، لطرح هذه الأسئلة ونيل الأجوبة عنها، لا بدّ ستأتي. لكن الغجري لم يبارح أفكاري. وأخيراً قطعتُ حبل الصمت، وقلت:

(1) في الواقع، أعلمني بتروس باسمه الحقيقي، ولكن بدافع حماية حياته الشخصية، غيّرت اسمه كما غيّرت أسماء الشخصيات الأخرى التي صادفتها على طريق «مار يعقوب».

ـ بتروس، أعتقد أن الغجري كان الشيطان.

ـ أجل، كان الشيطان.

عندما أكّد لي بتروس ذلك، أحسست بمزيج من الرهبة والعزاء.

وأضاف بتروس.

ـ لكنه ليس الشيطان الذي عرفته من خلال «الميراث».

الشيطان، في «الميراث»، هو روح ليست بالشريرة ولا بالخيرة. ويعتبر حارساً على معظم الأسرار التي يستطيع الإنسان فهمها، كما أنه مسلّط على الأشياء المادية. وبما أنه ملاك ساقط، فهو يتماهى مع الجنس البشري ومستعدّ دوماً لإبرام المعاهدات، وتبادل الخدمات معه.

سألتُ بتروس عن الفرق بين الغجر والشياطين، بحسب «الميراث»، فاجابني وهو يضحك:

ـ ستلتقي شياطين أُخر على الطريق وستفهم وحدك. ولكن، لإعطائك فكرة، حاول أن تتذكّر حوارك مع الغجري.

استعدت في ذهني الجملتين الوحيدتين اللتين تبادلتهما معه. قال إنه ينتظرني، وأكّد لي أنه سيذهب للتفتيش عن سيفي بدلاً مني.

عندئذٍ، أوضح لي بتروس أن هاتين العبارتين تتناسبان، تماماً، مع وضع سارق ضُبط بالجرم المشهود. كان يحاول أن يكسب الوقت لكي يتحضّر للهرب. من الممكن أن تُخفي العبارتان معنى مستتراً أكثر عمقاً، أو لعلّهما تعكسان فعلاً أفكار الغجري.

سألته:

ـ أيّ من الافتراضين هو الصحيح؟

ـ كلاهما صحيح، فهذا اللص المسكين كان يدافع عن نفسه. وتلا على الفور الكلمات التي يجب أن تُقال لك. فكّر أنه، بتصرّفه هذا، سيبدو ذكياً، وسيكون أداة لقوة عليا. لو أنّه هرب ساعة

وصلتُ لما كنا نتحادث بهذا الشأن الآن. لكنّه واجهني، وقرأت في عينيه اسم الشيطان الذي ستلتقيه في طريقك.

كان هذا اللقاء مع الغجريّ بشير خير لبتروس، لأن الشيطان أعلن عن نفسه في وقت مبكر للغاية.

«لكن لا تشغلْ بالك الآن بالتفكير فيه، لأنه، كما قلتُ لك، لن يكون الوحيد. لعلّه الأهم لكنه ليس الوحيد».

استأنفنا السير. كان النبات صحراوياً تشكّله الجنبات المبعثرة هنا وهناك. لعلّ من الأفضل اتّباع نصائح بتروس والاستسلام للأمور. من وقت إلى آخر، كان بتروس يعلّق على حدث تاريخي جرى في الأماكن التي كنا نمرّ بها: رأيتُ بيتاً نامت فيه إحدى الملكات عشية موتها، وكنيسة صغيرة محفورة في الصخر، هي صومعة عاش فيها رجل قديس يقول عنه السكان القليلون إنه قادر على اجتراح المعجزات.

سال بتروس:

ـ المعجزات أمر هام جداً، ألا توافقني؟

شاطرته الرأي، مع أنه لم تتسنَّ لي في حياتي رؤية معجزة كبيرة. كان اكتسابي لـ «الميراث» ذهنياً للغاية. كنت أعتقد أنني، حين أستردّ سيفي، ساكون قادراً على تحقيق كل الأشياء العظيمة التي كان يقوم بها معلّمي.

«لكنها ليست معجزات بالمعنى الصحيح للكلمة، لأنها لا تغيّر قوانين الطبيعة. إن ما يقوم به معلمي هو استخدام هذه القوى لـ ...»

لم أتمكّن من إنهاء جملتي، لأني لم أجد أي تفسير للأمور التي ينجح معلمي في تحقيقها: تجسيد الأرواح، ونقل الأشياء من مكانها دون أن يلمسها. كما رأيته، أكثر من مرة، يفتح فسحات زرقاء وسط السماء الملبّدة بالغيوم، في أوقات بعد الظهيرة.

عقّب بتروس قائلاً:

ــ لعلّه يفعل ذلك ليقنعك أنه يمسك بزمام القدرة والمعرفة.

وافقت على قوله دون اقتناع:

ــ ربما.

جلسنا فوق إحدى الصخور، لأن بتروس قال لي إنه يكره التدخين أثناء المشي، وإن الرئتين تتنشقان، والحالة هذه، كمية أكبر من النيكوتين مما يجعله يشعر بالغثيان.

«هذا هو السبب إذن في أن معلمك رفض إعطاءك السيف: لأنك لا تعرف الغاية التي من أجلها يقوم بأشياء خارقة. ولأنك نسيت أن طريق المعرفة مفتوحة أمام كل الناس، وخاصة الناس العاديين. ساعلّمك خلال رحلتنا، بعض التمارين والطقوس المعروفة بـ «ممارسات رام» وأيّ شخص قادر، في أي لحظة من حياته، أن يمارس أحد هذه التمارين على الأقل. ومن يفتش عنها بتأنٍّ ونفاذ بصيرة، يكتشفها، جميعاً ودون استثناء، في الأمثولات التي تقدمها الحياة.

«إن ممارسات رام هي بسيطة للغاية لدرجة أن الناس الذين ألفوا مثلك تعقيد الحياة، لا يولونها أي أهمية».

كان بتروس على حق. فإن يسمح الله للمثقفين وحدهم، أو للذين يمتلكون الوقت والمال لشراء الكتب الثمينة، بالوصول إلى المعرفة، فذلك يبدو ظلماً إلهياً.

وأضاف بتروس:

ــ إن الطريق الحقيقية للحكمة تُعرف من أمور ثلاثة: أولاً، تضمّنها الحب الإلهي، وسأحدثك عن ذلك لاحقاً. ثانياً، تجلّيها عبر ممارسةٍ عمليّةٍ في حياتك، وإلا تمسي الحكمة غير مجدية وتصدأ كسيف لم يُشهر. وأخيراً، توفّر الإمكانية لدى الجميع لاجتياز

طريق الحكمة، مثل هذه الطريق الماثلة أمامك، طريق «مار يعقوب».

مشينا طوال بعد الظهيرة. وعندما همّت الشمس بالغروب وراء الجبال، قرّر بتروس التوقف من جديد. وكانت القمم الأكثر ارتفاعاً في جبال البيرنيه الملتفّة حولنا قد ودّعت آخر أضواء النهار.

طلب مني بتروس أن أنظّف مساحة صغيرة من التراب، وأن أركع فوقها.

قال:

«الممارسة الأولى لـ «رام» تعلّمك كيف تولد من جديد. عليك تنفيذها لمدة سبعة أيام متتالية، محاولاً أن تعيش، بطريقة مختلفة، لقاءك الأوّل بالعالم.

«كم كان صعباً عليك التخلّي عن كل شيء، واتخاذ القرار باجتياز طريق مار يعقوب بحثاً عن سيفك. إنا شعرت بهذه الصعوبة، فلأنك كنت أسير الماضي: فشلت وأضحيت تخاف من هزيمة جديدة. حصلت على شيء ما، وأمسيت تخاف أن تخسره. ومع ذلك، فإن شعوراً أقوى من كلّ شيء طفا على السطح: رغبتَ في استعادة سيفك، وقرّرت المجازفة».

وافقتُ على قوله، لكنّي لم أتخلّص بعد من المشاغل التي ألمح إليها:

«هذا ليس مهماً. التمرين يحرّرك تدريجاً من الأوزار التي خلقتها، أنت نفسك، في حياتك».

وعلّمني أول ممارسة في «رام»: إنه تمرين البذرة.

تمرين البذرة

اجثُ على ركبتيك، واستند إلى كاحليك، ثم انخفض حتى يلامس رأسك ركبتيك. ابسط ذراعيك إلى الخلف. أنت الآن في وضع جنيني، فاسترخِ، وانسَ كلَّ توتر. تنفسْ عميقاً وبهدوء تشعر تدريجاً أنك بذرةٌ صغيرة يحيط بها سكون الأرض. كلُّ شيء دافئ ولذيذ من حولك، وسوف تستغرق في نوم هادئ.

وفجأة، ترتعش إحدى أصابعك. لا يمكن للبذرة أن تظلَّ كما هي، يجب أن تولد. تُحرك ذراعيك ببطء، وتعيد جسدك إلى وضعيته السابقة، مستنداً إلى كاحليك. عندئذ، تنهض. وشيئاً فشيئاً، تستند إلى ركبتيك، وظهرك مستقيم. تخيلْ، طوال هذا الوقت، أنك بذرةٌ تحولت إلى نبتة صغيرة، تشق أديمَ التراب رويداً رويداً.

يحين الوقت لتشقَّ التراب. تنهض بتمهّل على الساق الأولى ثم على الأخرى، وأنت تسعى جاهداً للحفاظ على توازنك، أشبه بنبتة تصارع لتثبت في مكانها. تخيّل الحقل من حولك، والشمس والماء والريح والعصافير: أنت بذرة نَمَتْ لتصير نبتة. تنهض ببطء، رافعاً ذراعيك نحو السماء، ثم تمغط جسدك بقدر ما تستطيع، وكأنك تريد أن تمسك بالشمس الهائلة التي تحيط بك. يصبح جسدك أكثر تصلّباً وعضلاتك مشدودة، فيما أنت تكبر وتكبر لتصير عملاقاً. يزداد الضغط بحيث يصبح مؤلماً وغير محتمل. وحين يصير كذلك، تُطلق صرخة، وتفتح عينيك.

كرِّرْ هذا التمرين سبعة أيام متتالية، ودائماً في الوقت نفسه.

قال بتروس:

ـ قمْ بهذا التمرين الآن.

وضعتُ رأسي بين ركبتي. تنفّست بعمق واسترخيت. استجاب جسدي بسهولة.

ـ ربما استجاب لأننا مشينا كثيراً خلال النهار، وكان جسدي متعباً. أخذتُ أصغي إلى صوت الأرض، إنه صوت صاخب وأجشّ. وشيئاً فشيئاً، تحولتُ إلى بذرة. لم أفكر بشيء... كان كل شيء قائماً، وأنا نائم في باطن الأرض. ثم فجأة، تحرّك جزء مني. أراد جزء مني أن يوقظني ويحثني على الخروج، لأن هناك شيئاً ما آخر «فوق». خلتني نائماً لكن هذا الجزء أصرَّ، وأخذ يحرّك أصابعي التي حرّكت بدورها ذراعي. ومع ذلك، لم تكن تلك أصابع ولا ذراعين، بل بذرة صغيرة تصارع للتحرر من قوة الجاذبية في الأرض، وتتجه إلى «فوق». شعرت أن جسدي استجاب لحركة ذراعي. وكل ثانية مرّت بدت لي أبدية. لكنَّ البذرة كانت بحاجة أن تولد وتكتشف ماذا يوجد «فوق». وبصعوبة فائقة، استقام رأسي، ثم جسدي. كان كل شيء بطيئاً للغاية. وكان عليَّ أن أجابه القوة التي تجتذبني إلى باطن الأرض، حيث كنت مستغرقاً في نوم أبدي. لكني نجحت، وتغلّبت، أخيراً، على هذه القوة، ونهضت. اخترقت الأرض، ووجدتني محاطاً بهذا الشيء الذي يمثل «فوق».

إنه الريف. أحسست بحرارة الشمس، وسمعت طنين الحشرات ووشوشة الساقية الجارية في البعيد. نهضت ببطء، وأنا مغمض العينين، معتقداً، في كل لحظة، أني سأفقد توازني وأعود إلى الأرض. ومع ذلك، فإنني كنت أنمو باطّراد: ذراعاي تبتعدان، وجسدي يتصلّب. كنت هنا أولد من جديد، متمنياً من هذه الشمس الهائلة الساطعة، التي تطلب مني أن أنمو وأتمدّد حتى أعانقها بكلّ أغصاني، أن تغمرني بنورها من الداخل والخارج. اجتذبتُ ذراعي إلى أقصى حدّ فآلمتني كل عضلات جسدي. شعرت أن ارتفاعي يبلغ ألف متر، وأنني أستطيع أن أحتضن الجبال. تمدّد

جسدي، تمدَّد إلى أن شعرت أن الألم العضلي بات غير محتمل، فصرخت.

فتحت عيني، ورأيت بتروس أمامي يدخّن مبتسماً. لم يكن ضوء النهار قد تلاشى بعد. لكنني ذهشت لاكتشافي أن الشمس لم تكن بالإشراق الذي تصوّرتُه. سألته هل كان يرغب أن أصف له أحاسيسي. فأجاب بالنفي:

ـ هذه أشياء خاصة جداً. يجب أن تحتفظ بها لنفسك. فكيف يسعني أن أحكم عليها. إنها تعنيك وحدك.

ثم أضاف أننا سننام هنا. أشعلنا ناراً صغيرة، واحتسينا ما تبقّى في زجاجة النبيذ. حضّرت بعض الشطائر من «باتيه» الكبد، التي اشتهيتها قبل وصولي إلى «سان جان». ذهب بتروس إلى الساقية التي تجري قرب المكان، واصطاد أسماكاً شواها على النار. ثم تمدّد كلٌّ منا في كيس النوم.

من مجمل الأحاسيس التي اعترتني في حياتي، لا أستطيع نسيان هذه الليلة الأولى التي قضيتها على طريق «مار يعقوب». كان الطقس بارداً، على الرغم من أننا في فصل الصيف. لكن طعم النبيذ الذي أحضره بتروس لا يزال في فمي. نظرت إلى السماء، ورأيت المجرّة التي ترشد إلى الطريق الهائلة التي علينا اجتيازها. في ظروف مختلفة، قد يكون هذا الاتساع حافزاً للشعور بالقلق الشديد والخوف الكبير من الفشل وعدم الجدارة. ولكن، اليوم، كنت بذرة، وولدت من جديد. اكتشفت أن الحياة «فوق» أكثر جمالاً، رغم الراحة التي تمنحني إياها الأرض، ورغم النوم الذي استرسلت فيه. وأستطيع أن أولد قدر ما أشاء، حتى تصبح ذراعاي كبيرتين، لأعانق الأرض التي أتيت منها.

* * *

الخالق والخليقة

لستّة أيام، مشينا عبر البيرنيه، متسلّقين الجبال صعوداً ونزولاً. كان بتروس يجعلني أكرّر تمرين البذرة، في كلّ مرة يحتجب فيها نور الشمس عن القمم الأكثر ارتفاعاً. في اليوم الثالث، بلغنا عموداً يشير إلى أن أقدامنا وطأت الأرض الإسبانية. حدّثني بتروس، تباعاً، عن بعض الجوانب التي تتعلّق بحياته الخاصة. عرفت أنه إيطاليّ ورسام صناعيّ[1]. سألته هل كان منشغلاً بالأعمال التي تركها لينصرف إلى إرشاد حاجّ يفتش عن سيفه.

أجابني:

ـ أودّ أن تفهم شيئاً. أن أرشدك بهدف العثور على سيفك، فهذا أمر يعود تنفيذه إليك فقط. أنا هنا لأقودك إلى طريق «مار يعقوب»، وأعلّمك قواعد «رام». أما الطريقة التي ستطبّق من خلالها هذه القواعد للعثور على سيفك، فشأن يخصّك أنت وحدك.

ـ لم تجبني عن سؤالي.

(١) يؤكد كولن ويلسون أن ليس هناك ما يسمّى مصادفة في هذا العالم. ومرةً أخرى تسنّى لي التأكد من صحة هذا القول. بعد ظهيرة أحد الأيام، كنت أتصفّح المجلّات في قاعة الفندق حيث نزلت في مدريد عندما لفت انتباهي تحقيق عن جائزة أمير استورياس، لا سيما وأن الصحافي البرازيلي روبرتو مارينهو كان أحد الفائزين. نظرت بتمعّن أكثر إلى صورة المأدبة التي أقيمت على شرف الجائزة، فصعقتني المفاجأة، على إحدى الطاولات رأيت بتروس متأنقاً في بذلة سموكينغ، وفي أسفل الصورة قرأت التعليق التالي: «أحد أهم المصمّمين في أوروبا حالياً».

— عندما تسافر، تختبر عملياً فعل الولادة من جديد. تجد نفسك حيال أوضاع جديدة عليك تماماً. فالنهار يمضي ببطء، وأنت غالباً لا تفهم اللغة التي يتكلّم بها الناس، كأنك تشبه طفلاً خرج من بطن أمه للتو. في هذه الشروط، تُبدي اهتماماً أكبر بما يحيط بك، لأن بقاءك منوط بذلك. وتصبح إنساناً منفتحاً على الآخرين، ومتقبّلاً لهم، لأنهم يشكّلون عوناً لك في الحالات الصعبة. تتلقى أقل نعمة من الآلهة بفرح عظيم، وكان الأمر يتعلّق بفصل من حياتك لن تتمكّن من نسيانه ما حييت.

وبما أن كلّ شيء جديد، فأنت لا ترى في الأشياء إلا جمالها. وتُقبل بسعادة أكبر على الحياة. لذلك كان الحج الديني دوماً، إحدى الطرق الأكثر موضوعية لبلوغ حالة الإشراق الروحي. فلكي تتطهّر من آثامك، يجب أن تسير قدماً إلى الأمام متكيّفاً مع الأوضاع الجديدة، ومتلقّياً، بالمقابل، آلاف النعم التي تمنحها الحياة بسخاء لطالبيها.

— أوَ تعتقد أنه ينبغي لي ألّا أخفي قلقي على بضعة مشاريع لم أنجزها، لأكون هنا معك؟

أدار بتروس وجهه، وتبعتُ حركة رأسه: كان هناك قطيع ماعز يرعى عند منحدر الجبل. تسلّقت إحدى العنزات الجريئات صخرة مرتفعة، ووقفت على طرفها المسنون الناتئ، تساءلت كيف بإمكانها بلوغ ذلك والرجوع سالمةً إلى القطيع. ما كنتُ أنهي سؤالي حتى وثبت العنزة، واستندت إلى نقطة ما، لم تستطع عيناي رؤيتها، لتوافي رفيقاتها. كان كل شيء في الجوار يعكس سلاماً حيّاً، سلامَ عالم يمكنه أن ينمو ويبدع ويعرف أنه من أجل ذلك عليه متابعة المسير باطّراد. أحياناً، كان حدوث زلزال عنيف، أو هبوب عاصفة هوجاء، يشعرني بأن الطبيعة قاسية متوحّشة. والآن بتّ أفهم أن هذه الأمور تعدّ من مخاطر الطريق. فالطبيعة تسافر، هي أيضاً، بحثاً عن الإشراق.

قال بتروس:

— أنا مسرور جداً لوجودي هنا، فالعمل، الذي لم أنجزه، لم تعد له أهمية. أما الأعمال التي سأنجزها لاحقاً، فسوف تكون أفضل.

عندما قرأت مؤلفات كارلوس كاستانيدا، رغبت كثيراً في أن ألتقي الساحر الهندي العجوز دون خوان. وعندما نظرت إلى بتروس وهو يتأمل الجبال، بدا لي أنني في حضرة أحد يشبهه وكأنّه أخ له.

بعد ظهيرة اليوم السابع، وبعد أن اجتزنا غابة من الصنوبر، بلغنا أعلى ربوة. هنا، صلى شارلمان للمرة الأولى على أرض إسبانيا. وفوق نصب قديم، كتبت كلمات باللاتينية تشير إلى أن الاحتفاء بهذا الحدث، يقتضي من الزائر أن يتلو «السلام عليك أيتها الملكة». نفّذنا، أنا وبتروس، ما توصي به الكتابة. ثم طلب منّي بتروس أن أقوم بتمرين البذرة للمرة الأخيرة.

كانت هناك ريح قوية، وكان الطقس شديد البرودة. اعترضْتُ على ما طلبه منّي بتروس، متذرّعاً بأن الوقت لا يزال مبكراً، إذ كانت الساعة لم تجاوز الثالثة بعد الظهر، لكنه أمرني بألّا أناقشه، وأن أنفّذ التمرين في الحال.

جثوْتُ على التراب وباشرت التمرين. جرى كل شيء كالعادة، إلى أن انبسطت ذراعي، وبدأت أتخيّل الشمس. عندما وصلت الى هذه النقطة، حيث الشمس الهائلة تسطع أمامي، شعرْتُ أنني دخلت في حالة من الانخطاف. كانت مشاعري الإنسانية تنطفىء ببطء، ولم يعد الأمر مقتصراً على تمرين أقوم به، بل تحوّلت إلى شجرة. كنت سعيداً وراضياً بذلك، في حين أن الشمس تسطع وتدور حول نفسها، وهذا ما لم يحصل من قبل. وبقيت هنا، أغصاني ممدودة، وأوراقي تعبث بها الريح. رغبت في ألّا أفارق البتّة هذه الحالة...

حتى اللحظة التي مسّني فيها شيء ما، فاظلم كل شيء حولي بأقلّ من ثانية.

فتحت عيني من جديد. كان بتروس قد صفعني، وأمسكني من كتفي. ثم قال لي بلهجة غاضبة:

ـ لا تنس الأهداف التي جئت من أجلها. لا تنس أنه ما يزال أمامك الكثير لتتعلّمه قبل أن تعثر على سيفك!

جلست على الأرض، وأنا أرتجف من برودة الريح.

سألت:

ـ هل ما حدث لي يحصل دائماً؟

ـ غالباً، ولا سيما مع الناس الذين تستهويهم مثلك التفاصيل، فينسون الهدف من سعيهم.

انتشل بتروس سترة من حقيبته وارتداها. وارتديت قميصاً أخرى فوق القميص التي كتب عليها: "I love Ny". لم أكن أتخيّل أن الطقس سيكون بارداً إلى هذا الحد، في هذا الصيف الذي وصفَتْه الصحف بأنه «الأكثر حرّاً منذ عقد». ومع أن سماكة القميصين قد عزلت عني بعض الهواء، فقد طلبت من بتروس أن يحثّ الخطى لكي أشعر بالدفء قليلاً.

كنّا نسلك طريقاً منحدراً سهل العبور. أعتقد أن ما شعرت به من برد يُعزى إلى الطعام الخفيف جداً الذي كنّا نتناوله، والذي يعتمد، فقط، على الأسماك وثمار الغابات[1]. لكن بتروس أوضح لي أن شعورنا بالبرد راجع إلى أننا نتسلّق الآن النقطة الأكثر ارتفاعاً في مسيرتنا على الجبال.

لم نكد نجتاز خمسمئة متر، ونبلغ منعطف أحد المسالك حتى تبدّل المنظر كليّاً. تراءى أمامنا سهل فسيح متموج. وعلى بعد

---

(١) ثمار حمراء لا أعرف اسمها، ولكن رؤيتها اليوم تشعرني بالغثيان، لكثرة ما أكلت منها خلال سفري في جبال البيرنيه.

مئتي متر شمال الطريق المنحدر، كانت هناك قرية صغيرة في انتظارنا بمداخنها التي يتصاعد منها الدخان. أردت أن أسرع الخطى، لكن بتروس صدّني، ثم جلس على الأرض مشيراً عليّ بأن أحذو حذوه، وقال:

ـ أعتقد أن هذه هي اللحظة المُثلى لأعلّمك التمرين الثاني من «رام».

جلست رغماً عني. كانت رؤية المدينة الصغيرة، بمداخنها التي يتصاعد منها الدخان، قد هيَّجت أشجاني. وفجأة، أدركت أن أسبوعاً قد مرَّ ونحن في الريف لا نرى أحداً، ننام في العراء ونمشي طوال النهار. نفدت سجائري، وكنت مجبراً على تدخين سجائر بتروس الملفوفة، التي تثير روعي. أما الرقاد في كيس النوم وتناول السمك دون توابل، فقد كانا من أغلى الأمنيات التي راودتني عندما كنت في سن العشرين. لكن، على طريق «مار يعقوب»، بدا الأمر وكأنه امتثال مبالغ فيه. انتظرت بفارغ الصبر أن ينتهي بتروس من لفّ سيجارته، ويدخّنها بصمت، فيما أنا أحلم بالدفء الذي تبثّه في أوصالي كأس من النبيذ أتناولها في حانة أراها من هنا، ولا يستغرق الوصول إليها أكثر من خمس دقائق. كان بتروس يبدو هادئاً. وهو متدثّر بسترته، يسرّح نظره في السهل المترامي الأطراف.

سألني بعد قليل:

ـ كيف وجدت اجتياز البيرنيه؟

أجبت، دون رغبة في إطالة الحديث:

ـ جميلاً جداً.

ـ لا بدَّ أنه كان جميلاً جداً، لأننا قضينا ستة أيام نسير على طريق كنّا نستطيع سلوكها في يوم واحد.

لم أصدّقه. أخذ الخارطة، وأظهر لي المسافة: سبعة كيلومترات. يمكن سلوك هذه الدرب، بكلّ ما فيها انحدارات وعقبات، وما يستوجبه ذلك من إبطاء في المسير، خلال ست ساعات فقط.

«أنت منشغل للغاية بالعثور على سيفك، لدرجة أنك نسيت الأهم: الطريق التي يجب سلوكها لبلوغه. كنت تنظر فقط إلى شطر مدينة «كومبوستيلا» التي لا تستطيع رؤيتها من هنا، ولم تلاحظ، بالتالي، أننا مررنا بالأماكن نفسها أربع مرات أو خمس، عبر طرق مختلفة».

فيما كان بتروس يتفوّه بهذا الكلام، أدركت أن قمة ايتشاشغري، وهي الأكثر ارتفاعاً في المنطقة، كانت، خلالَ تجوالنا، تظهر تارة إلى يميني وتارة إلى يساري. لكن، حتى ولو لاحظت ذلك، لما استطعت أيضاً التوصل إلى استنتاج أننا: مشينا الطريق نفسها ذهاباً وإياباً مرات عدّة.

«كل ما فعلتُه، هو أنني سلكتُ طرقاً مختلفة مستفيداً من المسالك التي افتتحها اللصوص وسط الغابة. رغم ذلك، فإنه كان يُفترض بك أن تنتبه للأمر. لكنك سهوت عنه، لأن السير، بحدّ ذاته، لم يكن يهمّك، بل الرغبة في الوصول.

ـ وافرضْ أنني انتبهت إلى ذلك، فما الذي كان سيحصل؟

ـ في جميع الأحوال، لا مفر من مسيرة الأيام السبعة، لأن تمارين «رام» تقتضي ذلك أيضاً. لكن كان باستطاعتك الاستفادة من البيرنيه بطريقة أخرى.

أنستني دهشتي البرد والقرية الماثلة أمامي.

وأضاف بتروس:

ـ عندما نسافر سعياً وراء هدف، من المهمّ جداً أن تغيّر الطريق الاهتمام، لأنّ الطريق هي التي تسهّل الوصول إلى الهدف، وهي الي تزيدنا غنى وعمقاً، كلّما توغّلنا فيها. إذا قارنّا الطريق بالعلاقة الجنسية، أستطيع أن أقول لك إن المداعبات التمهيدية، هي التي تحدّد قوّة النشوة. والجميع يعرفون ذلك.

«وهكذا، عندما نملك هدفاً في الحياة يرجع، لنا وحدنا الأمر في جعله أفضل أو أسوأ، تبعاً للطريق التي نجتازها لبلوغه، والوسيلة التي تمكّننا من اجتيازها أيضاً. لهذا السبب، يغدو التمرين الثاني

في «رام» مهمّاً جداً، وهو يقوم على اغتراف الأسرار من الأمور التي ألفنا رؤيتها كل يوم، ولكن رتابة حياتنا حالت بيننا وبين رؤيتها».

ولقّنني بتروس تمرين السرعة:

«إذا كنتَ في المدينة منهمكاً إلى أقصى حدٍّ بعملك اليومي، فعليك أن تمارس هذا التمرين لمدة عشرين دقيقة فقط. لكن، بما أننا اليوم نجتاز الطريق الغريبة لمار يعقوب، فإننا نحتاج إلى ساعة من الوقت للوصول إلى القرية».

عاودني الشعور بالبرد الذي نسيته، ونظرتُ إلى بتروس، وأنا محبط العزيمة. لكنه لم يولني اهتمامه: حمل حقيبته، وطفقنا نجتاز المئتي متر التي تفصلنا عن القرية ببطء مُقنط.

في البداية، لم أنظر إلا إلى الحانة، وهي مبنى قديم مؤلّف من طبقتين وتعلو بابه لافتة خشبية. كنا قريبين جداً، بحيث أمكنني قراءة التاريخ الذي مضى على تشييد هذا المبنى، وهو: ١٦٥٢. كنا نتقدّم، لكننا نراوح مكاننا، على ما يبدو. كان بتروس يضع قدماً تلو الأخرى ببطء شديد، وكنت أحذو حذوه. أخذت ساعتي من حقيبتي، ووضعتها في معصمي.

قال:

ـ هذا أسوأ، لأن الوقت لا يجري دوماً على الوتيرة نفسها.

طفقت أنظر إلى ساعتي دون توقّف، وفهمت أنه كان محقاً. كلّما نظرت إلى الساعة، مرّت الدقائق ببطء أكبر. فقررت أن أعمل بنصيحته، فأعدت ساعتي إلى الحقيبة. حاولت أن أكرّس اهتمامي للمنظر والسهل والحجارة التي تدوسها قدماي، لكن نظري ظلّ معلقاً بالحانة الماثلة قبالتي، تحدوني قناعة بأننا جامدان لم نتحرك قيد أنملة. خطرت لي فكرةُ أن اخترع قصصاً لأسلّي نفسي؛ لكن هذا التمرين جعلني عصبياً إلى درجة عجزتُ معها عن التركيز. وعندما عيل صبري، أخرجت الساعة من حقيبتي مجدداً، فوجدت أن إحدى عشرة دقيقة فقط قد مرّت.

تمرين السرعة

امشِ لمدة عشرين دقيقة أبطأ مرتين مما تمشي عادة. وانتبه إلى كلّ التفاصيل التي تحيط بك، الناس والمناظر وكل شيء.

من الأفضل أن تقوم بهذا التمرين بعد تناول الغداء.

عاود التمرين لمدة سبعة أيام.



قال بتروس:

ـ لا تجعل من هذا التمرين عذاباً، لأنه لم يوضع لهذه الغاية. حاول أن تستمتع بسرعة لم تألفها من قبل، لأنك، حين تمارس، بشكل مختلف، الحركات الروتينية التي تمارسها كل يوم، تتيح، بذلك، لإنسان جديد أن ينمو داخلك. والقرار، في النهاية، يعود إليك.

إن اللطف الذي تضمنته العبارة الأخيرة، هدّأ من روعي قليلاً. إذا كان الأمر يعود إليّ لأقرر ماذا أفعل بهذه الدقائق، فمن الأفضل أن أفيد من الوضع، وأغيّر مجراه لصالحي. تنفّست بعمق، وتحاشيت التفكير، أيقظت في داخلي حالة لذيذة، وكان الوقت بات شيئاً بعيداً، خارجاً عن دارة اهتماماتي. وبدأت، بهدوء متزايد، أنظر إلى ما يحيط بي. والخيال، الذي كان مستعصياً عندما كنت متوتراً، بدأ يعمل لصالحي. نظرت إلى القرية المقابلة لي، واخترعت لها قصة: كيف بُنيت، ما أكثر الحجاج الذين مرّوا من هنا، ما أسعد التعرّف إلى أناس غرباء، ما ألذّ تنشق هواء جبال البيرنيه القارس... في وقت من الأوقات، خُيّل إليّ أني أرى في عمق القرية حضوراً قوياً، غامضاً وحكيماً. لقد أخصب منظر السهل خيالي بالمشاهد، فرأيت الفرسان يخوضون المعارك، رأيت سيوفهم اللامعة في الشمس، وسمعت صرخات الحرب. لم تعد القرية مكاناً فقط لأدفىء روحي بالنبيذ، وجسدي بغطاء، بل صارت حدثاً تاريخياً، صنيع أناس أبطال تركوا كل شيء ليقيموا في هذه الأماكن القصيّة. كان العالم يضجّ من حولي، وأدركت أني لم أوله من اهتمامي سوى القليل، في أغلب الأحيان.

عندما أدركت ذلك، كنا أمام باب الحانة، وكان بتروس يدعوني للدخول، قائلاً:

— أدعوك إلى كأس نبيذ. سننام باكراً، لأني غداً سأعرّفك إلى مجوسيّ كبير.

نمت نوماً عميقاً خالياً من الأحلام. وفيما كان النهار يطلع وينتشر عبر الشارعين الوحيدين في قرية «رونسوفو»، قرع بتروس باب غرفتي. قضينا ليلتنا في الطابق الثاني من الحانة، التي كانت في الوقت نفسه نزلاً.

تناولنا القهوة السوداء والخبز المغمّس بزيت الزيتون، وخرجنا. كان هناك ضباب كثيف يكتنف المكان. اكتشفت أن «رونسوفو» لم تكن قرية كما ظننت. وعرفت أنها كانت تشكّل الدير الأكثر نفوذاً في عهود الحج القديمة، وكانت تابعة مباشرة لأراضٍ تمتد حتى حدود «نافارا»، وقد احتفظت بخصائص تلك المرحلة. أما مبانيها القليلة، فتشكّل جزءاً من مدرسة دينية، في حين أن المبنى، ذا الطابع العلماني الوحيد، هو الخانة التي نزلنا فيها.

مشينا عبر الضباب، ودخلنا الكنيسة المجمعية. كان هناك عدة كهنة يقيمون رتبة القدّاس الصباحية، وهم يرتدون ثيابهم الكهنوتية البيضاء. لم أفهم كلمة واحدة ممّا يقولونه، لأن القدّاس كان يُقدّم في لغة الباسك. جلس بتروس على مقعد في الخلف، وطلب منّي أن أبقى إلى جانبه.

كانت الكنيسة ضخمة، وتحوي أعمالاً فنية لا تُقدَّر قيمتها بثمن. شرح لي بتروس أنها بُنيت، بفضل هبات ملوك وملكات البرتغال واسبانيا وفرنسا وإلمانيا، في مكان عيّنه الامبراطور شارلمان مسبقاً. كان تمثال عذراء «رونسوفو» يعلو المذبح، وهو منحوت من الفضة الثقيلة. أما الوجه، فمن الخشب النفيس، ونحتت باقة الازهار التي تحملها بين يديها، من الأحجار الكريمة. وقد تمكّنت رائحة البخور والبناء القوطي والكهنة بثيابهم البيضاء وأناشيدهم، من

وضعي في حالة من الذهول تشبه الرعدة التي خبرتها خلال ممارسة الطقوس التي كنا نقيمها في «جمعية الميراث».

سألت بتروس متذكّراً أقواله البارحة:

— والمجوسيّ؟

فأشار بحركة من رأسه إلى كاهن نحيل متوسط العمر، يرتدي نظّارة ويجلس قرب الرهبان الآخرين، على مقعد طويل يحيط بالمذبح. إنه مجوسيّ وكاهن، فهل هذا يُعقل!

بعد انتهاء رتبة القدّاس، تركني بتروس جالساً وحدي على المقعد، واتّجه خارجاً عبر الباب نفسه الذي خرج منه الكهنة. وبقيت أتأمّل الكنيسة. قلت في نفسي إن عليّ أن أصلّي، لكني لم أستطع التركيز على شيء. كانت الصور تبدو لي أسيرة ماضٍ غابر لن يرجع، حتى يرجع العصر الذهبي لطريق «مار يعقوب».

ظهر بتروس عند الباب، وأومأ لي أن أتبعه.

وصلنا إلى الحديقة الداخلية التي تحيط بالدير. على حافة السبيل، كان الكاهن ذو النظّارة متأهّباً للقائنا.

قال بتروس، معرّفاً عني:

— أنها الأخ جوردي، هذا أحد الحجّاج.

بسط لي الكاهن يده، فصافحته. وخيّم علينا صمت عميق. انتظرت أن يحدث شيء، لكني لم أسمع إلا صياح الديكة في البعيد، وأصوات النورس الباحث عن طرائد يومية. نظر إليّ الكاهن، ببرودة، نظرةً شبيهة بتلك التي رمقتني بها السيدة سافان حين تلفظت «الكلمة القديمة».

– يا عزيزي، يبدو أنك تسلّقت بسرعة المراتب في «جمعية الميراث». أجبته أن عمري ثمانية وثلاثون سنة، وأنني نجحت في جميع التحكيمات[1]. تابع الكاهن كلامه، وهو يحدق إليّ بنظرة خالية من أي تعبير:

– إلّا تحكيماً واحداً، وهو الأهم. من دونه يغدو كلّ ما تعلّمته بلا معنى.

– من أجل هذا، أحجّ على طريق «مار يعقوب».

– لكن هذا ليس ضمانة. تعال معي.

بقي بتروس في الحديقة، وتبعت الأب جوردي. اجتزنا أروقة الدير، ومررنا بالقرب من المكان الذي دُفن فيه أحد الملوك: سانشي الباسل. توقّفنا داخل كنيسة صغيرة بُنيت في أقصى الأبنية الرئيسية للدير «رونسوفو».

في الداخل، كانت الكنيسة فارغة: إلاّ من طاولة وكتاب وسيف. لكنه لم يكن سيفي.

جلس الأب جوردي أمام الطاولة، وتركني واقفاً. ثم تناول بعض الأعشاب، وأحرقها ممّا عطّر الجو. كان الوضع يذكّرني بلقائي السيدة سافان.

قال الأب جوردي:

– بدايةً، أريد أن أنبّهك: إن طريق «مار يعقوب» هي إحدى الطرق الأربع: إنها طريق البستوني. وهي تجلب لك القوة، لكن هذا ليس كافياً.

– وما هي الطرق الثلاث الأخرى؟

– تعرف اثنتيْن منها: طريق أورشليم، وهي طريق الكُبا، أو

---

(١) التحكيمات هي اختبارات طقسية لا تستند فقط إلى دأب التلميذ أو إلى اجتهاده، بل تقوم، أيضاً، على العلائم التي تظهر خلال إجرائها. ويعود أصل هذه الكلمة إلى عهد المحاكمات الدينية.

الكاس التي قدّسها المسيح أثناء العشاء السرّي؛ وهذه تجلب لك القدرة على اجتراح المعجزات. وطريق روما، وهي طريق السباتي التي تتيح لك الاتصال بالعوالم الأخرى.

قلت ممازحاً:

– تبقى، إذن، طريق الديناري، لتكتمل ألوان الورق الأربعة.

– تماماً. هذه هي الطريق السرّية التي ستسلكها ذات يوم. لكنك لن تتمكن أن تخبر أحداً عنها. والآن لندع هذا جانباً... أين هي أصدافك؟

فتحت حقيبة ظهري، وأخرجت الأصداف وصورة سيدة «أباريسيا». وضعها على الطاولة، ثمّ بسط يديه فوقها، وركّز طالباً منّي أن أفعل ما فعل. ازداد العطر المنبعث من الأعشاب قوّة. كانت أعيننا، أنا والكاهن، مفتوحة. وفجأة أدركت أن الظاهرة، التي شاهدتها في «إيتاسيايا»، تتكرّر: كانت الأصداف تلتمع بضوء لا ينير، ثم ازداد البريق حدّة، وسمعْتُ صوتاً غامضاً ينبعث من حنجرة الأخ جوردي، قائلاً:

– «حيث يوجد كنزكم، هناك يكون قلبكم».

كانت هذه جملة من الكتاب المقدس. وتابع الصوت:

– وحيث يوجد قلبكم، هناك يكون مهدُ المجيء الثاني للمسيح، وكما هي هذه الأصداف كذلك هو زائر طريق مار يعقوب، ليس إلا صَدَفة. وإذا انكسرت الصَدَفة المصنوعة من الحياة، تظهر «الحياة» التي هي الحب الإلهي.

سحب الأب جوردي يديه، وكفّت الأصداف عن اللمعان. ثم سجّل اسمي داخل كتاب موضوع على الطاولة. وخلال رحلتي على طريق «مار يعقوب»، سُجّل اسمي في كتب ثلاثة هي: كتاب السيدة سافان وكتاب الأخ جوردي، وكتاب «القدرة»، حيث أكتب اسمي بنفسي.

،هنا كلُ شيء. بإمكانكم الذهاب. فلترافقكم بركة عذراء ،رونسوفو، ومار يعقوب حامل السيف،.

وأثناء عودتنا إلى المكان الذي ينتظرنا فيه بتروس، قال لي الكاهن، على سبيل الإيضاح:

ـ إن طريق ،مار يعقوب، يشار إليها بنقاط صفراء مبعثرة عبر إسبانيا. إذا أضعتم الدرب في وقت من الأوقات، فما عليكم إلا أن تفتشوا عنها على الأشجار والحجارة واللافتات المنصوبة في الطريق ليستدل بها المسافر، وثقوا أنكم قادرون على بلوغ مكان آمن.

ـ لديَّ مرشد جيد.

ـ عليك أن تعتمد على نفسك، كي لا تكون مضطراً لقضاء ستة أيام ذهاباً وإياباً في وسط البيرنيه.

كان الكاهن إذن يعرف ما حصل لي.

وافينا بتروس، ثم استأذنا بالانصراف. تركنا ،رونسوفو، في الصباح، وقد انقشع الضباب تماماً. كانت الطريق تمتد أمامنا مستقيمة مستوية. ورحت أفتش عن العلامات الصفراء التي حدّثني عنها الأب جوردي. كانت حقيبة ظهري أثقل، لأنني اشتريت زجاجة خمر من الحانة، مع أن بتروس قال لي إن هذا ليس ضرورياً، لأننا، ابتداءً من ،رونسوفو،، سنجتاز مئات القرى، ولن نضطر إلى النوم في العراء إلا لماماً.

ـ بتروس، حدَّثني جوردي عن المجيء الثاني للمسيح، وكأنَّ هذا الأمر حدث فعلاً.

ـ ويحدث دائماً. هذا هو سرّ السيف.

ـ ثمَّ لا تنسى أنك قلت لي إنني سألتقي أحد المجوس، لكني التقيت كاهناً. ما علاقة هذا بالكنيسة الكاثوليكية؟

تلفَّظ بتروس بعبارة واحدة:

ـ علاقة مطلقة.

* * *

القسوة

«هنا، في هذا المكان بالذات، اغتيل الحب»، قالها مزارع عجوز، وهو يشير إلى كنيسة صغيرة محفورة في الصخر.

مشينا خمسة أيام متتالية، يقتصر عملنا على الأكل والنوم. بقي بتروس متحفظاً عن حياته الخاصة، لكنه بدا كثير الاهتمام بالبرازيل وبعملي. قال إنه يحبّ بلادي كثيراً، لا سيّما وأنّ صورتها مرتبطة في ذهنه بصورة المسيح الفادي «كوركو فادو» التي تمثّله باسطاً ذراعيه وليس معذّباً فوق الصليب. كان يريد أن يعرف كل شيء عن البرازيل. وكان يسألني مع كل خطوة، عمّا إذا كانت النسوة هناك جميلات كالنساء هنا. كانت الحرارة، خلال النهار، تغدو غير محتملة، وشكا الناس، في كل الحانات والقرى التي كنّا نصل إليها، شدة الحرّ والجفاف. بدأنا نتوقّف عن المشي بين الساعة الثانية والرابعة بعد الظهر، أي في الوقت الذي يرتفع فيه حرّ الهاجرة إلى أوجه، متبعين العادة الإسبانية في الخلود إلى القيلولة.

بعد الظهيرة، وفيما كنا نرتاح في بستان زيتون، أقبل مزارع عجوز باتجاهنا، وقدّم إلينا شيئاً من الخمر، رغم الحر الشديد، فتلك عادة متأصلة منذ قرون من عادات السكان في هذه الأصقاع المعزولة من الأرض.

سألت العجوز، إذ لاحظت رغبته في الكلام:

ـ لماذا اغتيل الحب هنا؟

ـ منذ قرون، كانت هناك أميرة تحجّ على طريق «مار يعقوب»، وهي فيليسي داكتيان. قرّرت أن تتخلّى عن كلّ شيء، وتقيم هنا لدى رجوعها من كومبوستيلا. كانت تجسيداً حيّاً للحب، لأنها تقاسمت ثروتها مع الفقراء، واعتنت بالمرضى.

أشعل بتروس إحدى سجائره الفظيعة الملفوفة. لكنّي لاحظت أنه كان يولي القصة اهتمامه، رغم مظهره اللامبالي.

أضاف العجوز:

ـ عندئذٍ، أوفد والدها أخاها الدوق غوبرمو لاسترجاعها، فرفضَت. ولمّا يئس الدوق من الأمر، طعنها بخنجر في الكنيسة الصغيرة التي تراها هناك، والتي بنتها بيديها الاثنتين، لتعتني بالفقراء وتمجّد الله.

«عندما رجع الدوق إلى بلاده أدرك فعلته، فذهب إلى روما ليطلب المغفرة من البابا، الذي أجبره على أن يقوم بالحجّ إلى كومبوستيلا، تكفيراً عن ذنبه. عندئذٍ، حصل أمر غريب: لدى مروره من هنا، أحسّ بالاندفاع نفسه، وقرّر الإقامة في الكنيسة الصغيرة التي بنتها أخته، ليعتني بالفقراء حتى آخر أيام حياته الطويلة.

قال بتروس وهو يضحك:

ـ إنه قانون العودة.

لم يفهم المزارع تعقيب بتروس. لكني كنت أدرك تماماً ما كان يرمي إليه. أثناء تجوالنا الطويل، أجرينا نقاشات لاهوتية مطوّلة عن العلاقة التي تربط الله بالبشر، قلت له إن العلاقة بالله موجودة في «جمعية الميراث»، لكنها مختلفة تماماً عن الشكل الذي اتّخذته خلال رحلتنا على طريق «مار يعقوب». فالكهنة

المجوس، والغجر الذين صاروا شياطين، والقديسون الذين يجترحون المعجزات، بدا لي أنهم يعودون إلى زمن غابر، ويرتبطون ارتباطاً وثيقاً بالمسيحية التقليدية، وأنهم بعيدون من السحر والنشوة التي تثيرهما «طقوس الميراث». كان بتروس يرد على مداخلاتي، قائلاً إن طريق مار يعقوب طريق يستطيع الجميع عبورها، وليست حكراً على أحد. وبما أنها كذلك، فهي تقود حتماً إلى الله.

فقال بتروس:

ـ أنت تؤمن بوجود الله وأنا أيضاً. فالله، إذن، موجود بنظرنا. لكن إذا كان هناك من لا يؤمن به، فهذا لا يعني أن الله كفَّ عن الوجود. كما أن هذا لا يعني أن الإنسان، الذي لا يؤمن، قد أخطأ وضلَّ.

ـ إن حدود الله تنتهي إذن عند رغبة الانسان وقدرته؟

ـ كان لديَّ صديق يظلّ ثملاً، لكنه كان يتلو كل مساء «السلام عليك يا مريم» ثلاث مرات، لأن أمه عوّدته منذ الطفولة تلاوتها. كان يعود إلى البيت ثملاً فاقداً وعيه. ورغم ذلك، ورغم انعدام إيمانه، فإنه يتلو صلاته دائماً. بعد وفاته، وخلال طقس كنا نقيمه في «الميراث»، سألت روح الأقدمين عن مكان وجوده، فأجابني الروح أنه بخير، وأنه محاط بالنور. لم يكن مؤمناً في حياته، انحصر جهده فقط في تلاوة الصلوات الثلاث بطريقة آلية إذ كان يتلوها على سبيل الواجب. ومع ذلك، فإن هذا الجهد قد خلّصه.

«تجلى الله في كهوف الأقدمين وفي الرعود. وبعد أن اكتشف الإنسان أن الرعود ظاهرة طبيعية، سكن الله بعض الحيوانات والغابات المقدسة. وفي عصور ما قبل الميلاد، لم يتواجد الله إلا في سراديب الأموات الكائنة داخل المدن الكبيرة. لكن، طوال هذا الوقت، لم يتوان الله عن أن يغمر قلب الإنسان متخذاً شكل الحب.

«في أيامنا هذه، غدا الله، مفهوماً شبه مثبت علمياً. لكن على هذا المستوى أيضاً، تراجعت المفاهيم التاريخية إلى الوراء، وأصبح كل

شيء يبدأ من جديد. إنه قانون العودة. عندما استشهد الأخ جودري بجملة من السيد المسيح تقول: «حيث يكون قلبكم، هناك يكون كنزكم»، كان يشير إلى هذا بالضبط. فحيثما ترغب برؤية وجه الله تره. وإذا لم تكن تريد رؤيته، فليس لهذا أهمية. المهم أن يكون جهدك صادقاً. عندما بنت فيليسي داكتيان الكنيسة وراحت تساعد الفقراء، نسيَتْ الله الفاتيكان، وجسّدته، على طريقتها الأكثر بدائية وحكمة في الوقت نفسه، من خلال الحب. وهنا، كان المزارع محقاً، عندما قال إن الحب قد اغتيل.

كان المزارع غير قادر على متابعة حوارنا، وبدا منزعجاً.

أضاف بتروس:

ـ رجع قانون العودة إلى الظهور، عندما رأى أخوها نفسه مجبراً على إتمام العمل الذي كان قد عرقله. ذلك أن كل شيء مسموح إلا أن تعرقل تجلّياً للحب. وعندما يحدث ذلك، فعلى كل من حاول الهدم، المباشرة بإعادة البناء.

قلت لبتروس إن قانون العودة، الذي يتحدث عنه، يعني في بلادي ظهور التشوهات والأمراض التي تصيب البشر، وهي شكل من أشكال العقاب على أخطاء ارتكبها الإنسان خلال تجسدات سابقة.

احتجَّ بتروس قائلاً:

ـ هذا سخف. الله ليس انتقاماً. الله محبة. وعقابه الوحيد يقوم على إرغام مَنْ عرقل عمل الحب بإعادة البناء.

اعتذر المزارع، قائلاً إن الوقت قد تأخر، وإنه يُفترض به العودة إلى عمله. ورأى بتروس أن هذه الحجة جيدة أيضاً لنتابع سيرنا.

قال، أثناء اجتيازنا بستان الزيتون:

ـ على سبيل الختام، أستطيع القول إن الله موجود في كل ما يحيط بنا. ويجب أن نستشعر وجوده، ونعيشه. أحاول هنا أن أجعل

من وجوده مسألة منطقية لكي تفهم. تابع تمرّنك على المشي البطيء وستعي حضوره أكثر فأكثر.

بعد يومين، صعدنا جبلاً يدعى «قمة الغفران». دام اجتيازنا الجبل بضع ساعات، وعندما وصلنا إلى القمة، رأيت مشهداً صدمني: كان جماعة من السياح يتسلّقون في الشمس، وهم يشربون البيرة، وصوت الراديو ينبعث صاخباً من سيارتهم. كانوا قد سلكوا درباً ضيقة تقود إلى الأعالي.

قال بتروس:

– هكذا إذن. وكنت تعتقد أنك ستلتقي هنا أحد المحاربين في مسرحية «السيد»، متأهباً لصدّ الهجوم الوشيك للمغاربة؟

أثناء نزولنا، قمت، لآخر مرة، بتمرين «السرعة». ووجدنا أنفسنا، من جديد، قبالة سهل فسيح محفوف بالتلال الزرقاء تكسوه النباتات الصغيرة التي أيبسها الجفاف. لم تكن هناك أشجار، بل طريق حجرية وبعض الأشواك.

عند انتهاء التمرين، سألني بتروس عن عملي. وأدركت أنني لم أفكر فيه منذ وقت طويل. تلاشى من ذاكرتي، تماماً، القلق على أعمالي غير المنجزة هناك، وعلى كل ما تخليت عنه. تذكّرته هذا المساء، ولم أعلّق أهمية كبيرة على الأمر. كنت مسروراً لوجودي على طريق «مار يعقوب».

قال بتروس ممازحاً، بعد أن أعلمته حقيقة مشاعري:

– قليلاً، وتتفوّق على فيليبي داكتيان!

ثم توقّف، وطلب مني أن أضع حقيبتي أرضاً:

– أنظر من حولك، وثبّت نظرك على نقطة تختارها.

فاخترت صليب إحدى الكنائس التي لمحتها في البعيد.

– إجعل نظرك ثابتاً على هذه النقطة، وحاول التركيز على ما أقوله لك. لا تشرد، حتى ولو شعرت أن شيئاً ما سيتحوّل. افعلْ ما أقوله لك.

وقفت مسترخياً، وثبّتُّ ناظري على قبّة الجرس، فيما كان بتروس واقفاً خلفي، واضعاً إصبعه على أسفل رقبتي.

– إن الطريق، التي تسلكها الآن، هي طريق القدرة، ولن تتلقّن إلا تمارين القدرة. والسفر، الذي كان في البداية عذاباً لأنك لا تريد إلا الوصول، بدأ يتحول إلى متعة، متعة السعي والمغامرة. هنا هو الغذاء الحقيقي لأحلامنا.

«لا يستطيع الإنسان أن يكفّ عن الحلم. الحلم هو غذاء الروح، كما أن الطعام غذاء الجسد. وغالباً ما تخيب أحلامنا، وتحبط رغباتنا خلال مسيرة حياتنا. لكن هذا الأمر يجب ألا يمنعنا من الاستمرار في الحلم، وإلا ماتت الروح فينا، وعجز الحب الإلهي عن اختراقها. لقد أهرق الدم الكثير في الريف الممتدّ أمام ناظريك. هنا جرت المعارك الأكثر دموية لإحراز النصر في معارك الفتح. وليس مهمّاً مَنْ كان على حق، أو مَنْ كان يمسك بزمام الحقيقة. المهم أن نعرف أن كلا الطرفين كان يخوض «الجهاد الحسن».

إننا نلتزم «الجهاد الحسن» لأن قلوبنا تنشد ذلك. في أيام البطولة وفي زمن الفرسان الجوالين، كان الأمر سهلاً: هناك أراضٍ يجب غزوها، وأشياء كثيرة يجب تحقيقها. اليوم، تغيَّر العالم، وانتقلت ساحات «الجهاد الحسن» إلى داخل نفوسنا.

إن «الجهاد الحسن» هو الذي نخوضه باسم أحلامنا. عندما نكون شباباً، تتفجّر أحلامنا في داخلنا بكلّ عزيمتها، ولا تنقصنا الشجاعة إطلاقاً. لكننا لم نتعلّم بعد كيفية النضال. وحين نخلص إلى تعلّمها بعد جهود مضنية، نكون قد فقدنا الطاقة على الكفاح. عندئذٍ، نرتدّ على أنفسنا، ونصبح ألدّ أعدائنا. نتذرّع قائلين إن أحلامنا طفولية وسهلة التحقيق، أو إنها ثمرة جهلنا لحقائق الحياة. نقتل أحلامنا، لأننا نخاف من خوض «الجهاد الحسن».»

كان ضغط إصبع بتروس على رقبتي يزداد حدّة. خُيّل إليَّ أنَّ قبة جرس الكنيسة أخذت تتغيّر وأن حدود الصليب تحولت إلى

رجل بأجنحة، إلى ملاك. طرفت بعيني، فرجع الصليب إلى سابق عهده.

أضاف بتروس:

ـ إن العارض الأول، الذي يتّسم به قتل الأحلام، هو التذرّع بعدم توفّر الوقت. فالناس الأكثر انشغالاً، الذين رأيتهم في حياتي، كانوا يملكون الوقت لكل شيء. وكان الذين لا يفعلون شيئاً تعبين دائماً، غير آبهين للعمل القليل الذي ينجزونه، ويتذمّرون دائماً من قصر النهار. هذا لأنهم يخافون، في الواقع، من خوض «الجهاد الحسن».

أما العارض الثاني لموت أحلامنا، فهو اليقين الثابت الذي توصّلنا إليه أو اعتقدناه. نحن نرفض النظر إلى الحياة بوصفها مغامرة كبرى لا حدود لها، ونُقنع أنفسنا أننا متعقّلون وعادلون ومستقيمون في القليل الذي ننتظره من الحياة. ننظر أبعدَ من أسوار حياتنا اليومية، ونكاد نسمع صوت الرماح التي تتكسّر، ونشتمّ رائحة العرق، ونلمح الغبار، ونشاهد السقطات الكبيرة ونظرات المحاربين المتشوّقين إلى إحراز النصر. لكننا لا نستطيع أبداً أن نفهم معنى البهجة. تلك البهجة العظيمة التي يحملها المحارب في قلبه، لأن الانتصار لم يعد يهمّه، ولا الانكسار. المهمّ خوض «الجهاد الحسن».

وأخيراً، يتمثّل العارض الثالث لموت أحلامنا بالراحة والطمأنينة. تصبح الحياة شبيهة ببعد ظهر يوم أحد: لا تطلب منا الشيء الكثير، ولا تفرض علينا أكثر ممّا نستطيع أن نعطيه. نفكّر، عندئذٍ، أننا ناضجون، وأننا وضعنا جانباً نزوات الطفولة، وتوصّلنا إلى تحقيق ذواتنا على الصعيد الشخصي والمهني. نصاب بالدهشة إذا سمعنا أحد أترابنا يقول إنه يحبّ هذا الشيء أو ذاك في الحياة. لكن، في دخيلتنا، ندرك فداحة ما حصل: نعرف أننا تخلّينا عن النضال من أجل أحلامنا، وعن خوض «الجهاد الحسن».

كانت قبة جرس الكنيسة تتغيّر في كل لحظة، لتتحوّل إلى

ملاك باسط جناحيه. عبثاً، طرفت بعيني، لكنّ المشهد لم يتغيّر. حاولت أن أقول ذلك لبتروس؛ لكنني شعرت أنه لم ينتهِ بعد من كلامه.

أضاف بتروس، بعد توقّف قصير:

ـ عندما نتخلّى عن أحلامنا لصالح السلام والراحة، نبلغ مرحلة قصيرة من السكينة. لكن الأحلام الميتة تواصل تعفّنها فينا، وإفساد جوّنا كلّه. نصبح قساة حيال هؤلاء الذين يحيطون بنا، ثم ترتدّ هذه القسوة في النهاية على نفوسنا. عندئذٍ، تبدأ العذابات والمهانات. ويصبح ما أردنا تجنّبه في القتال، أي الخيبة والفشل، الإرث الوحيد لجبانتنا. وذات يوم، تجعل الأحلام الميتة المتعفّنة جوّنا خانقاً، فنتمنّى الموت، الموت الذي يحرّرنا من قناعاتنا، ومن هذا السلام المرعب الشبيه بسلام ما بعد ظهيرة أيام الآحاد.

كنت متأكّداً أن ما أراه أمامي ملاك. ولم أعد أستطيع متابعة ما يقوله بتروس، لا بدَّ أنه لاحظ ذلك، فرفع إصبعه عن رقبتي وسكت. بقيت صورة الملاك فترة وجيزة، ثم اختفت ليحلّ محلّها من جديد جرسُ الكنيسة.

بقينا صامتين بضع دقائق. لفَّ بتروس سيجارة وراح يدخّن. انتشلت من حقيبتي زجاجة النبيذ، واحتسيت جرعة. كان النبيذ ساخناً، لكنه احتفظ بنكهته.

سألني:

ـ ماذا رأيت؟

أخبرته قصة الملاك. وقلت له إن الصورة كانت تختفي في البداية ما إن أطرف بعيني.

«أنت أيضاً عليك تعلّم خوض «الجهاد الحسن». تعلّمتَ تقبُّل المغامرات والتحدّيات التي تواجهنا بها الحياة، لكنك تستمرّ في إنكار الخارق».

أخذ بتروس من حقيبته شيئاً صغيراً، وأعطاني إياه. كان دبوساً ذهبياً:

ـ هذا هدية من جدي. في جمعية «رام» يمتلك جميع القدامى دبابيس كهذا، ونحن ندعوه «ذروة القسوة». عندما رأيتَ الملاك يظهر عند قبة الجرس، أردت إنكار ما رأيته، لأن ذلك لم يكن شيئاً تألفه، ولأنه من ضمن مفهومك للعالم. إن الكنائس هي الكنائس، ولا يمكن أن تحدث الرؤى إلا في لحظات الانخطاف، إثر ممارسة طقوس «الميراث».

أجبته أن الرؤيا تمّت تحت تأثير الضغط الذي يمارسه إصبعه على رقبتي:

ـ هذا صحيح، لكنه لا يغيّر شيئاً. المهمّ أنك رفضت الرؤيا. لا بدّ أن فيليسي شاهدت رؤيا مماثلة، وقرّرت وضع حياتها على المحكّ بسبب رؤياها. وكانت النتيجة أنها حوّلت عملها إلى حب. كما حصل الشيء نفسه لأخيها، وهو يحصل للجميع، وكل يوم: نرى دائماً الطريق المثلى الي يجب سلوكها، لكننا نمشي في الطريق التي ألفناها.

تابع بتروس السير، ولحقتُ به. كانت أشعة الشمس تعكس ذهب الدبوس الذي أحمله في يدي.

ثم قال:

ـ إن الطريقة الوحيدة لإنقاذ أحلامنا هي أن نكون كرماء تجاه أنفسنا: «يجب التعامل بصرامة مع أيّ محاولة نقوم بها، لمعاقبة ذواتنا مهما تكن بسيطة أو تافهة. ولكي نعرف متى نصبح قساة مع أنفسنا، علينا أن نحوّل أدنى ظهور لألم روحي، كمثل الشعور بالذنب والندم والتردّد، إلى ألم جسدي. وعندما نجعل من الألم الروحي ألماً جسدياً، نستطيع أن نعرف مدى الأذى الذي يلحقه بنا».

وعلّمني بتروس «تمرين العقاب الأليم».

قال:

ـ في ما مضى، كنّا نستعمل دبوساً من ذهب. أما اليوم، فالأمور تغيّرت، كما تتغيّر المناظر على طريق «مار يعقوب».

تمرين العقاب الأليم

كلّما خطرت لك فكرة تؤذي: حسد أو شفقة على الذات، عذاب حب أو طمع أو حقد، افعل ما يلي:

اغرزْ ظفر السبابة في جذر ظفر الإبهام، حتى يصبح الألم حاداً. احصر تفكيرك في الألم، فهو يعكس، في الحقل الجسدي، العذاب الذي تعانيه على الصعيد الروحي. لا توقف ضغط إصبعك، إلاّ عندما تخرج الفكرة من روحك.

كرّر هذا التمرين مرّات عدّة، ما دمت تجد ذلك ضرورياً. لا تتوقّف حتى تغادرك الفكرة. ربما عاودك الألم على فترات طويلة، لكن سرعان ما يختفي بعدها، شرط ألا تنسى القيام بهذا التمرين، كلّما أتتك الفكرة من جديد.

كان بتروس على حقّ. إنّ رؤية السهل من الأسفل تجعله شبيهاً بسلسلة من الربوات.

قال:

– فكّر بشيء قاسٍ فعلته اليوم ضدّ نفسك، وقم بالتمرين.

لم أستطع تذكّر أي شيء.

قال بتروس:

– الأمر هكذا دائماً. لا ننجح بأن نكون أسخياء مع أنفسنا، إلا في اللحظات النادرة التي نحتاج فيها إلى القسوة فعلاً.

وفجأة، تذكّرت أنني استسخفت ارتقاء «قمة الغفران»، وتحمّل مشقة الصعود، فيما وجد هؤلاء السيّاح طريقاً أسهل للقيام بذلك. أدركت أن ذلك لم يكن صحيحاً، وأنني كنت قاسياً مع نفسي؛ لأن السياح يبحثون عن الشمس، أما أنا، فعن سيفي. لم أكن أبله، لكنني شعرت بأني كذلك. فغرزت عميقاً ظفر سبابتي في جذر ظفر إبهامي، وشعرت بألم جسدي حاذ. وفيما كنت أركز على الألم، اختفى شعوري بالبلاهة.

قلت ذلك لبتروس، فضحك دون تعليق.

عند المساء، نزلنا في فندق رحب في القرية التي لمحت فيها الكنيسة من بعيد. وبعد العشاء، قرّرنا القيام برحلة صغيرة لمعالجة التخمة التي تعرّض لها جهازنا الهضمي.

قال بتروس:

– بين جميع الوسائل التي وجدها الإنسان لإيذاء نفسه، يبقى الحبّ أسوأ وسيلة. فنحن نتعذّب دائماً بسبب واحد لا يحبّنا، أو هجرنا، أو يهمّ بأن يهجرنا. فإذا كنا غير متزوّجين، فذلك لأننا لم نهتدِ إلى من يحبّنا، وإذا كنا متزوّجين، نحوّل الزواج إلى عبودية. هذا أمر فظيع.

وصلنا أمام الساحة الصغيرة، حيث شيّدت الكنيسة التي رأيتها من بعيد. حاولت رؤية الملاك لكنّني لم أفلح.

أخذ بتروس يراقب الصليب المعلّق فوق القبة. اعتقدت أنه رأى الملاك هو أيضاً. لكن لا.

تابع كلامه:

– عندما انحدر ابن الآب من السماء إلى الأرض، حمل معه الحب. لكن، بما أن البشرية لا تفهم الحب إلا عذاباً وتضحية، فقد انتهى الأمر بنا إلى صلبه. لولا ذلك، لما آمن به أحد، لأن الناس ألفوا العذاب في كل يوم، بسبب أهوائهم بالذات.

جلسنا على حافة الجدار، وتابعنا النظر إلى الكنيسة.

مرة أخرى، قطع بتروس حبل الصمت:

– هل تعرف ما معنى بار آبا، يا باولو؟ «بار» يعني الابن، و«آبا» يعني الآب.

حدّق بتروس إلى الصليب المائل فوق الجرس. التمعت عيناه، وشعرت أن شيئاً ما قد تملّكه، ربّما كان هذا الحب الذي طالما تحدّث عنه، والذي لم أكن أتوصّل إلى فهمه.

قال متعجّباً، وصدى صوته يملأ الساحة الفارغة:

– ما أعمق الحكمة التي تجسّدها رسوم المجد الإلهي. عندما طلب بيلاطوس من الشعب أن يختار، لم يترك له في الحقيقة أي خيار. قدّم إليهم رجلاً مجلوداً محطّماً، ورأساً آخر مرفوعاً، هو رأس الثوريّ «بار آبا». كان بيلاطوس عارفاً أن الشعب سيحكم على الأضعف بالموت، لكي يثبت حبّه.

وختم قائلاً:

– ومع ذلك، وأيّاً يكن الخيار، فإن ابن الآب كان مصيره الصلب.

* * *

«الرسول»

«هنا، كل الطرق المؤدية إلى «مار يعقوب» تختصرها طريق واحدة».

كانت هذه العبارة مكتوبة على قاعدة «تمثال يصوّر حاجاً في زي قروسطي: يعتمر قبعة مثلّثة القرون، «ويرتدي ثوباً وأصدافاً، ويحمل في يده العصا التي عُلّق فيها الكرنيب. كان مرآه يذكّر بمرحلة غابرة، نحاول أنا وبتروس إعادة إحيائها.

وصلنا إلى «بوينتي لارينا» في الصباح الباكر، بعد أن قضينا ليلتنا في أحد الأديرة الكثيرة المنتشرة على طول الطريق. استقبلنا الراهب البوّاب، وحذّرنا من التفوّه بكلمة واحدة في حرم الدير. ثم قادنا راهبٌ آخر إلى غرفنا المجهّزة فقط بما هو ضروري: سرير خشن وشراشف بالية لكن نظيفة، وجرّة ماء، وطشت للاغتسال. لم يكن هناك لا حنفية ولا ماء ساخن. وكان موعد تناول الطعام مكتوباً خلف الباب.

وفي الموعد المحدّد، نزلنا إلى قاعة الطعام. كان الرهبان، الذين نذروا الصمت، يتواصلون، فقط، عبر النظرات. شعرت أن أعينهم أكثر بريقاً من بريق عيون الناس العاديين. قُدّم الطعام، في وقت مبكر من المساء، على طاولات مستطيلة، وجلسنا إلى جانب الرهبان الذين يرتدون المُسوح. من مكانه، أشار لي بتروس؛ وفهمت أن لديه رغبة جامحة في إشعال سيجارة. لكن يبدو أن الليل سيمضي دون

أن يتسنى له تحقيق رغبته. وحصل الأمر نفسه لي؛ فقررت أن أغرز ظفر السبابة في جذر ظفر الإبهام، وبقوّة. كان جمال تلك اللحظة يحول دون أن نرتكب أقلّ سوء بحقّ أنفسنا.

كان العشاء يتألّف من حساء الخضر والخبز والسمك والنبيذ. رفع الجميع الصلاة، وشاركنا فيها. وعندما انصرفنا إلى الأكل، تلا أحد الرهبان، بصوت رتيب، مقطعاً من رسالة بولس الرسول:

«اختار الله جهّال العالم ليخزي الحكماء، واختار الله ضعفاء العالم ليخزي الأقوياء... نحن جهّال من أجل المسيح... صرنا كأقذار العالم ووسخ كل شيء إلى الآن... لأن ملكوت الله ليس بكلام بل بقوّة».

ظلّ تأنيب مار بولس لأهل كورنثوس مدوياً في أرجاء القاعة ذات الجدران العارية، طوال الوقت الذي استغرقه تناول الطعام.

في صباح اليوم التالي، دخلنا «بوينتي لارينا»، ونحن نتحدث بشأن زيارتنا القصيرة للرهبان مساء أمس. اعترفت لبتروس أنني دخّنت بالسر في الغرفة، مع أني كدت أموت خوفاً من أن يشتمّ أحد رائحة التبغ. ضحك، وفهمت أنه كان حرياً به أن يفعل كما فعلت.

قال:

ـ مار يوحنا المعمدان انكفأ إلى الصحراء، لكن يسوع وافى الخطأة ولم يكفّ عن السفر. وأنا أفضّل هذا.

أجل، هذا صحيح. فعدا الفترة القصيرة التي قضاها السيد المسيح في الصحراء، فقد عاش وسط البشر.

«إن إحدى عجائبه الأولى لم تقتصر على تخليص روح أو شفاء مريض أو طرد شيطان، بل على تحويل الماء خمراً ممتازة خلال عرس قانا الجليل، لأن رب المنزل لم يعد لديه ما يقدّمه من شراب.

وعند هذه الكلمات، جمد بتروس في مكانه. كانت حركته عنيفة جدّاً لدرجة أني، أنا أيضاً، توقّفت، وقد انشغل بالي. وجدنا أنفسنا أمام الجسر الذي منح اسمه للمدينة الصغيرة. لكن بتروس لم يكن ينظر شطر الطريق التي كان علينا سلوكها، بل يحدّق إلى صبيَّين يلهوان بكُرةٍ من الكاوتشوك على ضفّة النهر. كانا في حوالى الثامنة أو العاشرة من العمر. لم يكن يبدو عليهما أنهما تنبّها لوجودنا. وبدل أن يجتاز بتروس الجسر، انحدر من تلّة المرج، واتجه إلى الصبيَّين. وأنا، كالعادة، تبعته دون أن أطرح أي سؤال.

ظلّ الصبيان متجاهلَين وجودنا. جلس بتروس، وراقبهما، وهما يلعبان، حتى اللحظة التي سقطت فيها الكرة قربه، فامسكها بحركة عنيفة وقذفها باتجاهي. التقطتها في طيرانها، منتظراً ما سيحدث.

اقترب الصبيّ الذي بدا أكبر سنّاً منّي، وكان أوّل ما تبادر إلى ذهني أن أعيد له الكرة. لكن تصرّف بتروس كان من الغرابة، بحيث رغبت في أن أعرف إلى ما ستؤول الأمور.

قال الصبي:

ـ أعطني الكرة يا سيد.

نظرت إلى هذا الوجه الصغير الذي يقف على بعد مترين مني، وشعرت بألفة تنبعث منه، وراودني الشعور نفسه عندما التقيت الغجريّ.

كرّر الصبيّ طلبه مرّات عدة. وعندما تيقّن أنني لا أريد الاستجابة لطلبه، انحنى والتقط حجراً.

أصرّ قائلاً:

ـ أعطِني الكرة، وإلا ضربتك بالحجر.

كان بتروس والصبيّ الآخر يراقبانني بصمت.

أثارتني عدائية الصبي وأجبت:

ـ إرمِ الحجر. إذا رميتني به، فسوف أمسك بك، وأضربك ضرباً مبرحاً.

شعرت أن بتروس يتنهّد ارتياحاً. كان شيء ما يريد الخروج من أعماق روحي. كان لديّ شعور جارف بأني عشت هذا المشهد من قبل.

ألقيت الذعر في قلب الصبي، فرمى الحجر أرضاً، وراح يبحث عن وسيلة أخرى:

ـ هنا في «بوينتي لارينا»، مذخر، كان يملكه حاجّ ثريّ جداً. وأنا أرى، من أصدافكما وحقيبتيْ ظهركما، أنكما، أنتما أيضاً، حاجّان. فإذا أعدْتَ لي الكرة، فسوف أعطيك هذا المذخر المدفون في الرمل على ضفّة النهر.

أجبت، دون أن أكون على قناعة بما أقوله:

ـ أريد الكرة.

في الواقع، كنت أريد المذخر. بدا على الطفل، وكأنه يقول الحقيقة. لكن، لعلّ بتروس في حاجة إلى هذه الكرة لسبب أو لآخر، ولا يمكنني أن أخيّب أمله. فهو مرشدي.

قال الصبيّ، وهو على وشك البكاء:

ـ أيها السيّد أنت لست في حاجة إلى هذه الكرة. أنت قويّ، تسافر وتعرف العالم كلّه. أما أنا، فلا أعرف أبعد من حدود هذا النهر، وليس لي ما ألهو به سوى هذه الكرة، أعدْها لي من فضلك.

نفذت كلمات الصبي إلى أعماقي. لكن الجوّ الأليف والغريب، في آن، ثم الشعور بأني عشت هذه الحالة، أو قرأت عنها، قد دفعاني إلى مقاومة الطفل مرّة أخرى.

وقلت:

ـ لا، أنا في حاجة إلى هذه الكرة، سأعطيك مالاً لتشتري أجمل منها. أمّا هذه، فهي لي.

حين قلت ذلك، بدا لي وكان الزمن قد توقّف. وتحوّل المشهد من حولي دون أن يضطر بتروس إلى الضغط بإصبعه على رقبتي. خُيّل إليّ أنني انتقلت إلى صحراء شاسعة مخيفة من الرماد. لم يكن هناك لا بتروس ولا الصبي الآخر. فقط أنا، والغلام في مواجهتي؛ بيد أنه كان يبدو أكبر سناً، وملامحه أليفة وقريبة، لكن في عينيه يلتمع بريق جعلني أخاف.

لم تدم الرؤيا إلا لحظة واحدة؛ رجعت، بعدها، إلى «بوينتي لارينا»، المكان الذي تلتقي عنده جميع الطرقات المتفرعة «من أنحاء أوروبا، والمؤدية إلى «سانتياغو». أمامي يقف صبيّ يطالب «بكرته»، وهو يُلقي نظراتٍ عذبة وحزينة.

اقترب بتروس منّي؛ أخذ الكرة من يدي، وأعطاها للطفل.

سأل بتروس الطفل:

ـ أين المذخر السريّ؟

أمسك الطفل يد صديقه، وهرول ليرمي بنفسه في الماء، قائلاً:

ـ عن أي مذخر تتحدّث؟

تسلّقنا القلعة من جديد، واجتزنا الجسر أخيراً. أخذت أطرح الأسئلة عمّا حدث. كلّمته عن رؤيا الصحراء؛ لكن بتروس غيّر الحديث، قائلاً إننا سنتكلّم في هذا الموضوع، ما إن نبتعد «قليلاً من هنا».

بعد نصف ساعة من السير، بلغنا مكاناً يحفل بالآثار الرومانية. كان ثمّة جسر آخر متهدّم؛ فتوقفنا لتناول الإفطار الذي أعدّه لنا الرهبان؛ خبز شعير ولبن وجبنة ماعز.

سألني بتروس:

ـ لماذا كنت تريد الكرة؟

أجبته أنني لم أكن أريد الكرة، وأنني تصرفت على هذا النحو بإيعاز منه، لأنه تصرّف بطريقة غريبة، وكأنّ للكرة أهمية كبرى في نظره.

ـ إنها مهمة في الواقع. فعلت ذلك، لتقوم باتّصال مُظفَّر مع «شيطانك الشخصيّ».

قلت في نفسي: «شيطاني الشخصي»؟ لم أسمع بمثل هذه السخافة طوال الرحلة. قضيت ستة أيام أروح وأجيء وسط البيرنيه، وتعرّفت إلى كاهن مجوسيّ لم يمارس أي سحر، وآلمني ظفري لأنني، كلما خطرت لي فكرة مؤذية عن نفسي: سويداء، أو شعور بالذنب، أو عقدة دونيّة، أضطر إلى أن أغرز ظفري في الجرح. وهنا كان بتروس محقاً؛ لقد خفّت حدّة الأفكار السلبية بشكل ملحوظ. لكن قصة الشيطان الشخصيّ هذه أمر جديد عليّ، ويشقّ عليّ تصديقها.

أضاف بتروس:

ـ اليوم، قبل عبورنا الجسر، شعرت، بقوّة، أن هنالك حضوراً ما. لكأنّ أحداً يريد إخطارنا. لكن التنبيه لم يكن موجّهاً إليّ بل إليك. كان الصراع يُهيّأ، وكان عليك أن تخوض الجهاد الحسن.

إذا كنّا لم نتعرف بعد إلى شيطاننا الشخصي، فبإمكاننا التعرف إليه: إنه يتجسد عادةً في الشخص الأكثر قرباً منّا. نظرت حولي، ورأيت الصبيّين يلعبان، واستنتجت أنّ التنبيه يُعطى لنا من هذا المكان. لكن ظننت أن هذا مجرّد شعور لا أكثر. ولم أتيقّن أن الأمر متعلّق بشيطانك الشخصي، إلا عندما رفضتَ أن تعيد الكرة.

قلت إني تصرّفت على هذا النحو، ظنًّا مني، أني أطاوع رغبته.

ـ ولمَ أنا؟ هل قلتُ شيئاً؟

بدأت أشعر بالدوار. ربّما كان هذا بسبب الطعام الذي التهمته بشراهة، بعد حوالى ساعة من المشي على الريق. وفي الوقت نفسه، عاودني الشعور بأن الصبيّ كان أليفاً.

ـ إن شيطانك حاول أن يجزبك بثلاث طرق تقليدية: أولاً، من خلال التهديد، ثانياً، من خلال الوعد، وثالثاً، بالتأثير على الجانب الأضعف فيك. هنيئاً لك، فقد قاومت بشجاعة.

الآن تذكّرتُ أنني سألت الصبيّ عن المذخر، مع أني قلت في نفسي إن الصبي يحاول خداعي. لكنّي عدت، واقتنعت بحتمية وجود مذخر، لأن الشيطان لا يتفوّه أبداً بوعود كاذبة.

ـ «إذا لم يعد الصبيّ يتذكّر المذخر، فهذا لأن شيطانك الشخصي رحل». وتابع بتروس دون توقف: «حان الوقت لاستدعائه، فأنت ستحتاج إليه».

كنا جالسيْن على الجسر القديم المهدّم. جمع بتروس بقايا الطعام بعناية ووضعها في كيس من الورق، كان الرهبان قد أعطوه إياه. في الريف المنبسط أمامنا، كان المزارعون يحرثون الحقول،لكنهم كانوا بعيدين جدّاً، ولم أستطع الإنصات إلى كلماتهم. كانت الطريق متعرجة تماماً، والأراضي المحروثة ترسم أشكالاً غامضة. وعند أقدامنا، يسيل مجرى ماء شبه صامت، لأنه على وشك الجفاف.

ثم قال بتروس:

ـ قبل أن يطوف السيد المسيح العالَم، ذهب إلى الصحراء للتحدث

مع شيطانه الشخصي. أيقن ما عليه أن يعرفه عن الإنسان، لكنه لم يسمح لشيطانه بأن يُملي عليه قواعد اللعبة. وهكذا هزمه.

«قال أحد الشعراء: «لا أحد منّا جزيرة». لكي نخوض «الجهاد الحسن»، نحتاج إلى العون: نحتاج إلى أصدقاء. وعندما يبتعد الأصدقاء، علينا أن نجعل من وحدتنا سلاحنا الرئيسي. كل ما يحيط بنا يجب أن يؤازرنا للقيام بالخطوات التي تساعدنا على بلوغ الهدف. كل شيء يجب أن يكون تجسيداً شخصياً لتطلّعنا إلى النصر عند خوض «الجهاد الحسن». فإذا لم نفهم أننا نحتاج إلى الجميع وإلى كل شيء، نكون مجرّد محاربين متبجّحين. وهذا التبجّح سوف يدمّرنا، لأن ثقتنا العظيمة بأنفسنا ستعمينا إلى حدٍّ لا نرى معه الألغام الموجودة في ساح المعركة».

إن حكاية المحاربين هذه قد ذكّرتني، ثانيةً، بشخصية كارلوس كاستانيدا: «دون خوان». تساءلت عمّا إذا كان الساحر الهندي العجوز يلقّن تلميذه دروس الصباح قبل أن يتسنّى للتلميذ هضم طعام إفطاره.

لكن بتروس تابع، قائلاً:

ـ بالإضافة إلى القوى المادية التي تحيط بنا وتؤازرنا، هناك قوتان روحيتان ترافقاننا: الملاك والشيطان. فالملاك يحمينا دائماً، وهذه نعمة إلهية، وليس ضرورياً استدعاؤه. فأنت ترى وجه ملاكك عندما تنظر إلى العالم نظرة نبيلة: إنّه الجدول وعمّال الحقول والسماء الزرقاء. وعلى هذا الجسر القديم الذي يسمح لنا بالعبور فوق الماء، والذي بنته الأيدي المجهولة لفيالق الرومان... على هذا الجسر أيضاً، ترى وجه ملاكك. وقد عرفه آباؤنا بصفته الملاك الحارس: ملاك الحماية والحراسة.

«والشيطان هو، أيضاً، ملاك، لكنه قوة حرّة وعاصية. وأفضّل

تسميته «الرسول»(*)، لأنه الصلة الأساسية بينك وبين الوجود. في العصور القديمة، كان متمثلاً بـ «عطارد» و«هرمس»، «رسول الآلهة». بيد أنّه لا يتدخّل إلا على الصعيد المادي، وهو موجود في ذهب الكنيسة، لأن الذهب يأتي من الأرض، والأرض ميدانه. وهو موجود، أيضاً، في عملنا، وفي علاقتنا بالمال. عندما ندعه حرّاً، يميل إلى التشتّت. وعندما نفرّ منه، نفقد كل ما يستطيع تعليمنا إياه من أشياء جيدة نحتاج إليها، لأنه يعرف العالم والبشر. لكن، عندما نُفتتن بقدرته، يمتلكنا، ويبعدنا عن «الجهاد الحسن».

«بَيْدَ أن الوسيلة الوحيدة لمعرفة «رسولنا»، هي أن نجعل منه صديقنا: أن نستمع إلى نصائحه، وندعوه لمساعدتنا، عندما يكون ذلك ضرورياً، لكن دون أن نجعله يُملي علينا القواعد، كما فعلت مع الصبي. من أجل ذلك، يجب أن تعرف، أولاً، ماذا تريد، ثم تتعرّف إلى اسمه».

سألته:

– وكيف يمكنني ذلك؟

وعلّمني بتروس طقس «الرسول»!

قال بتروس:

«مارسْ هذا التمرين مساء، يسهلْ. اليوم، خلال لقائكما الأول، سيكشف لك عن اسمه. وهذا الاسم سرّي، ويجب ألا يعرفه أحد، حتى أنا. لأن من يعرف اسم رسولك يستطيع تدميره».

نهض بتروس؛ وأكملنا المسير. خلال فترة وجيزة، وصلنا إلى حقل يحرثه بعض العمّال. تبادلْنا التحيات الصباحية، وتابعنا طريقنا.

(*) «الرسول» مصطلح ارتأيناه مناسباً للتعبير عن الصفة التي يعطيها كويلو للملاك الشيطان. ووضعناها بين مزدوجين كي لا يقع أي التباس بينها وبين أي معانٍ دينية مختلفة لهذا التعبير.

طقس «الرسول»

أجلس واسترخِ تماماً. دعْ فكرك يسرح حيثما يريد، ودع الأفكار تتدفّق دون رقابة. ردّدْ للحظات: «الآن، أنا مسترخٍ، وعيناي تستغرقان في نوم العالم».

حين تشعر أن روحك انعتقت من مشاغلها، تخيلْ عموداً من نار إلى يمينك، واجعل ألسنة اللهب متقدة لامعة. عندها، قلْ بصوت خافت: «آمر عقلي الباطني بأن يتجسد. فليعلن لي عن نفسه، وليكشف أسراره السحرية». انتظرْ قليلاً، وركّزْ فقط على عمود النار. فإن انبثقت صورة ما، فاحتفظ بها، لأنها تجلٍّ لعقلك الباطن.

والآن، وفيما عمود النار إلى يمينك، تخيل عموداً آخر إلى يسارك. عندما تتطاول ألسنة اللهب، الفظ، بصوت خافت، الكلمات التالية: «لتأت قوة الحمل الذي تجلّى في كل شيء، وفي الجميع، ولتتجلَّ فيّ، فيما أستدعي «رسولي». وليظهر عليّ «اسم الرسول».

تحدث إلى «رسولك» الذي سيظهر بين العمودين، واشرح له مشكلتك. أطلب نصيحته، وأصدر إليه الأوامر اللازمة.

بعد انتهاء الحوار، اطلب منه الانصراف، وأنت تقول: «أشكرُ الحملَ على المعجزة التي حققها. وليرجعْ «الرسول» كلّما استدعيته، حتى وإن كان بعيداً، وليساعدني في تحقيق أعمالي».

ملاحظة: خلال الاستدعاءات الأولى، وتبعاً لقدرة ذلك الذي يمارس الطقس على التركيز، لا يجوز لفظ اسم «الرسول». نقول فقط: «هو». وإذا نُفّذ الطقس بشكل صحيح، فعلى «الرسول» أن يكشف عن اسمه عن طريق التخاطر. أما إذا حصل العكس، فعليك الإصرار لتعرف هذا الاسم، وانطلاقاً من هنا، باشر الحوار معه. كلّما كررت التمرين، زاد حضور «الرسول» قوّة، وتسارعت وتيرة أعماله.

«إذا كان لا بدَّ لي أن أستدعي صورة، يمكنني القول إن الملاك هو درعك والرسول سيفك. فالدرع يحمي في كل مناسبة، لكن السيف يمكنه أن يسقط خلال المعركة أو يقتل صديقاً، أو يرتدّ على صاحبه».

ثم ختم بتروس، ضاحكاً:

«في أيّ حال، فإنك تستطيع أن تفعل ما تشاء بالسيف، إلّا أن تجلس فوقه».

توقّفنا في إحدى القرى لتناول طعام الغداء. كان الصبيّ الذي قدّم إلينا الطعام سيّئ المزاج، على ما يبدو. لم يُجب عن أسئلتنا، ووضع الطعام، كيفما اتّفق، على الطاولة، لا بل صبَّ قليلاً من القهوة على بنطال بتروس. رأيت مرشدي يتحوّل، عندئذٍ، إلى كائن آخر: غضب واستدعى ربّ العمل، وهو يعترض بشدّة. وأخيراً، اتّجه إلى المرحاض ليبدّل بنطاله، فيما كان صاحب المطعم يغسل القهوة عن البنطال.

كنا ننتظر أن تجفّف شمس الظهيرة بنطال بتروس. وفكّرت بكلّ ما قلناه هذا الصباح. صحيح أن معظم أفكار بتروس عن الصبيّ قد تحققت: إذ رأيتُ صحراء ووجهاً. لكنّ قصة «الرسول» هذه بدت لي قديمة تخطّاها الزمن. فنحن في القرن العشرين، ومفاهيم الجحيم والخطيئة والشيطان لم تعد تعني شيئاً لأحد. في «الميراث» الذي اتّبعت نهجه لفترة طويلة تفوق المدّة التي استغرقتها تعاليم طريق «مار يعقوب»، كان «الرسول»، الذي يدعى أيضاً شيطاناً دون أن تكون التسمية تحقيرية، روحاً طاغياً مهيمناً على قوى الأرض، ويمكنه أن يضع نفسه في خدمة الناس. نحن نلجأ إليه دوماً، لكن لا نعتبره حليفنا أو مرشدنا في الأعمال اليومية. ألح

بتروس إلى أنني أستطيع استغلال صداقة «الرسول» لأتقدّم في عملي، وفي الوجود. لكن بدت لي الفكرة حقيرة، لا بل ساذجة.

بيد أنني كنت قد أقسمت بالطاعة أمام السيدة سافان ومرّة أخرى، غرزت ظفري في لحم إبهامي حتى الألم.

قال بتروس، بعد رحيلنا من المطعم:

ـ ما كان يجدر بي أن أغضب. لم يصبّ الخادم الفنجان عليّ، بل على العالم الذي يكرهه. فهو يعرف، تماماً، أن ثمّة عالماً وراء حدود خياله، في حين أن مشاركته، في هذا العالم، تتلخص في نهوضه باكراً، وذهابه إلى الفرن، وخدمته الزبون العابر، واستمنائه ليلاً، وهو يحلم بنساء لن يتعرف إليهن أبداً.

حان الوقت للتوقّف من أجل القيلولة. لكن بتروس فضّل أن يتابع المسير. قال إن هذه هي طريقته ليعاقب نفسه على سلوكه المتعنّت. وأنا، الذي لم يفعل شيئاً، كان عليّ مرافقته في هذه الشمس الحارقة. فكّرت بـ «الجهاد الحسن»، وبملايين الناس الذين يقومون على هذا الكوكب بأشياء لا يحبّونها. صحيح أن تمرين القسوة كان يؤلم لحم ظفري، لكنه يعود عليّ بالفائدة كثيراً. وقد سمح لي أن أدرك إلى أي حد يمكن لفكري أن يخونني ويجرّني إلى أعمال لا أوافق عليها، وإلى مشاعر لا تفيدني بشيء. في هذه اللحظة، تمنّيت أن يكون بتروس على حق: أن يكون هناك «رسول» أتحدّث معه في الأشياء العملية، وأطلب منه المعونة في شؤون هذا العالم. انتظرت الليل بنفاد صبر.

ومع ذلك، فإن بتروس لم يكفّ عن التحدث بشأن الخادم. واقتنع أخيراً بأنه حسناً فعل، مستنداً في ذلك إلى حجّة مسيحية:

ـ إن السيد المسيح غفر للمرأة الزانية، لكنه لعن التينة التي لا

تثمر. وأنا أيضاً لا يجدر بي أن أكون لطيفاً على الدوام!

حسناً. فالمسألة خلُت في فكره. ومرةً أخرى، أنقذه الكتاب المقدس.

وصلنا إلى إستيليا حوالى التاسعة مساءً. اغتسلت، ثمَّ نزلت وإيّاه لتناول العشاء. وكان إيميري بيكو، وهو أول مَن كتب دليلاً لطريق «مار يعقوب»، قد وصف «استيليا» بأنها مكان خصب تجد فيه خبزاً شهياً وخمراً ممتازة، ولحماً وسمكاً. ثم إن مياه «إيغا» مياه عذبة، سليمة، لذيذة جداً. لم أشرب من ماء النهر، ولكن بيكو كان محقاً بشأن الطعام، حتى بعد مرور ثمانية قرون. قدّموا لنا شرائح من فخذ خروف، وأرضي شوكي، ونبيذاً بلدياً معتّقاً. بقينا على المائدة لوقت طويل، نتحدث عن أشياء وأشياء، ونحن نحتسي النبيذ. وأخيراً، أعلن بتروس أن الوقت قد حان لأقيم أول اتصال لي بـ «الرسول».

نهضنا، وجلنا في شوارع المدينة سيراً على الأقدام. كانت بعض الأزقّة تطل مباشرة على النهر، كما في مدينة البندقية. وفي إحداها، قرّرت الجلوس. كان بتروس يعرف أنني أنا الآن من يقود الاحتفال، لذا فضّل الانسحاب قليلاً.

تأمّلت النهر طويلاً. أبعدتني مياهه وصخبها، تدريجاً، عن العالم، وألهمتني سكينة عميقة. أغمضت عيني متخيّلاً أول عمود نار، فلم يظهر إلا بعد قليل.

تلفّظت بالكلمات الطقسية، فانبثق العمود الآخر إلى يساري. كان المكان، الذي يفصل بينهما والذي تضيئه النار، فارغاً تماماً. بقيت أحدّق إلى هذا المكان، محاولاً عدم التفكير بشيء، لكي أسمح لـ «الرسول» بالظهور. ولكن انبثقت، بدلاً منه، مشاهد غريبة جداً: مدخل أحد الأهرامات، امرأة ترتدي الذهب الصافي، ورجال سود يرقصون حول النار. توالت الصور بسرعة، فتركتها تتوالى،

دون توقّف، ودون رقابة. وظهرت أمامي مراحل عدّة من الطريق التي سلكتها مع بتروس. وظلت تتجلّى، حتى هذه اللحظة ودون سابق إنذار، مناظر ومطاعم وغابات، إلى أن انبسطت صحراء الرماديّين عموديْ النار. وهناك، وقف الرجل الودود ينظر إليّ، والبريق المخادع يلتمع في عينيه.

ضحك، وابتسمت مرتعداً. أشار إلى كيس نقود مُغلق، ثم فتحه ناظراً إلى داخله. لكنني، من المكان الذي وقفت فيه، لم أستطع رؤية شيء. وعندئذٍ، خطر لي اسم: «استران»[1]. تمثّلت ذهنياً هذا الاسم، وتلفظته بين عمودي النار، فأومأ «الرسول» بحركة من رأسه. عرفت أن هذا هو اسمه.

حان الوقت لاختتام التمرين: تلفّظت بالكلمات الطقسية، وأطفأت عموديْ النار: أولاً عمود الشمال، ثم عمود اليمين. فتحت عيني من جديد، وبدا أمامي نهر «إيغا».

قلت لبتروس، بعد أن أخبرته بما حدث:

ـ كان الأمر أسهل مما توقّعت.

ـ هذا أول اتّصال لك به، اتّصال تعارف متبادل، وصداقة متبادلة. ويصبح الحوار مع «الرسول» مثمراً، إذا استدعيته كل يوم، تناقشت معه في بعض المسائل، وأنت تعرف كيف تميّز فعلاً العون من الفخ. لا تجعل سيفك يغيب عن بالك عندما تلتقيه.

أجبته:

ـ ليس لديَّ سيف الآن!

ـ لهذا، لا يمكنه أن يؤذيك كثيراً. وفي أيّ حال، فإن من الأفضل ألّا تسهّل المهمة عليه.

---

(١) بالطبع، هذا اسم مزيّف.

بعد انتهاء التمرين، ألقيْتُ تحية المساء على بتروس، وعدت إلى الفندق. تدثّرْتُ بالغطاء، مفكّراً بالخادم المسكين الذي قدّم إلينا الغداء. كانت لدي رغبة أن أرجع لرؤيته، وتعليمه «طقس الرسول»، وأن أقول له إن كل شيء يمكنه أن يتغير، إذا شاء. لكن من العبث السعي إلى إنقاذ العالم. فأنا لم أنجح، حتى الآن، في إنقاذ نفسي[1].

* * *

(١) إن طقس «الرسول» موصوف بشكل مجتزأ. في الواقع، فسّر لي بتروس معنى الرؤيا والذكريات والكيس الذي أظهره لي استران. ولكن، بما أن لقاء «الرسول» يختلف باختلاف الأشخاص، فقد يبدو الإلحاح على تجربتي الشخصية ذا أثر سلبي في تجارب الآخرين.

الحب

قال لي بتروس، في صباح اليوم التالي:

إن التحدّث إلى «الرسول» لا يتعلق بطرح الأسئلة عن عالم الأرواح. فالمنفعة الوحيدة، التي يقدّمها «الرسول»، هي الاستعانة به في العالم المادي. ولن يمدّك بهذا العون، إلّا إذا عرفت حقّاً ما تريد.

توقّفنا في إحدى القرى، لنتناول شراباً. طلب بتروس البيرة، وطلبت الصودا. كان الصحن، الموضوع تحت كوبي، مؤلّفاً من دارة بلاستيكية تحوي ماءً ملوّناً. رحت ألهي نفسي برسم أشكال مجرّدة فوقها.

ـ قلْتُ لي إن «الرسول» قد تجلّى لي من خلال الصبي، لأنه أراد إبلاغي أمراً ما.

أجاب بتروس مؤكّداً:

ـ أمراً ملحّاً.

تحدّثنا أيضاً بالرسل والملائكة والشياطين. وصعب عليّ التسليم بهذا الاستخدام العملي لأسرار «الميراث». أصرّ بتروس على فكرته القائلة بوجوب البحث الدائم عن مكافأة. وتذكّرت كلام السيد المسيح: «الأغنياء لا يدخلون ملكوت السموات».

ـ لكن السيد المسيح كافأ الرجل الذي عرف كيف يضاعف وزنات سيده. ثمّ إننا لم نؤمن به، لأنه كان خطيباً فصيحاً فقط، بل لأنه حقّق المعجزات، وكافأ الذين تبعوه.

قاطعنا صاحب البار، الذي كان يستمع إلى حوارنا:

ـ لا يتكلّمن أحد بالسوء عن يسوع في حانتي.

أجابه بتروس:

ـ لم يتكلّم أحد بالسوء عن يسوع. فالكلام بالسوء عنه بمثابة ارتكاب للخطايا، تحت ستار التضرّع لاسمه، وذلك ما فعلتموه هنا في هذه الساحة.

تردّد صاحب الحانة قليلاً، ثم أجاب بسرعة:

ـ لا دخل لي بذلك. كنت لا أزال صغيراً.

وغمغم بتروس:

ـ المذنبون هم، دائماً، الآخرون.

خرج صاحب الحانة من باب المطبخ. وسألت بتروس بما كانا يتحدّثان، فقال:

ـ منذ عشرين سنة، وفي منتصف القرن العشرين، أحرق غجريّ هنا في الساحة، لأنه اتُّهم بالسحر والتجديف على القربان المقدّس. أجري التعتيم على القضية، بسبب فظائع الحرب الأهلية. ولا أحد يتذكّر، اليوم، هذه القصة، إلا ساكنو هذه المدينة.

ـ وكيف علمت بذلك يا بتروس؟

ـ جزاء عبوري، من قبل، طريق «مار يعقوب».

تابعنا الشرب في الحانة المقفرة. كانت الشمس شديدة السطوع عند القيلولة. بعد قليل، رجع صاحب الحانة برفقة كاهن القرية.

سأل الكاهن:

ـ من أنتما؟

أظهر بتروس الصَدَفة المرسومة على حقيبة ظهره. منذ ألف ومئتي سنة والحجّاج يمرون بهذه الحانة. والتقليد يقضي بأن يُحترم كل حاجّ، ويستقبل بشكل حسن، مهما تكن الظروف.

غيّر الكاهن لهجته، وسأل بنبرة تعليمية:

ـ كيف يحدث أن يتكلّم حجّاج ذاهبون إلى «سانتياغو» بالسوء عن يسوع المسيح؟

ـ لا أحد يتكلّم بالسوء عن يسوع هنا. كنا نذكّر بالجرائم التي ارتكبت باسمه. وأثرنا، كمثال على ذلك، قصة الغجريّ الذي أحرق في الساحة.

أجبرت الصدفة، الموضوعة على حقيبة بتروس، صاحب الحانة أن يغيّر تصرفاته هو أيضاً. توجّه إلينا هذه المرة باحترام، وقال، بالرغم من نظرة الكاهن المستهجنة:

ـ إن لعنة الغجري لا تزال جاثمة على القرية.

أصرّ بتروس على معرفة حيثيات هذه اللعنة. أجاب الكاهن أنها مجرّد روايات شعبية، لم تثبتها الكنيسة. لكنّ صاحب الحانة أضاف:

ـ قبل أن يموت الغجريّ، قال إن شياطينه ستنتقل إلى أصغر طفل في القرية وتسكنه. وعندما يكبر هذا الطفل ويصير عجوزاً، تنتقل الشياطين إلى طفل آخر، وهكذا دواليك، على مرّ العصور.

قال الكاهن:

ـ إن الأرض هنا هي نفسها الأرض الموجودة في القرى الأخرى المجاورة. عندما تعاني القرى الجفاف، نعاني نحن أيضاً. وعندما يهطل المطر هناك ويكون الموسم جيداً، نملأ، نحن أيضاً، بيوت مؤوننا. لم يحدث شيء لنا، أو للقرى المجاورة. إن كل هذه القصة خيال محض.

أوضح صاحب الحانة:

ـ لم يحدث شيء، لأننا عزلنا اللعنة.

اقترح بتروس:

ـ فلنذهب، إذن، إلى عقر دارها!

ضحك الكاهن للعبارة اللمّاحة، ورسم صاحب الحانة إشارة الصليب، لكن أحداً منهما لم يتحرك.

دفع بتروس الحساب، وأصرّ على أن يصطحبنا أحدهما إلى الشخص الذي سكنته اللعنة. اعتذر الكاهن قائلاً إنه مضطر للعودة إلى الكنيسة، لأن عملاً مهماً كان ينتظره، ولم ينجزه بعد. ثم رحل قبل أن يتمكّن أحد منّا التفوّه بكلمة واحدة.

رمق صاحب الحانة بتروس بنظرة قلقة.

قال مرشدي:

ـ لا تهتم. يكفي أن ترشدنا إلى البيت الذي تسكنه اللعنة، وعلينا أن نسعى لتخليص المدينة منها.

قادنا صاحب الحانة إلى الشارع المغبر، والمبهر تحت أشعة شمس بعد الظهيرة الساطعة. بلغنا مخرج القرية، وأشار إلى بيت منعزل على جانب الطريق.

قال، كأنه يعتذر:

ـ نرسل دائماً طعاماً، وملابس، وكلّ ما هو ضروري. لكن الكاهن نفسه لا يذهب إلى هناك.

استأذناه بالانصراف. توقّف العجوز، ولعلّه اعتقد أننا لن نقصد البيت. قرع بتروس الباب. وعندما استدرت، كان صاحب الحانة قد اختفى.

فتحت لنا الباب امرأة شارفت الستين من عمرها، يرافقها كلب أسود ضخم يحرّك ذنبه، ويبدو مبتهجاً بالزيارة. سألتنا المرأة ماذا نريد، قائلة إنها منشغلة بالغسيل، وإنها تركت القدور على النار. لم تبدُ مندهشة لرؤيتنا. لعلّ حجاجاً كثيرين، لا يعرفون شيئاً عن اللعنة، قرعوا بابها بحثاً عن مأوى.

قال بتروس:

ـ نحن حاجّان، في طريقنا إلى «كومبوستيلا»، ونحتاج إلى ماء ساخن. أعرف أنك لن ترفضي لنا هذا الطلب.

فتحت العجوز الباب رغماً عنها. دخلنا غرفة صغيرة نظيفة، ولكنها فقيرة الأثاث. كانت ثمّة أريكة ذات غطاء بلاستيكي ممزّق، وصوان، وطاولة من الفورميكا، وكرسيّان. واحتلّت الصوان صورة لقلب يسوع وقدّيسين، ومصلوب يتوّجه إكليل من شوك. كان هناك بابان يؤديان إلى الغرفة الصغيرة: عبر أحدهما، استطعت رؤية الغرفة، وعبر الآخر، قادت المرأة بتروس إلى المطبخ.

قالت:

ـ لديّ القليل من الماء المغلي. سأذهب لأحضر وعاء، بعدها يمكنكما العودة من حيث جئتما.

بقيت وحدي في الغرفة مع الكلب الضخم. كان يحرّك ذنبه فرحاً وطاعة. بعد قليل، رجعت المرأة تحمل علبة قديمة، ملأتها مياهاً ساخنة وقدّمتها لبتروس:

ـ خذ هذه، واذهب، وليباركك الله.

لكن بتروس لم يتحرك. انتشل من حقيبته مغلّفاً صغيراً من الشاي، ووضعه في الماء الساخن، معلناً أنه يرغب في أن يتقاسم القليل الذي يملكه معها، ليشكرها على حسن استقبالها.

ذهبت المرأة لتأتي بكوبين، وقد بدا عليها الانزعاج صراحة. ثم جلست أمام الطاولة إلى جانب بتروس. تابعتُ النظر إلى الكلب، وأنا أستمع إلى الحوار.

قال بتروس بلهجةٍ محايدة:

ـ قالوا لي في القرية إن لعنةً جاثمة على هذا البيت.

التمعت عينا الكلب، وبدا وكأنّه يفهم هذه الأقوال.

نهضت العجوز متوثّبة وقالت:

ـ كذب! شعوذة قديمة! أسرع، لو سمحت، بتناول الشاي، لأن لديّ أعمالاً كثيرة تنتظرني.

أحسَّ الكلب بتغيّر مزاج المرأة المفاجئ، وبقي جامداً متأهّباً.

لكن بتروس ظلّ محتفظاً ببرودة أعصابه. صبَّ، على مهل، الشاي في الكوب، ورفعه إلى شفتيه، ثم أعاده إلى الطاولة، دون أن يحتسي شيئاً:

ــ إنه ساخن جداً. فلندعه يبرد.

ظلَّت المرأة واقفة. بدت منزعجة جداً من حضورنا، ونادمة لأنها استقبلتنا. لاحظْتُ أنني أنظر إلى الكلب محدقاً إليه باستمرار، فدعته إلى جانبها. أطاع الحيوان، لكنه استمر، هو أيضاً، في التحديق إليّ.

قال بتروس، وهو يستدير ناحيتي:

ــ من أجل هذا يا عزيزي، ظهر عليك «الرسول» البارحة، على هيئة طفل.

وفجأة، لاحظْتُ أنني لم أكن أنا من ينظر إلى الكلب. فمذ دخلتُ، وهذا الحيوان يسمّر عينيه إلى عينيّ، كأنه ينوّمني مغناطيسياً ويجعلني أحقّق إرادته. شعرت بتعب كبير، وبرغبة في النوم على هذه الأريكة الممزّقة، لأن الطقس كان حاراً في الخارج، ولا رغبة لي في معاودة السير. كل ذلك بدا لي غريباً. وشعرت أني سقطت في الفخّ. كان الكلب يحدّق إليّ باستمرار. وكلّما نظر إليّ، تعاظمت رغبتي في النوم.

قال بتروس، وهو ينهض ليقدّم إليّ كوب الشاي:

ــ إشرب قليلاً، ولنذهب. إن السيدة تريدنا أن نرحل في أسرع وقت ممكن.

ترنّحْتُ، لكنني نجحت في الإمساك بكوب الشاي. احتسيت قليلاً من الشاي الساخن، فانعشني. أردت أن أقول شيئاً، أن أسأل عن اسم الحيوان، لكنني فقدت صوتي. شيء ما استفاق فيّ، شيء لم يلقّني إياه بتروس، ولكنه يزداد تجلّياً في داخلي، لكأنها رغبة لا تقاوم بتلفظ كلمات غريبة أجهل، أنا نفسي، معناها. فكّرت أن بتروس دسَّ لي شيئاً في الشاي. بدا لي كل شيء بعيداً. شعرت،

بشكل غامض، أن المرأة تقول لبتروس إنه علينا الرحيل. وغمرني إحساس بالغبطة: قررت أن أتفوّه بالكلمات الغريبة التي جالت في خاطري.

كان الكلب الشيء الوحيد الذي أستطيع تمييزه في الغرفة. وعندما بدأت أتلفّظ بتلك الكلمات الغريبة، أخذ الكلب يحدث دمدمة: لقد كان يفهمها. شعرت بالإثارة، وتابعت الكلام بصوت يعلو باطّراد. انتصب الكلب وكشّر عن أنيابه. لم يعد ذلك الكلب المطيع الذي التقيته لدى وصولي، بل تحوّل بهيمة شزيرة متوغدة، يمكنها أن تهاجمني في أي لحظة. كنت أعرف أن الكلمات تحميني فاصدرتها بصوت أعلى، متّجهاً بكل قواي إلى الحيوان. شعرت أن قدرة مختلفة تعتمل في داخلي، قدرة تمنع الحيوان من مهاجمتي.

وعندئذٍ، توالت الأحداث بشكل بطيء. أذكر منها أن المرأة اقتربت مني محاولة أن تدفعني إلى الخارج، وأن بتروس صدّها، فيما الكلب لا يولي المشاجرة أدنى اهتمام. كان يحدّق إليّ، وراح يدمدم مكشّراً عن أنيابه. حاولت أن أفهم اللغة الغريبة التي تكلّمت بها، لكنني كلما توقّفت قليلاً لأفهم معناها، يتضاءل تأثيرها، فيقترب الكلب مني أكثر، ويزداد عدائية. عندئذٍ، زعقت بأعلى صوتي، وأخذت المرأة تصرخ، هي أيضاً، والكلب ينبح ويهدّدني. لكنّي كلّما تابعت الكلام، أصبح أكثر أماناً. سمعت ضحكة مدوية، ولم أدرك حقّاً إذا كانت هذه الضحكة حدثت في الحقيقة، أم أنها ثمرة خيالي.

وفجأة، وكان كل شيء يحدث في الوقت نفسه، عصفت الريح في البيت، وقام الكلب بوثبة كبيرة، وهجم عليّ. رفعت ذراعي لأحمي وجهي ونطقت بكلمة منتظراً تأثيرها، فانقضَ الحيوان عليَّ بكل ثقله، وسقطت على الأريكة. تفرّس أحدنا في الآخر للحظات، ثم خرج الكلب، وهو يركض.

طفقت أبكي بحرارة. فكّرت بعائلتي وزوجتي وأصدقائي، وراودني إحساس جارف من الحب، وانتابني فرح غامض لا حدّ له. لكني كنت أعي، كلّ هذه القصة مع الكلب، وعياً متزامناً مع حدوثها. أخذني بتروس بذراعي، واصطحبني إلى الخارج، والمرأة تدفعنا كلينا. نظرت من حولي؛ لا أثر للكلب، بيد أنني احتميت ببتروس، واسترسلت في البكاء، فيما كنّا نمشي تحت أشعة الشمس.

لم أحتفظ بذكرى هذه المرحلة. وعندما رجعت إلى حواسي، رأيتني جالساً قرب سبيل ماء. بلّل بتروس وجهي ورقبتي. أردت أن أشرب، فقال لي إن أي شيء أشربه سأتقيأه في الحال. آلمني وخزٌ في قلبي. ومع ذلك، شعرت أنني في حالة جيدة؛ غمرني حبٌ عظيم لكل شيء، وللجميع. نظرت من حولي، فرأيت الأشجار المتراصفة على حافة الطريق، وسبيلَ الماء الصغير، حيث توقفنا. داعبني النسيم المنعش، وسمعت صوت العصافير في الغابات. رأيت وجه ملاكي في كلّ هذا، كما قال لي بتروس من قبل. سألته عمّا إذا كنا ابتعدنا عن بيت المرأة، فأجابني أننا مشينا حوالى ربع ساعة.

قال:

ــ لا بدّ أنك راغب في معرفة ما جرى.

في الواقع لم يكن لذلك أي أهمية عندي: الكلب والمرأة وصاحب الحانة... كل ذلك بدا لي أشبه بذكريات بعيدة لا علاقة لها بما أشعر به الآن. اقترحتُ على بتروس أن نمشي قليلاً، لأنني استعدتُ قواي كاملة.

نهضتُ، وتابعت المسير معه على طريق «مار يعقوب». بقيت شبه صامتٍ طوال الوقت، مغموراً بهذا الشعور النبيل الذي يملأ كل شيء. في وقت ما، خطر لي أن بتروس قد دسّ لي مخدراً في

الشاي، أو ما شابه. لكن هذا أيضاً لا أهمية له. المهم هو أن أتأمل الجبال والجداول والأزهار على حافة الطريق، وأرى الملامح السامية لوجه ملاكي.

نزلنا في فندق قرابة الثامنة مساء. وكنت، على الدوام، أشعر أنني في حالٍ من الغبطة، على الرغم من أن حدّة الشعور قد خفّت. طلب صاحب الفندق جواز سفري، ونظر إليه، ثم أعاده لي، قائلاً:

ــ أنت آتٍ من البرازيل. سبق لي أن ذهبت إلى هناك، ونزلت في فندق على شاطىء «إيبانيما».

أعادتني هذه الجملة التافهة إلى واقعي: في منتصف طريق «مار يعقوب»، وفي قرية شُيِّدت منذ عصور، كان هناك صاحب فندق يعرف شاطىء «إيبانيما».

قلت لبتروس:

ــ أنا مستعدّ الآن للنقاش، وأريد أن أفهم كل ما حدث لي اليوم فقد اختفى الشعور بالغبطة، وأعيد الاعتبار لأحكام العقل، وتضاعف الخوف من المجهول. شعرت برغبة ملحّة في أن أضع قدمي على الأرض من جديد.

أجاب:

ــ بعد العشاء.

طلب بتروس من صاحب الفندق تشغيل جهاز التلفزيون، لكن دون صوت، موضحاً لي أنها أفضل طريقة لأسمعَ كلّ شيء دون أن أطرح الكثير من الأسئلة، لأن جانباً من كياني سيكون منصرفاً إلى مشاهدة التلفزيون. سعى ليعرف إلى أي حدّ كنت أتذكّر ما

حدث لي. قلت إني أتذكّر كل شيء، إلا الفترة التي مشينا خلالها إلى الينبوع.

أجاب:

ـ ليس لهذا أي أهمية.

على شاشة التلفزيون، يُعرض فيلم تتعلّق قصته بمناجم الفحم، وترتدي شخصياته أزياء تعود إلى بداية القرن.

قال بتروس:

ـ «البارحة، عندما شعرتُ بإلحاحِ رسولك عليك، عرفتُ أن معركة ستُخاض على طريق «مار يعقوب». أنت هنا للعثور على سيفك، ولتعلُّم ممارسات «رام». لكن، في كل مرّة يقود مرشدٌ حاجّاً، يحدث أن يخرج أمر طارىء عن سيطرة الإثنين. وهو نوع من اختبار عملي لما جرى تلقينه. وفي حالتك، كان اللقاء مع الكلب.

«أما تفاصيل الصراع ووجود شياطين عدّة في أحد الحيوانات، فهذا أمر سأشرحه لك لاحقاً. المهم الآن هو أن تفهم أن هذه المرأة قد تعوّدت اللعنة، تقبّلتها وكأنها شيء عادي، فعظُمت لديها حقارة العالم. وهكذا تعلّمتْ أن ترضى بالقليلِ القليل، فيما الحياة سخيّة وتريد دوماً منحنا المزيد.

«عندما طردتُ الشياطين من هذه العجوز المسكينة، أخللْتُ، أيضاً، بعالمها. كنا قد تحدثنا، في ذلك اليوم، عن القسوة التي يمكن للناس ارتكابها بحق أنفسهم. وعندما نحاول أن نُظهر لهم الخير، وأن الحياة سخية معطاء، غالباً ما يرفضون الفكرة، وكأنها من عمل الشيطان: لا أحد يودّ طلب الكثير من الحياة، لأنه يخاف الفشل. ولكن مَن يتوق إلى خوض «الجهاد الحسن»، فعليه النظر إلى العالم، وكأنّه كنز لا ينضب، ينتظر أن يعثر عليه أحد ويمتلكه».

سألني بتروس عمّا إذا كنت أعرف، فعلاً، الغاية من رحلتي على طريق «مار يعقوب».

أجبت:

ـ أبحث عن سيفي.

ـ ولماذا تريد سيفك؟

ـ لأنه سيحمل لي القدرة وحكمة «الميراث».

شعرت أن جوابي لم يُرضِهِ تماماً، فأضاف:

ـ «أنت هنا بحثاً عن مكافأة. تجرؤ على الحلم وتفعل كل ما في وسعك، لتجعل الحلم حقيقة. عليك أن تعرف، بشكل أفضل، ماذا ستفعل بسيفك. وينبغي أن يكون ذلك واضحاً في ذهنك قبل العثور عليه. إلا أن لديك حسنة هي أنّك تسعى إلى مكافأة:

«فأنت لا تجتاز طريق «مار يعقوب»، إلّا لأنّك راغب في أن تُجازى على جهدك. لاحظْتُ أنك تسعى إلى تطبيق ما لقّنتك إيّاه بحثاً عن حل عملي. وهذا إيجابي جدّاً.

«بقي عليك أن تربط بين ممارسات «رام» وحدسك الخاص بك. هي لغة القلب التي تحدّد الوسيلة الصحيحة لاكتشاف سيفك وتوجيهه. وإلّا فإنّ ممارسات «رام» سوف تضيع في حكمة «الميراث» العقيمة».

قال لي بتروس ذلك من قبل، لكن بعبارات مختلفة. كنت متّفقاً معه، بيد أن معرفة ذلك لم تكن تهمّني. لقد وقع لي أمران لم أتوصل إلى تفسيرهما: اللغة المختلفة التي تكلّمتها، والغبطة والحب اللذان شعرت بهما، بعد طرد الكلب...

ـ إنّ الشعور بالغبطة تشفَع بك، لأن بادرتَك قد لامسها الحب الإلهي.

ـ تتحدث كثيراً بالحب الإلهي، ولم تشرح لي، حتى الآن، ماهيته.

ـ سيأتي الوقت، ونشعر بهذا الحب العظيم الذي يلتهم مَن يُحبّ. وفي انتظار ذلك، اكتفِ بمعرفتك أنه سيتجلّى بحرية في داخلك.

— سبق لي أن عرفت هذا الشعور، لكن بشكل وجيز ومختلف: بعد نجاح مهني أو امتلاك امرأة، أو لدى الإحساس بأن الحظ يحالفني. ومع ذلك، كنتُ، حين ينبثق هذا الشعور، أنغلقُ، وأخاف أن أعيشه بحدّة. وكأنّ هذه البهجة يمكنها أن تثير حسد الآخرين، أو كأنني كنت غير جدير بها.

اعترف بتروس، وعيناه تحدّقان إلى شاشة التلفزيون، قائلاً:

— كلّنا نتصرف هكذا، قبل أن نعرف الحب الإلهي.

سألتُه عن اللغة الغريبة التي تكلّمْتُ بها.

— فاجأني الأمر: لأن هذه الممارسة لا تتعلّق بطريق «مار يعقوب»، بل هي خطوة تنتمي إلى ممارسات «رام» على طريق روما.

سمعتهم، في السابق، يتحدّثون بالخطوة، أو الموهبة اللدنيّة، لكني طلبتُ من بتروس شرحاً أوضح.

— «إن الخطوات هي عطايا الروح القدس، وهي تتجلّى في كلّ منّا. قد تكون موهبة الشفاء، او اجتراح المعجزات، أو النبوّة... واليوم أنعم الله عليك بموهبة اللغات، التي عرفها الرسل يوم العنصرة.

«إن موهبة التكلّم بلغات عديدة هي الاتصال المباشر بالروح، وهي الشرط الأساسي للتأملات النافذة، والتعازيم القوية والحكمة. وفي حالتك أنت، تمكّنت أيام المسير، وممارسات «رام»، والخطر الذي مثّله الكلب عليك، أن توقظ فيك نعمة اللغة، من طريق المصادفة. ولن تعود هذه الموهبة، إلا إذا وجدت سيفك، وقرّرت أن تسلك طريق روما. وفي أي حال فإن هذا فأل خير».

على شاشة التلفزيون الأخرس، تحوّلت قصة مناجم الفحم إلى سلسلة من الصور، حيث الرجال والنساء يتكلّمون دون توقّف ويتناقشون ويتحاورون. من وقت إلى آخر يتبادل ممثّل وممثّلة القبل.

قال بتروس:

— هناك شيء آخر: يمكن أن تلتقي الكلب مجدّداً. وفي هذه الحالة، لا تسعَ إلى بعث موهبة اللغات، لأنها لن ترجعَ أبداً. افعل ما يمليه عليك حدسك. سألقّنك ممارسة أخرى في «رام» توقظ فيك هذا الحس، لتتعرّف، شيئاً فشيئاً، إلى اللغة السرية لروحك. وسيفيدك هذا في كلّ أيام حياتك.

أطفأ بتروس جهاز التلفزيون في اللحظة التي بدأت فيها أهتم بحبكة الفيلم. ثم اتّجه إلى البار، وطلب زجاجة مياه معدنية. احتسى كلّ منا بضع جرعات.

ذهبنا للجلوس في مكان منعش. بقينا صامتين لفترة وجيزة. كانت سكينة الليل تخيّم علينا، والمجرّة في قبّة السماء تذكّرني بالغاية التي جئت من أجلها: العثور على سيفي.

ثمّ علّمني بتروس تمرين الماء.

ثم قال بتروس:

— أنا متعب وأريد النوم. أما أنت، فمارس التمرين الآن. أيقظْ حدسك وجانبك الخفي. لا تهتم بالمنطق، فالماء عنصر سائل، ولن يسمح لشيء بأن يهيمن عليه بسهولة. سيتيح لك الماء بأن تقيم، تدريجاً ودون عنف، صلة جديدة بالكون.

وختم، قبل أن يدخل الفندق:

— لن يكون هناك كلب دوماً لمساعدتنا.

استمتعت قليلاً بنداوة الليل وصمته. كان الفندق بعيداً عن كل مكان مأهول. ما من أحد يعبر الطريق أمامي. تذكّرت صاحب الفندق الذي يعرف «إيبانيما»، والذي كان يستغرب وجودي هنا في هذا المكان القاحل، الذي تحرقه الشمس المسعورة كل يوم.

نقطة الحدس
(أو تمرين الماء)

شكّلْ بركة ماء صغيرة فوق مساحة ملساء لا تمتص الماء، وتأمّلها لبعض الوقت. ثم حاول أن تلهو بالماء، دون أي التزام أو هدف. ارسم أشكالاً لا معنى لها، ومارس هذا التمرين، طوال أسبوع، بحيث يستغرق كلّ مرة ما لا يقلّ عن عشر دقائق.

لا تبحث عن نتائج عملية. فهذا التمرين يوقظ حدسك تدريجاً. وعندما يتجلّى هذا الحدس في ساعات أخرى من اليوم، ثقْ به دائماً.

كنتُ متناعساً، وحاولت أن أنفّذ التمرين دونما إبطاء. صببت بقية الماء في الزجاجة على الأرض الإسمنتية، فارتسمت بركة ماء في الحال.

لم يكن هناك أي صورة أو شكل. ولم يكن هذا ما أبحث عنه. كانت أصابعي تجول في الماء الباردة، وبدأت أشعر بنوع من الخدر، كمثل الخدر الذي يسري في أوصالنا لدى مشاهدة النار. ما عدت أفكر بشيء. كنت فقط ألهو وأتسلّى ببركة الماء الماثلة، وأمامي رسمت بعض الخطوط على الضفاف. بدت وكأنها تتحول إلى شمس مبللة. وللحال، امتزجت الخطوط وتشابكت. بسطْتُ يدي، وضربت صفحة البركة، فتمدّدت غامرة الأرض بالنثار الذي بدا كنجوم سوداء فوق خلفية رمادية. استغرقت في هذا التمرين الغريب، هكذا دون هدف، واستمتعت به. أحسست أن أفكاري قد توقّفت تماماً، وأن روحي فرغت منها. وهذا ما لم أكن أبلغه إلا بعد ساعات طويلة من التأمل والاسترخاء. وبموازاة ذلك، كان شيء ما في دخيلتي، يقول لي إن هناك قوة تتشكّل، وتتهيأ للتجلّي.

بقيت وقتاً طويلاً، وأنا ألهو ببركة الماء. صعب عليّ أن أضع حدّاً للتمرين. لو أن بتروس علّمني تمرين الماء في بداية الرحلة، لوجدت هذا مضيعة للوقت بالتأكيد. لكن، الآن، وقد بدأت أتكلّم بلغات مختلفة وأطرد الشياطين، فإن هذه البركة الصغيرة كانت تقيم اتّصالاً، ولو هشّاً، بالمجرة: تعكس نجومها، وترسم أشكالاً لا أتوصل إلى فهمها، وتمنحني الشعور ليس بإضاعة الوقت، بل بخلق «سَنن» جديد للتواصل مع العالم. إنه السَّنن السرّي للروح واللغة التي نعرفها، ولكن قليلاً ما نسمعها.

عندما أدركت ذلك، كان الوقت متأخراً: فقد أطفئت الأنوار أمام الباب. دخلْتُ دون ضجة، ثم أويت إلى فراشي، واستدعيْتُ مرة أخرى أستران، فظهر لي بوضوح أكبر. حدّثْتُه لبعض الوقت

عن سيفي وأهدافي في الحياة. لم يقل شيئاً. لكن بتروس أنبأني أن أستران سيصبح، خلال الاستدعاءات، حضوراً حيّاً، وجبّاراً إلى جانبي.

* * *

الزواج

تُعدّ «لوغرونيو» إحدى أكبر المدن التي يجتازها الحجّاج، سالكو طريق «مار يعقوب». ونحن، إلى الآن، لم نعبر إلا مدينة واحدة مهمة، هي «بابمبيلونا»، ولكننا لم نقضِ ليلتنا فيها. بعد ظهيرة ذلك اليوم، وصلنا إلى «لوغرونيو»، وكان ثمّة احتفال كبير يتحضّر فيها. اقترح بتروس أن يمكث هذه الليلة على الأقلّ.

كنت قد ألفت صمت الريف والحرية، فلم أستسغ الاقتراح. مرّت خمسة أيام على حادث الكلب. وكنت، كلّ مساء، أستدعي أستران، وأقوم بتمرين الماء. بدأت أشعر أنني أكثر هدوءاً، وأني أعي أكثر الأهمية التي ترتديها طريق «مار يعقوب» حيال ما سأحقّقه لاحقاً. وبالرغم من قحط المناظر، والغذاء الذي لم يكن جيداً في الغالب، والتعب الذي سبّبته لي أيام المسير الطويلة، فإني كنت أعيش في حلم حقيقي.

اختفى كل ذلك يومَ وصولنا إلى «لوغرونيو». فالهواء فيها لم يكن الهواء الدافئ والنقيّ الذي ألفناه في الأرياف الداخلية من البلاد، بل هواء مدينة مزدحمة بالسيارات والصحافيين وفرق التلفزيون.

دخل بتروس أول حانة، ليسأل عمّا يجري.

أجابه أحد الرجال:

ـ أيعقل أنك لا تعرف؟ إنه يوم زفاف ابنة الكولونيل م. وسوف تقام مأدبة شعبية في الساحة، ونحن بهذه المناسبة، نقفل متاجرنا قبل الموعد المعتاد.

لم نتمكّن من العثور على غرفة في الفندق. لكن عجوزين، عاينا الصدَفة المعلّقة على حقيبة بتروس، اقترحا أن نبيت عندهما. قمت بالاستحمام، وكذلك فعل، ولبِسْتُ البنطال الوحيد الاحتياطي الذي جلبته معي. ثم خرجت وبتروس.

في الساحة، كان عشرات الخدم الذين يضعون لمساتهم الأخيرة على الطاولات الموضوعة في كل جانب، والعرق يتصبّب تحت بذلاتهم السموكينغ، أو لباسهم الأسود. كان التلفزيون الإسباني يبث بعض الاستعدادات للزفاف. فولجنا شارعاً يؤدي إلى كنيسة «مار يعقوب الملكي»، حيث سيقام حفل الزفاف.

كان المدعوون في أحسن هندام؛ وقد خشيت النسوة أن تسيل مساحيق زينتهن بسبب الحر. وكان الأطفال بملابسهم البيضاء يدخلون الكنيسة دون توقّف، وقد بدا عليهم الاستياء. انفجرت مفرقعات الألعاب النارية، وتوقفت سيارة ليموزين سوداء أمام البوّابة الرئيسية: وصل الخطيب؛ لكننا لم نستطع اختراق الحشد في الكنيسة، فقررنا الرجوع إلى الساحة. ذهب بتروس للقيام بجولة. وجلست فوق أحد المقاعد منتظراً انتهاء حفل الزفاف، وابتداء الوليمة. إلى جانبي، كان بائع فشار ينتظر، هو أيضاً، نهاية الاحتفال، ليزيد مبيعاته.

سألني:

ـ هل أنت أيضاً مدعوّ؟

ـ لا، نحن حجّاج في طريقنا إلى «كومبوستيلا».

ـ هناك قطار ينطلق مباشرة من «مدريد» إلى «كومبوستيلا». وإذا سافرتم يوم الجمعة، فلكم الحقّ في نزول في الفندق مجاناً.

ـ لكننا نقوم بالحج.

نظر إليّ البائع، ثم أجاب بلهجة رصينة:

ـ إنّ الحجّ أمر خاص بالقدّيسين.

فضّلت السكوت. وراح العجوز يروي أنه زوّج ابنته، وأنها تعيش الآن منفصلة عن زوجها.

قال:

ـ في أيام فرانكو، كان الاحترام أكبر للعائلة. واليوم لا أحد يكترث لهذا الأمر.

لم أستطع أن أجعل هذا الكلام يمر دون تعليق، مع أني كنت أعرف أن ليس مستحسناً التحدث بالسياسة على أرض أجنبية. قلت:

ـ فرانكو كان ديكتاتوراً، لا يمكن لشيء من ذلك الزمن أن يتّصف بالإيجابية.

احمرّ وجه العجوز غضباً، وقال:

ـ من أنت لتتكلّم هكذا؟

ـ أعرف قصة بلادك. أعرف أن شعبك ناضل من أجل الحرية. وقرأت الكثير عن جرائم الحرب الأهلية في إسبانيا.

ـ لقد شاركت في الحرب، ولي الحقّ في الكلام، لأن دمَّ عائلتي أُهرق. أمّا التاريخ الذي قرأته، فلا يهمّني. ما يهمّني هو ما جرى لعائلتي. حاربْتُ فرانكو، ولكن، بعد انتصاره، تحسّنَتْ حياتي. لست فقيراً، فلديَّ عربة فشار؛ بيد أن هذه الحكومة الاشتراكية لم تساعدني على امتلاكها. وأنا اليوم أعيش في حال أسوأ من حال البارحة.

تذكّرت ما قاله بتروس عن أن الناس يكتفون بالقليل القليل في حياتهم. لم أجب. وعمدت إلى تغيير مقعدي.

وافاني بتروس. فأبلغته حديثي مع بائع البوب الفشار.

علّق قائلاً:

ـ أمر عظيم أن نجادل، حين نريد أن نقنع أنفسنا بما نقول. أنا عضو في الحزب الشيوعي الإيطالي، ويفاجئني هذا الجانب الفاشيّ لديك.

سألت متعجّباً ومستنكراً، في آن:

ـ عن أي جانب فاشيّ تتحدّث؟

ـ ساعدَتْ هذا العجوز على الاقتناع بأن نظامَ فرانكو كان النظام الأفضل. ربّما لم يكن يعرف تماماً لما أحسّ بذلك من قبل، إلا أنّه الآن عرف بالتأكيد.

ـ لكن أنا المُفاجأ. لم أكن أعرف أن أعضاء الحزب الشيوعي الإيطالي يؤمنون بمواهب الروح القدس.

ضحكنا. ثم انفجرت الألعاب النارية من جديد، وجاءت فرقة موسيقية ووقفت فوق المنصة التي أعدّت في الساحة. دوزن الموسيقيون آلاتهم. فالاحتفال سيبدأ بين لحظة وأخرى.

نظرت إلى السماء، كان الليل يهبط، كما أن بعض النجوم قد تلألأت. اقترب بتروس من أحد الخدم، وعاد حاملاً كوبين من البلاستيك ممتلئين خمراً.

قال بتروس، وهو يقدم إليّ الكوب:

ـ اشرب قليلاً، قبل أن يبدأ الاحتفال. فهذا فال خير، وهو يُنسيك أيضاً بائع الفشار العجوز.

ـ لم أعد أفكر فيه.

ـ لكن عليك أن تفعل. إن ما حدث هو رسالة رمزية تشير إلى تصرف مغلوط. نحن نحاول دوماً أن نتّخذ أتباعاً لنا يوافقون على تصوّراتنا عن الكون. ونعتقد أن ازدياد عدد الناس الذين يفكرون مثلنا يجعل من تصوراتنا حقيقة. مع أن الأمر لا علاقة له بذلك.

«انظر من حولك. ثمة احتفال كبير يتحضّر. وأشياء كثيرة أخرى سيحتفل بها في الوقت نفسه: حلم الأب الذي كان يريد تزويج ابنته، حلم الفتاة التي كانت تريد أن تتزوج، حلم الخطيب، وهذا جيّد. جيّد أن يؤمنوا بهذا الحلم، ويثبتوا للجميع أنهم بلغوا أهدافهم. ليس هذا احتفالاً لإقناعنا بأي شيء. ولهذا، فهو يرفّه عن

النفس. كل شيء يشير إلى أن هؤلاء الناس خاضوا «الجهاد الحسن» من أجل الحب.

ـ لكن أنت، أيضاً، يا بتروس تحاول إقناعي: تقودني على طريق «مار يعقوب».

نظر إليّ ببرودة، وقال:

ـ أعلّمك ممارسات «رام». لكنك لن تعثر على سيفك إلا إذا اكتشفت أن في قلبك الطريق والحق والحياة.

وأشار بإصبعه نحو السماء، حيث كانت النجوم ساطعة، ثم قال:

ـ المجرّة تدل على الطريق حتى «كومبوستيلا». ليس هناك دين قادر على تجميع كل هذه النجوم؛ فلو كانت الحال كذلك، لأصبح الكون مكاناً هائلاً فارغاً، لفقد معنى وجوده. إنّ كلّ نجمة ـ كل إنسان ـ تمتلك مساحتها وميزاتها الخاصة بها. هناك نجوم خضراء وصفراء وزرقاء وبيضاء. هناك مذنّبات وشهب ونيازك وحلقات وسديم. إن ما يبدو من الأرض أشكالاً هندسية، مكوّنة من نقاط صغيرة متساوية، يتألف، في الحقيقة، من ملايين العناصر المختلفة المبعثرة في فضاء يتجاوز الإدراك البشري.

انفجرت باقة من الألعاب النارية، وغمر نُورها الفضاء، حاجباً النجوم لبعض الوقت، ثم انهمر شلّالٌ من الجزيئات الخضراء البرّاقة.

قال بتروس، على سبيل الاستنتاج:

ـ مِنْ قبل، سمعنا ضجة الألعاب النارية فقط، لأن الوقت كان نهاراً، أما الآن، فنستطيع رؤية نورها. هذا هو التغيير الوحيد الذي يستطيع الإنسان أن يصبو إليه.

خرجت العروس من الكنيسة، وسط هتاف الحشد الذي رماها

بالأرز. كانت العروس فتاة نحيلة في حوالى السابعة عشرة، تتأبط ذراع فتى يرتدي لباس سهرة. اتّجه الحشد إلى الساحة.

هتفت الفتيات قربنا:

ـ هاكم الكولونيل م. أنظروا إلى ثوب العروس. ما أجملَهُ!

اقترب المدعوون من الطاولات، وقدّم الخدم النبيذ، وعزفت الأوركسترا. تجمّع حشد من الصبيان الزاعقين حول البائع، باسطين قطعهم النقدية، ثم سارعوا إلى نشر أكياس الفشار على الأرض. قلْتُ في نفسي: «إنّ كل ما يجري في سائر أنحاء العالم لا يعني لسكّان «لوغرونيو»، هذا المساء على الأقل: لا خطر نشوب حرب نووية، ولا البطالة، ولا الجرائم. كل ذلك لم يعد موجوداً. ففي هذا المساء عيد وطاولات بُسطت في الساحة من أجل الشعب، وكلّ تتعاظم نفسه أمام ناظريه.

اتّجه الفريق التلفزيوني ناحيتنا، فأخفى بتروس وجهه. تقدّم الفريق باهتمام بالغ باتجاه أحد المدعوّين الذي كان واقفاً قربنا، وسرعان ما تعرّفت إليه: إنه مانولو، مدير فريق إسبانيا خلال دورة كأس العالم التي أُجريت في المكسيك. بعد انتهاء المقابلة، ذهبت للقائه. قلت له إني برازيليّ فتظاهر بالاستياء، معترضاً على هدف سرقه البرازيليون خلال أول مباراة في كأس العالم[1]. لكنه صافحني بعد ذلك، مؤكّداً أن البرازيل ستقدّم من جديد أفضل لاعبي العالم.

سألته، وقد تذكّرت شيئاً لفت انتباهي خلال البثّ المباشر لمباريات كأس العالم:

ـ كيف يمكنك أن تتابع مجرى المباراة، فيما تركض دون توقّف على أرض الملعب لتنشّط الفريق؟

(١) خلال مباراة الفريقين الإسباني والبرازيلي التي أجريت ضمن إطار دورة كأس العالم في المكسيك عام ١٩٨٦، ألغي هدف إسبانيا، لأن الحكم لم ير أن الكرة لامست خط التماس قبل أن تنحرف وتدخل المرمى. وخرجت البرازيل منتصرة بهدف وحيد.

ـ يكفي أنني أجد متعتي هنا: في مساعدة الفريق على الإيمان بالنصر.

وختم قائلاً، كما لو أنه كان هو أيضاً مرشداً على طرقات «مار يعقوب»:

ـ إن الفريق، الذي لا يملك الإيمان، يفوّت على ناديه فرصة الانتصار.

بعد قليل، احتشد أناس آخرون حول مانولو. رحت أفكر في أقواله: إن مانولو يعرف كيف يخوض «الجهاد الحسن»، حتى ولم يذهب للحجّ على طريق «مار يعقوب».

عثرت على بتروس مختبئاً في أحد أركان الساحة، وقد بدا عليه الانزعاج من وجود الفرق التلفزيونية. عندما أطفئت الكشّافات، ظهر أخيراً من وراء الأشجار، متنهداً بارتياح. طلبنا كأسين آخرين من النبيذ. وفي حين أنني أعددت لي صحناً من الرقاقات، اهتدى بتروس إلى طاولة، فجلسنا إلى جانب المدعوين الآخرين.

اقتطع العروسان قالباً كبيراً من الحلوى، وانطلقت الهتافات.

قلت بصوت عالٍ:

ـ لا بدَّ أنهما يحبّان أحدهما الآخر.

وعمد أحد الرجال الجالسين إلى جانبنا، وكان يرتدي زيّاً قاتماً، إلى القول، مزايداً:

ـ بالطبع، يحبان أحدهما الآخر. هل رأيت أحداً يتزوّج لسبب آخر؟

احتفظت بالجواب لنفسي، متذكّراً كلمات بتروس بشأن بائع الفشار. لكنّ مرشدي لم يدع الملاحظة تمر دون تعليق، فقال:

ـ عن أي نوع من الحب تتحدّث: الحب الذي يستجيب للغريزة، أم الحب المختصّ بالبشر، أم الحب الإلهي؟

نظر إليه الرجل مرتبكاً. نهض بتروس، ملأ كوبه من جديد، واقترح عليّ أن نقوم بجولة، لنزيل عن أرجلنا ما أصابها من خمول.

قال بتروس:

ـ في اللغة اليونانية، ثلاث كلمات للإشارة إلى الحب: «ايروس» و«فيلوس» و«أغابي»[1]. اليوم تشاهد أمامك تجلّياً لـ «إيروس»، ذلك الشعور بالحب الشهواني المحتدم بين شخصين.

ابتسم العروسان للصور، وتقبّلا التهنئات.

أضاف بتروس، وهو يشير إلى العروسين:

ـ «أجل، يبدو أنهما يحبّان أحدهما الآخر. ويعتقدان أن غرسة حبهما ستواصل نموها.

«قريباً، ويذهبان ليكافحا وحدهما في الحياة، ويبنيا عائلة، ويتشاركا في المغامرة نفسها. في ظل هذا الواقع، يتعاظم حبهما، ويكونان جديرين به. هو سيتابع مهنته في الجيش، وهي عليها أن تتقن الطبخ، وتكون ربّة منزل ممتازة، لأنها نشأت منذ الطفولة على ذلك. ستكون رفيقته، وسينجبان أولاداً. وإذا خاضا «الجهاد الحسن» فلكي يبنيا شيئاً معاً. عندئذٍ، ورغم كل الأفخاخ، لن يكفّا أبداً عن أن يكونا سعيدين.

«إلا أن القصة، التي أخبرتك إياها للتوّ ربما اتخذت مجرى مختلفاً. فقد يتملّكه شعورٌ بأنه فَقَد حريته، أو أنه ليس حراً بما يكفي لكي يُظهر كل «الإيروس»، وكلّ الحب الذي يشعر به، لنساء أخريات. وقد تعي، هي، أنها ضحّت بعملها وبحياة مشرقة

(1) يميز بتروس بين ثلاثة أنواع من الحب: «ايروس» Eros أو الحب الشهواني المتعلّق بالغريزة، و«فيلوس» أو الصداقة التي تجمع بين البشر، و«أغابي» Agape أو المحبة بمعناها المسيحي الواسع كاعطية إلهية (المترجمة).

لتصير تابعة لزوجها. عندئذ، بدل فعل الخلق المشترك، يشعر كل منهما أنه اغتُصب في طريقته للحب. لن يظهر «إيروس»، أيْ روح الحبّ الذي جمعهما، إلا جانبه السيّئ لهما. ويصبح الحب، الذي قدّره الله للإنسان على أنه أنبل شعور على الإطلاق، مصدراً للحقد والدمار».

نظرتُ من حولي: كان إيروس حاضراً في قلب العديد من الأزواج. إن تمرين الماء أيقظ لغة قلبي، وبدأت أرى الناس بطريقة مختلفة. لعلّ السبب عائد إلى أيام الوحدة الطويلة في الريف، أو لعلّها ممارسات «رام». بتُّ استطيع تمييز «الإيروس» الجيد من «الإيروس» السيّئ، تماماً كما وصفه لي بتروس.

أضاف مرشدي، الذي أراد لفت انتباهي إلى الشيء نفسه:

ـ أنظر ما أغرب هذا! سواء أكان «إيروس» جيداً أم سيئاً، فهو يتخذ مظهراً مختلفاً، تبعاً لكلّ إنسان، تماماً كالنجوم التي حدثتك عنها منذ نصف ساعة. لا أحد يمكنه أن يفلت من قبضة «إيروس». نحن جميعاً في حاجة إلى حضوره، حتى لو دفعنا، في بعض الأحيان، للابتعاد عن العالم، والانكفاء داخل وحدتنا بالذات.

بدأت فرقة الأوركسترا بعزف موسيقى الفالس. اتّجه الناس إلى حلبة إسمنتية أمام المنصّة، وأخذوا يرقصون. كان الجميع ثملين، وبدوا سعداء. لاحظتُ وجود فتاة شابة ترتدي فستاناً أزرق: لا بدَّ أنها انتظرت هذا العرس من أجل رقصة الفالس بالذات، لأنها تريد أن ترقص برفقة أحد تحلم بأن يعانقها، منذ بلوغها سن المراهقة. كانت تلاحق بنظراتها حركات فتى أنيق يرتدي لباساً فاتح اللون. وكان هو بصحبة أصدقاء له مسترسلين في حديث طويل، وغير منتبهين إلى أن أمتاراً قليلة تفصلهم عن فتاة ترتدي ثوباً أزرق، وتنظر إلى أحدهم باهتمام بالغ.

فكّرت بالمدن الصغيرة، بالزيجات، التي تحلم بها الفتيات منذ نعومة أظفارهن والتي تجمعهن بالفتى المختار.

لاحظتْ الفتاة ذات الثوب الأزرق أنني أراقبها، فغادرت الحلبة. وبدوره جال الفتى بنظراته بحثاً عنها. وعندما رأى أنها برفقة فتيات أخريات، عاد إلى حديثه الحماسي.

لفتُّ انتباه بتروس إلى الفتى والفتاة. لاحق، لبعض الوقت، لعبة النظرات بينهما، ثم ركّز انتباهه، من جديد، على النبيذ الذي يحتسيه.

قال، معلّقاً:

ــ يتصرّفان وكأنهما خجلان من إظهار حبّهما.

قبالتنا، وقفت صبية تحدّق إلينا. كانت في منتصف سنّنا. رفع بتروس كأسه ليشرب نخبها؛ فضحكت، وقد بدا عليها بعض الانزعاج. أومأت بحركة منها أن والديها موجودان هنا، وكأنها تعتذر لعدم تمكّنها من الاقتراب أكثر.

قال بتروس:

ــ هذا هو الجانب الجميل من الحب. الحب الذي يتحدّى، الحب لشخصين غريبين أكبر سناً، جاءا من البعيد، وغداً يرحلان. الحب لعالم تودّ هي أيضاً اكتشافه.

لاحظت من صوته أن الخمر قد بدأت تؤثر فيه قليلاً.

وأعلن مرشدي، بنبرة أقوى:

ــ اليوم، سنتحدّث عن الحب! الحب الحقيقي الذي ينمو دون توقّف، يهزّ العالم، ويجعل الرجل حكيماً.

كانت هناك امرأة على مقربة منا، متأنّقة للغاية، ولا يبدو عليها أنها تولي الحفلة أدنى اهتمام. كانت تنتقل من طاولة إلى طاولة، وتجمع الأقداح والصحون والشّوك.

قال بتروس:

ــ أنظر إلى هذه المرأة التي لا تكفّ عن أعمال التنظيف. إن هناك عدّة جوانب يتجلّى «الإيروس» من خلالها، وها هو أحدها تراه

الآن. إنه الحب المحروم الذي يتحقّق من خلال شقاء الآخرين. ستذهب تلك المرأة لتقبيل العريس والعروس، لكنّها تهمس، في داخلها، أنهما لم يخلقا أحدهما الآخر. وهي تحاول أن تصنع النظام في العالم، لأنها هي نفسها مشوّشة.

ثم أشار إلى رجل وزوجته التي بالغت في زينتها، وفي تصفيف شعرها:

ــ وانظرْ هناك، إنه الحبّ المسلَّم به: الحب الاجتماعي المجرّد من أيّ انفعال. رضيت المرأة بدورها، وقطعت كل الصلات بالعالم وبـ «الجهاد الحسن».

ــ انت لاذع جدّاً يا بتروس، هل سينجو أحد هنا من لسانك السليط؟

ــ أجل، بالتأكيد. الفتاة التي نظرت إلينا. المراهقون الذين يرقصون ولا يعرفون إلا «الإيروس» الجيّد. فإذا لم يتأثّر هؤلاء بالخبث الذي هيمن على علاقات الحب في الجيل السابق، فسوف يكون العالم مختلفاً تماماً.

ثم أشار إلى زوجيْن عجوزين يجلسان أمام إحدى الطاولات:

ــ هذان أيضاً. لم يستسلما للخبث، كما فعل غيرهما. ويبدو من هيئتهما أنهما من المزارعين. أجبرهما الجوع والحاجة على العمل معاً. وتعلّما تعاليم «رام» التي تعرفها، دون أن يكونا قد سمعا بها، لأنهما غرفا قوّة حبهما من عملهما بالذات. هنا يكشف الحب عن أجمل وجوهه، لأنه متّحد بـ «فيلوس».

ــ وما هو «فيلوس»؟

ــ إنه الحب الذي يتّخذ شكل الصداقة. وهو ما أشعر به تجاهك وتجاه الآخرين، عندما تنطفىء شعلة «إيروس»، وهو الصداقة التي تبقي الناس متّحدين.

ــ وماذا عن «أغابي»؟

– ليس اليوم مناسباً للتحدث عن الحب الإلهي. إن «أغابي» موجود في «إيروس» وفي «فيلوس». لكن هذا مجرّد كلام. تعال نتسلّى، ونرفه عن أنفسنا في هذا الاحتفال، بعيداً عن الحب الملتهم.

وصبَّ بتروس لنفسه الخمر من جديد.

حولنا، كانت الفرحة تنقل عدواها. كان بتروس سكران. وهذا صدمني قليلاً في البداية. لكنّي تذكّرت ما قاله لي، بعد ظهيرة أحد الأيام، من أن ممارسات «رام» تفقد معناها إذا لم يستطع الناس العاديون تنفيذها. بدا لي بتروس، هذه الليلة، رجلاً كالآخرين. كان رفيقاً وصديقاً يربّت على أكتاف الناس، ويتحدث إلى كل مَن يوليه اهتماماً. ثم ثمل تماماً، واضطررت إلى إسعافه، لإرجاعه إلى الفندق.

أثناء المسير، تنبّهت إلى الوضع الذي أنا فيه: كنت أنا أقود مرشدي.

وأدركت أن بتروس، طوال الرحلة التي قمنا بها معاً، لم يبذل أدنى جهد ليبدو أكثر تعقّلاً منّي أو أطهر أو أفضل. اكتفى بنقل تجربته التي خاضها مع تعاليم «رام» إليَّ. كما أصرَّ على أن يُظهر لي أنه إنسان ككلّ الناس، قادر على الشعور بـ «إيروس» و«فيلوس» و«أغابي».

وهذا ما عزّز قواي. إن طريق «مار يعقوب» مفتوحة للناس العاديين.

* * *

الورع

«لو كنت أنطق بألسنة الناس والملائكة، ولو كانت لي النبوّة وكان لي الإيمان كلّه حتى أنقل الجبال، ولم تكن فيَّ المحبة، فلستُ بشيء».

عاد بتروس يستشهد بمار بولس. ذلك أنه، كان يرى هذا الرسول الوسيط السريّ الأكبر لرسالة المسيح. كنا في فترة بعد الظهر نصطاد السمك، بعد أن مشينا كل الصبيحة. لم تعلق أي سمكة في الصنارة، ولكن مرشدي لم يولِ ذلك اهتماماً. فهو يرى الصيد رمزاً للعلاقة بين الإنسان والعالم: نعرف ماذا نريد، ونبلغه إذا أصررنا. ولكن الوقت الضروري، الذي يلزمنا لبلوغ الهدف، يتعلق بالمعونة التي يقدّمها إلينا الله.

قال:

«من الجيد القيام بنشاط بطيء قبل اتّخاذ قرار هامّ في الحياة. فالرهبان ينصتون إلى الصخور، وهي تكبر. أما أنا، فأفضّل الصيد.

في هذه الساعة وفي هذا الحر، تفقد حتى الأسماك الحمراء الكسلى، التي تسبح قرب سطح الماء، قدرتها على مضغ الطعم. وسواء أكانت الصنارة خارج الماء أم داخله، فالنتيجة واحدة، ففضّلت أن أترك الصنارة، وأجول في الضواحي. مشيت حتى وصلت إلى مقبرة قديمة مهجورة، لها باب غير متناسق تماماً. ثم وافيت بتروس، وسألته عن المقبرة.

أجابني:

ـ إنّ ذاك الباب بقي من آثار مضافة حجّاجٍ قديمة. لكن المضافة هُجرت، فخطر لأحدهم، لاحقاً، أن يستفيد من الواجهة، ويبني المقبرة.

ـ والمقبرة، أيضاً، هُجرت.

ـ أجل. فالأشياء لا تدوم كثيراً في هذه الحياة.

قلت له إنه، البارحة، كان قاسياً جدّاً عندما أصدر أحكامه على الناس في الاحتفال. دُهش بتروس لكلامي. وقال إن ما تحدّثنا به البارحة يتعلّق بما عرفناه في حياتنا الشخصية، لا أكثر ولا أقلّ. كلّنا نلاحق «إيروس». وعندما يريد «إيروس» أن يتحوّل إلى «فيلوس»، تجد أن الحب غير ضروري. لكننا نجهل أن الحب المتعلّق بالبشر، أي «فيلوس»، هو الذي يقودنا إلى الشكل الأسمى للحب، أي الحب الإلهي («أغابي»).

قلت له:

ـ حدّثني بالحب الإلهي.

أجابني بتروس إنه لا يستطيع التحدّث به، ذلك أنه شعور يُعاش. وإذا كان الظرف مناسباً، فسيُظهر لي، اليوم، أحد جوانب الحب الإلهي. ولكن، من أجل هذا، يجب على الكون أن يتصرّف كما تصرّفنا خلال الصيد: أن تتضافر كل الجهود لتجري الأمور بشكل جيد.

ـ إن «الرسول» يساعدك. لكنّ هناك شيئاً يتخطّى ميدان «الرسول» والرغبات، ويتخطّاك أنت.

ـ ما هو؟

ـ الشرارة الإلهية. وهذا ما يدعوه الناس الحظّ.

عندما بدأت الشمس بالانحدار، أكملنا طريقنا. كنا نصادف

في طريق «مار يعقوب» كروماً وحقولاً محروثة، مقفرة في هذا الوقت. مررنا بالطريق الرئيسيّة التي كانت، هي أيضاً، مقفرة. ثم رجعنا إلى الأجمات. لمحْتُ، من بعيد، قمّة «سان لورنزو» في مملكة «كاستيليا». إن أشياء كثيرة قد تغيرت في داخلي مذ التقيت بتروس قرب «سان جان بييه دو وبور»، فقد غابت، كلّياً، عن ذهني: مشاغلي في البرازيل، أعمالي، ولم يبق سوى الهدف من رحلتي. وكنت أتحدث بشأنه كلّ ليلة مع أستران الذي كان ظهوره يتّضح أكثر فأكثر. توصّلت أن أراه، على الدوام، جالساً قربي، ولاحظت أن لديه رعشة في عينه اليمنى، وأنه يبتسم، باحتقار، في كلّ مرة أرتد فيها على مسامعه بعض الأشياء، لأتأكّد أنه فهمها. قبل ذلك بأسابيع، وفي الأيام الأولى تحديداً، خشيتُ ألا أصل إلى نهاية المطاف. وحين مررنا بمدينة «رونسوفو»، شعرت بسأم عميق حيال هذا كلّه. رغبت في الوصول سريعاً إلى «سانتياغو»، لأستعيد سيفي، وأرجع، من ثَمّ، لأخوض ما كان يسمّيه بتروس «الجهاد الحسن»[1]. أما الآن، فإن الصلات التي تربطني بالحضارة، والتي قطعتها مرغماً كانت شبه منسية. وبات كل ما يشغلني الآن هو الشمس الساطعة فوق رأسي والحماس، لأتعرف إلى الحب الإلهي.

انحدرنا داخل أخدود، اجتزنا جدولاً، وبذلنا جهداً مُضنياً لبلوغ الضفة المواجهة. لا بدّ أن هذا الجدول كان، في السابق، يحفر التربة بحثاً عن أعماق الأرض وأسرارها. أما الآن، فلم يعد إلا ساقية يمكن عبورها سيراً على الأقدام. لكن أثر النهر، أي الحفرة الهائلة التي شقّها، بقيت: «كل شيء في هذه الحياة يدوم قليلاً»، كما قال بتروس منذ بضع ساعات.

ـ بتروس، هل أحببت كثيراً؟

(١) في الواقع، اكتشفتُ لاحقاً ان التعبير مأخوذ من مار بولس الذي يقول فيه «وقد جاهدتُ الجهاد الحسن، وأتممت شوطي وحفظت الإيمان...».

جاءني السؤال عفو الخاطر حتى أنني، أنا نفسي، فوجئت بجرأتي. فإلى الآن، لم أكن أعرف إلا القليل عن حياة مرشدي الخاصة.

ـ عرفت الكثير من النسوة، إذا كان هذا ما ترمي إليه. أحببتهن جميعاً، لكني لم أشعر بالحب الإلهي إلا مع اثنتين منهن.

أخبرته أنني، أنا أيضاً، أحببت كثيراً في حياتي، وأني بدأت أقلق لعدم قدرتي على الاستقرار مع امرأة واحدة. وإنني، إذا تابعت على هذا النحو، فسأنتهي عجوزاً وحيداً، وهذا يخيفني.

قال بتروس ضاحكاً:

ـ استمِل ممرّضة. لكني، في النهاية، لا أعتقد أنك تبحث في الحب عن اعتكاف مريح.

كانت الساعة التاسعة مساء عندما هبط الليل. تجاوزنا حقول الكرمة، ووجدنا أنفسنا أمام مشهد شبه صحراوي. نظرت من حولي، ولمحت في البعيد كنيسة منحوتة في الصخر، شبيهة بكنائس عديدة صادفناها في طريقنا. تقدّمنا قليلاً، مبتعدين عن النقاط الصفراء، ومتجهين مباشرة إلى البناء الصغير.

وعندما اقتربنا من الكنيسة، هتف بتروس باسم لم أفهمه، وتوقّف ليسمع الجواب. لكننا لم نسمع شيئاً. نادى بتروس من جديد، ولم يجب أحد.

قال:

ـ لنذهبْ.

لم يكن هناك إلا أربعة جدران مطليّة بالكلس. كان الباب مفتوحاً أو، بالأحرى، لم يكن هناك باب، بل بوّابة صغيرة يبلغ ارتفاعها خمسين سنتمتراً، وتستند إلى مفصلة واحدة. في الداخل،

كان هناك فرن حجري، وبضع قصعات منضّدة بعناية فوق الأرض. احتوت اثنتان منها على قمح وبطاطا.

جلسنا بصمت. أشعل بتروس سيجارة، واقترح أن ننتظر قليلاً. شعرت بالتعب يدبّ في ساقيّ. لكن شيئاً ما في هذه الكنيسة كان يثير أعصابي، بدل أن يهدّئ روعي. ولولا وجود بتروس، لأخافني.

سألت لأقطع حبل الصمت الذي شقّ عليّ احتماله:

ـ أيّاً يكن الشخص الذي يعيش هنا، هل لي أن أعرف أين ينام؟

أجاب بتروس وهو يشير إلى الأرض العارية:

ـ هنا حيث تجلس.

أردت أن أغيّر مكاني لكنه طلب مني البقاء حيث أنا. لا بدّ أن الحرارة قد انخفضت قليلاً، لأني شعرتُ بالبرد.

انتظرنا قرابة الساعة. بعد ذلك، نادى بتروس مرتين أيضاً ذلك الاسم الغريب، ثم سكت. وفي اللحظة التي اعتقدت فيها أننا سنهمّ بالرحيل، بدأ يتكلّم، وهو يطفىء سيجارته الثالثة:

ـ «هنا يوجد أحد تجلّيات الحب الإلهي. وهو ليس التجلّي الأوحد، بل الأنقى. فالحب الإلهي هو الحب الكلّي، الحب الذي يلتهم ذلك الذي يشعر به. إن مَن غمره الحب الإلهي يرى أن لا شيء إلا الحب يرتدي أهمية في هذه الحياة. إنه الحب الذي شعر به يسوع تجاه البشر، وكان حبّاً عظيماً جداً، زلزل النجوم، وغيّر مجرى التاريخ البشري. وقد استطاعت حياته المتوحّدة أن تفعل ما عجز الملوك والجيوش والإمبراطوريات عن فعله.

«خلال آلاف السنين من تاريخ الحضارة، شغف أناس كثيرون بهذا الحب الذي يلتهم كلّ شيء. كان لديهم الكثير ليعطوه، فيما الناس لا يطلبون إلا القليل. فرأوا أنفسهم مجبرين على الالتجاء إلى الصحارى والأماكن المنعزلة، لأن الحب كان كبيراً إلى درجة أنه بدّلهم، وأصبحوا النسّاك القديسين الذين نعرفهم اليوم.

«أما أنا وأنت، اللذان يشعران بشكل آخر من الحب الإلهي، فإننا قد نرى الحياة على هذه البسيطة تبدو قاسية مرعبة. ومع ذلك، فإن الحب الذي يلتهم، يدفع بملتمسيه إلى التهاون بكلّ شيء، كل شيء على الإطلاق. وهؤلاء لا يعيشون إلا ليفنوا في الحب».

أخبرني بتروس أن رجلاً كان يعيش هنا، يدعى ألفونسو، التقاه خلال زيارته الأولى إلى كومبوستيلا، فيما كان يقطف الثمار. وكان مرشده، وهو رجل أكثر رؤيوية منه، صديقاً لألفونسو. وقد مارس الثلاثة طقس الحب الإلهي، المتمثّل بتمرين «الكرة الزرقاء». قال لي بتروس إن هذه التجربة كانت إحدى أهمّ التجارب في حياته، وإنه حين يمارس هذا التمرين الآن، يفكر في الكنيسة وفي ألفونسو. كان الانفعال واضحاً في صوته، ولأول مرة، لاحظتُ ذلك.

ردّد قائلاً:

— «الحب الإلهي هو الحب الذي يلتهم». تلفظ بهذه العبارة، وكأنها أفضل تعريف لهذا النوع الغريب من الحب.

وأضاف:

«قال مارتن لوثر كينغ، ذات مرة، أن السيد المسيح لمَّح إلى الحب الإلهي، عندما كان يتحدّث بمحبة الإنسان لأعدائه. من المستحيل أن نحبّ أعداءنا، وأولئك الذين يسببون لنا الأذى، ويحاولون أن يضاعفوا عذابنا كل يوم. لكن الحب الإلهي هو أقوى من الحب بكثير: إنه شعور يغمر كل شيء، ويدخل من جميع النوافذ، ويحوّل كلّ محاولة اعتداء غباراً.

«تعلّمْتَ أن تولد من جديد، وألّا تكون قاسياً مع نفسك، وأن تتحدث إلى «رسولك». لكن كلّ ما فعلته إلى الآن، وكلّ الفائدة التي استخلصتها من سلوك طريق «مار يعقوب»، لن يكون لهما معنى، إلا إذا لامسك الحب الملتهم».

ذكَّرت بتروس أنه تحدّث عن نوعين من الحب الإلهي. لا يبدو أنه عرف النوع الأول من هذا الحب، لأنه لم يصبح ناسكاً.

— «أنت على حقّ. أنا وأنت ومعظم الحجّاج، الذين سلكوا طريق «مار يعقوب» مستلهمين كلمات «رام»، اختبروا الحب الإلهي بشكل آخر: الحماس.

«كانت كلمة حماس تعني، لدى الأقدمين، رعدة وانخطاف وعلاقة بالله. الحماس هو الحب الإلهي متّجهاً إلى فكرة أو موضوع. كلّنا اختبرناه. فعندما نحبّ ونؤمن من أعماق نفسنا بشيء ما، نشعر أننا أقوى من العالم، ويتملّكنا يقين صادق بأن لا شيء يمكنه أن يهزم إيماننا. إن هذه القوة الغريبة تجعلنا دائماً نتّخذ القرارات الجيّدة في الوقت المناسب. وعندما نبلغ هدفنا، نُفاجأ بمقدرتنا، نحن بالذات، لأننا خلال «الجهاد الحسن» لا شيء يهمُّنا، ويحملنا الحماس على تحقيق هدفنا.

«في العادة يتجلّى الحماس، بكلّ قدرته، خلال السنوات الأولى من حياتنا. نكون، آنذاك، لا نزال متّصلين بالإلهي اتّصالاً قوياً، ترانا ننشدُّ إلى ألعابنا، فتنبعث الحياة في دمانا، وتتمكن الجنود المعدنية من السير. عندما قال يسوع إن للأطفال ملكوت السموات، فقد كان يلمح إلى الحب الإلهي متّخذاً شكل الحماس. أتى الأطفال إليه. ولم يهتموا بمعجزاته ولا بحكمته، ولا بالفريسيين ولا بالرسل. جاؤوا إليه فرحين يحدوهم الورع».

أخبرت بتروس أني اليوم، بالضبط، قد أدركت أنني ملتزم طريق «مار يعقوب». فقد كانت هذه الأيام والليالي، التي قضيتها على أراضي إسبانيا تنسيني سيفي، وتحوّلت إلى تجربة فريدة. وفقد كل ما عداها أهميته في نظري.

قال بتروس:

— هذا اليوم، ذهبنا لنصطاد، لكنّ السمك لم يعلق في الصنارة. ونحن، عادةً، نتقبّل أن يفوتنا الحماس في ظروف تافهة، لا تجز تبعاتٍ لها، قياساً على عظمة الوجود. ونفقد الحماس بسبب هزائمنا الصغيرة والضرورية خلال «الجهاد الحسن». وبما أننا نجهل أن الحماس

قوّة عليا متّجهة إلى الظَفَر النهائي، فإننا ندعه يفلت من بين أصابعنا، دون أن نلاحظ أن المعنى الحقيقي لحياتنا يتملّص منّا، هو أيضاً، فنعمد إلى اتّهام العالم بسأمنا وهزيمتنا، وننسى أننا نحن الذين أضعنا هذه القوة الآسرة التي تبزر كل شيء: تجلّي الحب الإلهي متّخذاً شكل الحب.

تذكّرت المقبرة التي رأيتها قرب الجدول. إن هذه البوابة الغريبة، الكبيرة كبراً غير عادي، كانت تجسيداً كاملاً لفقدان المعنى. فوراء هذا الباب، لا شيء إلا الموتى.

أضاف بتروس، وقد قرأ أفكاري:

ــ «أنا على يقين أنك، منذُ بضعة أيام، فوجئت بي، عندما رأيتني أفقد أعصابي في وجه الخادم المسكين الذي صبَّ قليلاً من القهوة على بنطالي المتّسخ أصلاً من غبار الطريق. في الواقع، كان مردّ غضبي إلى أنني رأيت الحماس ينداح من عينيّ هذا الغلام، كما يجري الدم من معصم قطعت شرايينه. رأيت هذا الغلام المفعم بالنشاط والحيوية يموت شيئاً فشيئاً، لأن القليل من الحب الداخليّ ينطفىء في داخله، ينطفىء مع مرور كل لحظة. لقد تعلّمت أن أعايش هذه الأشياء. لكن هذا الغلام، بهيئته، وبكل الخير الذي شعرت أنه قادر على تقديمه للبشرية، صدمني وأحزنني. كنت واثقاً أن عدائيّتي جرحت عنفوانه، وكبحت، لوقت قليل، موت الحب الإلهي داخله.

«كذلك، عندما حوّلت الروح في كلب تلك المرأة، أحسستُ الحب الإلهي في شكله الأنقى. كانت بادرتك نبيلة. وشعرتُ بالسعادة لكوني هنا معك، ولأنني مرشدك. وبالنظر إلى هذا الأمر، سأشارك معك، للمرة الأولى، في هذا التمرين».

وعلّمني بتروس طقس الحب الإلهي: «تمرين الكرة الزرقاء».

طقس الكرة الزرقاء

اجلس بارتياح، واسترخِ، وحاول ألّا تفكر بشيء.

واستشعر الجمال في حبك للحياة. دع قلبك حرّاً، صديقاً، فوق كل شيء، وابعدَ من الأمور الخسيسة. أنشد بصوت منخفض أغنية تعلّمتها في الطفولة. تخيّلْ قلبك يكبر ويملأ غرفتك، ثمّ بيتك، بنور أزرق حاد برّاق.

عندما تصل إلى هذه النقطة، استدعِ الحضور الودّي للقديسين الذين آمنْتَ بهم وأنت طفل. ثِقْ بأنهم هنا، وأنهم يفدون من كلّ جانب، مبتسمين، يحملون لك الإيمان والثقة بالحياة. تمثّلْ القديسين وهم يقتربون، واضعين أيديهم فوق رأسك، متمنّين لك الحب والسلام والاتحاد بالعالم اتحاد القديسين.

عندما يقوى فيك هذا الانطباع، تخيّلْ النور الأزرق تياراً يدخلُك، ويخرج منك، مثل ساقية لامعة دافقة. ثم ينتشر في منزلك وفي حيك ومدينتك وبلادك، ويغمر العالم أجمع، داخل كرة زرقاء هائلة. هذا هو تجلّي الحب الأعظم الذي يتخطّى المعارك اليومية، لكنه يقوّي عزيمتك، ويمنحك النشاط والطاقة والسلام.

احتفظ، لأطول وقت ممكن، بهذا النور الذي يغمر العالم. فقلبك مفتوح ينشر الحب. إن هذه المرحلة من التمرين يجب أن تدوم خمس دقائق على الأقلّ.

وشيئاً فشيئاً، أخرج من الرعدة، وارجع إلى الواقع. سيبقى القدّيسون إلى جانبك وسيكون النور الأزرق حاضراً على الدوام. وينبغي أن تقوم بهذا الطقس مع عدّة أشخاص. وفي هذه الحالة ينبغي للمشاركين أن تتشابك أيديهم.

قال بتروس:

ـ سأساعدك على إيقاظ الورع وخلق القوة التي تتمدّد مثل كرة زرقاء حول الكوكب، اعترافاً مني بأني أحترم سعيك، وأحترم ما أنت عليه.

حتى الآن، لم يُبدِ بتروس قطّ أيّ رأي، سواء أكان إيجابياً أم سلبياً، بطريقتي في تنفيذ التمارين. صحيح أنه ساعدني في تفسير أول اتّصال لي «بالرسول»، وجعلني أخرج من الرعدة في تمرين البذرة، لكنّه لم يُبد أيّ اهتمام بالنتائج التي توصّلتُ إليها. سألته، أكثر من مرة، لما لا يريد معرفة انطباعاتي ومشاعري. وكان، في كلّ مرة، يجيبني أن واجبه الوحيد، كمرشد، هو أن يدلّني على الطريق، ويلقّنني ممارسات «رام». أما جني الفائدة من هذه التمارين، أو عدم الاكتراث لها، فيعود إليّ وحدي.

عندما أعلن بتروس أنه سيشاركني في التمرين، شعرت فجأة أنني غير جدير بمديحه، فهو يعرف مواطن ضعفي، وقد خامره الشكّ مرات عدّة في قدرته على مرافقتي في الدرب. أردتُ أن أقول له ذلك، لكنه قاطعني، قبل أن أنبس بكلمة، وقال:

ـ لا تكن قاسياً مع نفسك، وإلّا فأنت لم تتعلّم الدرس الذي لقّنتك إياه، عليك أن تقبل مديحاً تستحقّه.

اغرورقت عيناي بالدموع. أخذ بتروس بيدي، وخرجنا. كان الليل قاتماً بشكل غير مألوف. جلستُ قربه، وبدأنا نغنّي. كانت الموسيقى تنبعث منّي، وكان بتروس يرافقني دون جهد. ثم رحت أطرق الأرض بيدي طرقاً خفيفاً، فيما جسدي يتمايل من الأمام إلى الوراء. تضاعفت حدّة الطرقات، وانهمرت الموسيقى بطلاقة منّي، لتشكّل نشيداً يمجّد السماء القاتمة، والسهل الصحراوي، والصخور التي لا حياة فيها. بعد قليل، رأيتُ القدّيسين الذين آمنت بهم عندما

كنت طفلاً، والذين أبعدتهم الحياة عنّي، لأني، أنا نفسي، قتلتُ جزءاً كبيراً من الحب الإلهي فيّ. لكن، الآن، رجع الحب الملتهم دفاقاً، وابتسمت وجوه القديسين كما كنت أراهم في صغري.

فتحت ذراعي حتى يسيل الحب الإلهي. واخترقني شعاع غامض من النور اللامع الأزرق، وخرج مني مطهّراً روحي من آثامها، ثم ملأ العالم بأسره. وبكيت، بكيت لأني كنت أعيش الحماس من جديد. كنت طفلاً أمام الحياة، ولا شيء في هذه اللحظة يمكنه أن يسبب لي أقلّ ألم. شعرتُ بحضور يقترب منّي ويجلس إلى يميني. خلتُ أنه «رسولي»، وأنه وحده يستطيع تمييز هذا النور المبهر الذي يخترقني ويخرج مني، لينتشرَ عبر العالم.

تضاعفت حدّة النور، وشعرت أنه يغمر العالم أجمع، مخترقاً جميع الأبواب وكل الأزقّة، ويعمّ الكائنات الحية بأكملها في ومضة عين.

شعرت أن أحداً يمسك بيديّ المفتوحتين المبسوطتين نحو السماء. في هذه اللحظة، أصبح شعاع النور الأزرق أقوى، حتى خلته سيختفي، لكني نجحت في الاحتفاظ به بضع دقائق أيضاً، حتى نهاية أغنيتي.

عندئذٍ، استرخيت مرهقاً، لكن حراً وسعيداً بالحياة التي عشتُها. ابتعدت اليدان اللتان كانتا تمسكان بيديّ. وعرفت أن إحداها كانت يد بتروس، وأدركت بحدسي صاحب اليد الأخرى.

فتحت عيني من جديد، فإذا بي أرى إلى جانبي الراهب ألفونسو الذي ابتسم وقال: مساء الخير. ابتسمتُ أيضاً، وأمسكت من جديد بيده، وضممتها بشدّة إلى صدري. لم يتركني أفعل، وسحبها برقّة.

لم يتفوّه أيّ منّا، نحن الثلاثة، بكلمة. ثم نهض ألفونسو، وانطلق إلى السهل الأمعز. شيّعته بنظراتي إلى أن اختفى في الظلمة.

بعد قليل، قطع بتروس حبل الصمت، لكنه لم يتحدث بشيء عن ألفونسو:

– قم بهذا التمرين، كلّما قدرت على ذلك، فيسكن الحب الإلهي قلبك من جديد. مارسه قبل المباشرة بعمل، أو في أول أيام السفر، أو حين تشعر أن شيئاً ما قد أثار انفعالك كثيراً. مارسه إن أمكن، مع شخص تحبّه، لأن هذا التمرين يجب تقاسمه مع الآخرين.

عاد بتروس مجدداً إلى صورته القديمة: التقني والمعلّم والمرشد الذي أعرف عنه أشياء قليلة. اختفى الانفعال الذي أظهره داخل الكوخ. ومع ذلك، فإنني شعرت بِكِبَر نفسه، حين ضغط على يدي خلال التمرين.

رجعنا إلى الكنيسة البيضاء، حيث تركنا أمتعتنا.

قال بتروس، وهو يتمدد أرضاً:

– إن ساكن هذه الكنيسة لن يرجع اليوم. أعتقد أننا نستطيع النوم هنا.

بسطت كيس النوم. شربت جرعة من الخمر، واضطجعت أرضاً. كنت مرهقاً من الحب الملتهم إرهاقاً لذيذاً. وقبل أن أغمض عيني، تذكرت الراهب النحيل الملتحي الذي تمنّى لي مساء سعيداً. في مكان ما في الخارج، يغنى هذا الرجل في شعلة الحب الإلهي. لعلّ هذا المساء كان قائماً، لأن نور العالم كلّه تجمّع في ألفونسو.

* * *

الموت

سألت المرأة العجوز التي قدّمت إلينا طعام الإفطار:

– هل أنتما من الحجّاج؟

كنا في «أنوفرا»، وهي قرية بيوتها صغيرة، تزيّن واجهاتها تروس من القرون الوسطى. كانت هذه البيوت متحلّقة حول سبيل ماء، ملأنا منه قِربنا قبل قليل.

أجبْتُ العجوز بأننا كذلك، وقرأنا في عيني المرأة الاحترام والوقار.

قالت المرأة:

– عندما كنت صغيرة، كنت أحجّ إلى «كومبوستيلا» مرة في السنة على الأقل. بعد الحرب وبعد فرانكو، لا أعرف ما جرى. ولكن يبدو أن الحج قد توقّف. يجب القيام بزيارة إلى هناك، سيراً على الأقدام. فالناس، في هذه الأيام، لا يحبّون التنقل إلّا في السيارة.

بقي بتروس صامتاً. كان قد استيقظ بمزاج سيئ. كنت متّفقاً مع المرأة، وتخيلت طريقاً جديدة إسفلتية تخترق الجبال والأودية، وسيارات رُسمت فوق أغطيتها أصداف، ودكاكين، وتذكارات عند أبواب الأديرة.

تناولت للتو قهوتي الممزوجة بالحليب، والخبز المغمّس بزيت الزيتون. استشرت دليل إيميري بيكو بعد الظهيرة. وتوقّعت بلوغنا «سانتو دومينغو دولا كالثادا»، وخطّطتُ لننام في «الفندق

السياحي[١]. كنت قد أنفقت من المال أقلّ بكثير ممّا توقعت، بالرغم من الوجبات الثلاث التي كنّا نتناولها يومياً. كان الوقت ملائماً للتبذير، وقرّرت أن أولي جسدي العناية نفسها التي أوليتها لمعدتي.

استيقظت يحدوني شعور غريب بالوصول سريعاً إلى «سانتو دومينغو». وهذا شعور لم يخامرني، حين كنا نسير قبل يومين باتجاه الكنيسة المنحوتة في الصخر. كان بتروس أكثر كآبة وأكثر صمتاً من العادة. فسألته عمّا إذا كان السبب عائداً إلى لقائه ألفونسو. وشعرت برغبة قوية في استدعاء أستران. لكن لم يسبق لي أن استدعيته في الصباح، وخفت ألا تتحقّق تلك الرغبة، فتخلّيت عن الفكرة.

انتهينا من إفطارنا، وأكملنا مسيرتنا. تجاوزنا بيتاً مزداناً بشعار نَسَب، وخرائب لنزل حجّاج قديم، وحديقة تقع في ضواحي القرية. وفيما كنت أتوغّل من جديد في الحقول، شعرت بحضور قوي إلى يساري. استوقفني بتروس، وقال:

ــ الركض لا يجدي نفعاً. قفْ وواجِهْ.

فكّرت بالانفصال عن مرشدي، واستئناف السير وحدي. أحسست بألم وتشنّج في المعدة. للوهلة الأولى، ظننت أن الأمر ناجم عن الخبز المغمّس بالزيت، لكن هذا الألم عرفته من قبل، ولا أستطيع خداع نفسي: إنه توتّر، توتّر وخوف.

قال بتروس، بنبرة ملحّة:

ــ انظر خلفك. انظر قبل أن يفوت الأوان!

استدرْتُ بعنف. كان إلى يساري بيت صغير مهجور تكسوه النباتات التي أيبستها الشمس، وبستان زيتون يبسط نحو السماء

---

[١] في الإسبانية، «برادور ناسيونال». والفنادق السياحية قصور قديمة، أو أنصاب تاريخية حوّلتها الحكومة الإسبانية فنادق من الدرجة الأولى.

أغصانه الملتوية. وبين بستان الزيتون والبيت، كلب يحدّق إليّ، الكلب نفسه الذي طردته من منزل المرأة قبل أيام معدودة.

نسيت حضور بتروس، ونظرت بلا وازع إلى عينيْ الكلب. شيء ما في داخلي، ربما كان صوت أستران أو ملاكي الحارس، كان يقول لي إنه سيهاجمني إن أشحت نظري قليلاً. بقينا على هذه الحال دقائق لامتناهية. فأنا، بعد أن عرفْتُ عظمة الحب الملتهم، أراني من جديد أواجه الأخطار اليومية والدائمة للوجود. تساءلت، لمَ يتبعني الحيوان كل هذه المسافة؟ وماذا يريد، في النهاية، من حاجّ يبحث عن سيفه، ولا يملك الرغبة ولا الصبر ليواجه المشاكل التي تعترض سبيله، سواء أكان الأمر متعلقاً بالناس أم بالحيوانات؟ حاولت أن أفهمه ذلك عبر نظراتي، متذكّراً الرهبان الذين يتواصلون من خلال النظر، لكن الكلب لم يتحرك. ظلّ يحدّق إليّ دون أن يبدي انفعالاً، وهو يتأهّب لمهاجمتي، متى استدرت، أو أظهرت شيئاً من الخوف.

أدركت فجأة أن الخوف قد اختفى. كانت معدتي متشنّجة، وشعرت برغبة في التقيؤ، بسبب التوتر، لكنّي لم أخف. فقط، كان عليّ ألا أشيح بناظري، حتى عندما لمحت طيفاً يقترب عبر الطريق الصغيرة إلى يميني.

توقّف الطيف بضع لحظات، ثم اتّجه مباشرة نحونا. واجه تماماً مجال نظراتنا، وتفوّه بكلمات لم أفهمها. كان الصوت نسائياً، وكان الحضور الذي ينبعث منه قوياً وذيّاً إيجابياً.

في اللحظة التي انتصب فيها طيف المرأة بين عينيّ وعيني الكلب، استرخت معدتي: لديّ الآن صديقة تساعدني في هذا الصراع العبثيّ العقيم. عندما اختفى الطيف، أخفض الكلب عينيه، وبوثبة، قفز وراء البيت المهجور، وغاب عن ناظري.

عند هذه اللحظة فقط، أخذ الخوف يضرب قلبي بشدّة، لدرجة أنني شعرت بالدوار، وأحسستني على شفير الإغماء. وفيما كان

كل شيء يدور من حولي، تحزيت الطريق، حيث مررنا أنا وبتروس قبل دقائق قليلة، بحثاً عن الطيف الذي أعطاني القوة لأهزم الكلب.

كانت راهبة، تدير لنا ظهرها، وتمشي باتجاه «أنوفرا». لم أستطع تمييز وجهها، لكني تذكرت صوتها، وقدّرت عمرها بالعشرين على الأكثر. نظرت إلى الطريق التي وصلت منها: كانت درباً صغيرة لا تؤدي إلى أي مكان. فتمتمت وشعوري بالدوار يتزايد: «إنها هي... هي التي ساعدتني».

قال بتروس، ممسكاً بذراعي:

ـ لا تزدْ نزواتٍ جديدة على عالم حافلٍ بكل الغرائب. فالراهبة أتت من دير في «كانياس» الذي يبعد خمسة كيلومترات من هنا، ومن البديهي أنك لا تستطيع رؤيته.

استمر قلبي في خفقانه كمجنون. كنت مقتنعاً أن وضعي سيكون سيئاً. سيطر عليَّ الذعر فمنعني أن أتكلّم، أو أطلب شرحاً. جلست أرضاً، وبلّل بتروس رأسي ورقبتي بالماء. تذكرت أنه فعل هذا عند خروجنا من منزل المرأة. لكنني في ذلك النهار بكيت وشعرت بأنني في حالة جيدة. أما الآن فشعوري معاكس تماماً.

تركني بتروس أرتاح لوقت طويل. أنعشني الماء، واختفى الغثيان شيئاً فشيئاً. ثم اقترح بتروس أن نعاود المسير، فوافقت. مشينا حوالى ربع ساعة، لكن الإرهاق عاودني. جلسنا عند أسفل عمود يدعى «روليو»، وهو عمود قروسطي يعلوه صليب، ويشير إلى بعض المحطات في طريق مار يعقوب.

قال بتروس، فيما كنت أرتاح:

ـ خوفك أساء إليك أكثر من الكلب.

أردتُ أن أعرف سبب هذه المواجهة العبثيّة.

قال بتروس:

ـ إن بعض الأحداث، في الحياة وعلى الطريق إلى مار يعقوب، تقع بمعزل عن إرادتنا، فخلال لقائنا الأول، قلتُ لك إني قرأت في نظرات الغجريّ اسم الشيطان الذي عليك مواجهته. وفوجئتُ، لدى معرفتي أن هذا الشيطان كلب، لكنّي لم أقلْ شيئاً حينذاك. وعندما دخلنا إلى بيت المرأة، وأحسستُ للمرة الأولى بالحبّ الملتهم، عندئذٍ فقط، رأيتُ عدوّك.

ولمّا أبعدتَ الكلب عن هذه السيدة، لم تجد له مكاناً. وأن تعلم أن لا شيء يضيع، إن كل شيء يتحوّل، أليس كذلك؟ لم تفعل كما فعل المسيح، حين أدخل الشياطين في قطيع من الخنازير، فإذا بالقطيع يثب عن الجرف إلى البحيرة ويختنق. وكل ما فعلته أنت هو أنك أبعدت الكلب. والآن، تهيم هذه القوة خلفك دون هدف. وقبل العثور على سيفك، عليك أن تقرر إذا كنت ترغب في أن تكون سيّد هذه القوة، أو عبدها.

تضاءل شعوري بالتعب. تنفّستُ بعمق، متحسساً حجر العمود البارد الذي أسندت إليه ظهري. قدّم إليّ بتروس القليل من الماء، وأضاف:

ـ إن الهواجس تبدأ بالظهور، حين يفقد الناس تحكّمهم بقوى الأرض. فلعنة الغجريّ نقلت الخوف إلى هذه المرأة، ففتح ثغرة، دخل منها رسول الميْت. ليست هذه حالة عادية، لكنها ليست نادرة أيضاً. هذا يتعلّق، إلى حدّ بعيد، بالطريقة التي تتصرّف بها حيال تهديدات الآخرين.

هذه المرّة، كنت أنا من تذكّر مقطعاً من الكتاب المقدس، وهو موجود في سفر أيوب: «ما كنت أخشاه قد غشيني وما فزعت منه قد رهقني».

قال بتروس:

ـ إن التهديد لا يمكن أن يفعل بنا شيئاً، إذا لم نكن قد قبلناه. حين تخوض «الجهاد الحسن»، لا تنسَ هذا أبداً. كما يُفترض بك ألا تنسى أن الهجوم أو الهروب يشكّلان جزءاً من الصراع، بخلاف الخوف الذي يشلّ العزيمة.

لم أخف في الحال. فقد فوجئت، أنا نفسي، بذلك. وتباحثت بالموضوع مع بتروس.

أجاب:

ـ أعرف ذلك، وإلا لهاجمك الكلب، وربح المعركة بالتأكيد، لأنه لم يكن خائفاً. أما الأمر الأطرف، فهو وصول الراهبة. عندما تراءى لك حضور إيجابي، أنبأك خيالك الخصب أن أحداً ما جاء لنجدتك. وهذه الثقة أنقذتك، حتى وإن كانت غير مستندة إلى واقع مقبول.

أثناء المشي، أعلن بتروس قائلاً:

ـ إن ثمة أمراً عليك معرفته، هو أنّ المبارزة مع الكلب لا يمكن أن تنتهي إلا بانتصار أحدكما. في المرّة المقبلة، حين يظهر من جديد، حاولْ أن تضع حدّاً للصراع، وإلّا استمرَّ شبحه يقضّ مضجعك، حتى آخر أيامك.

بعد لقاء الغجريّ، أوحى إليّ بتروس أنه يعرف اسم هذا الشيطان. سألته من يكون.

أجابني:

ـ هم جوقة، لأنهم شياطين كُثر.

كنا نمشي على أراضٍ يمهّدها المزارعون لنثر البذار. هنا وهناك فلّاحون ينقلون خزّانات ماء بدائية، ليواصلوا حربهم الأبدية ضد

قحط الأرض. وعلى جوانب طريق مار يعقوب، حجارة مكدّسة تؤلّف جدراناً لا تنتهي، تتصالب وتتماهى مع مناظر الريف. فعلى الرغم من أن هذه الأراضي قد حُرثت لقرون خلت، فإن ثمة حجارة تنبثق على الدوام، وينبغي، انتزاعها، حجارة تكسر نصل المحراث، وتشوّه الحصان، وتقرّح يد الفلاح. إنه صراع يعاود كل سنة، ولا ينتهي أبداً.

كان بتروس أكثر هدوءاً من العادة. وتذكّرت أنه، منذ الصباح، لم يقل شيئاً. بعد الحوار قرب العمود القروسطي، آثر الصمت، ولم يُجب إلا لماماً عن أسئلتي. أردت أن أعرف أكثر عن قصة «جوقة الشياطين» هذه، لكنه لم يُظهر استعداداً لمقاربة الموضوع. وقررت انتظار مناسبة أكثر ملاءمة.

تسلّقنا ربوة صغيرة. ومن علٍ، لمحت قبّة الجرس الرئيسية لكنيسة «سانتو دومينغو دولا كالثادا». شجّعتني تلك الرؤية، ورحت أحلم بالراحة والسحر في الفندق السياحي («بارادور ناسيونال»). وتفيد قراءاتي أن هذا المبنى قد شيّده القديس دومينيك شخصياً ليستقبل الحجاج. كما أن مار فرنسيس الأسير قضى فيه ليلته عندما كان يحجّ إلى «كومبوستيلا»، وكل هذا أثار اهتمامي.

كانت الساعة السابعة مساء، عندما قرر بتروس أن يتوقّف. تذكّرت «رونسوفو»، والمشي البطيء الذي أمرني به بتروس، تماماً في اللحظة التي كنت أشعر فيها ببرد قارس، وبحاجة ملحّة إلى كأس من النبيذ. خفت ألا يقوم، الآن، باقتراح مماثل. لكنه قال:

ـ لن يساعدك أبداً «رسول» في هزم «رسول» آخر. فـ «الرسل» ليسوا خيّرين ولا أشراراً. سبق لي أن قلتُ كل ذلك. وأضيف أنهم مرتبطون بعضهم ببعض، تربطهم مشاعر أمانة. لا تعتمد على أستران إذا أردت أن تهزم الكلب.

هذه المرة، أنا الذي لم يكن مستعداً للتحدث عن الشياطين. كنت أريد الوصول بسرعة إلى «سانتو دومينغو».

إن «رُسل» الموتى يمكنهم أن يسكنوا جسداً يهيمن عليه الخوف. لذا هم كُثر في حالة الكلب، اجتذبهم خوف المرأة. ليس وحده «رسول» الغجري القتيل، بل «الرُسل» المختلفون الذين يهيمون مفتشين عن وسيلة للاتصال بقوى «الأرض».

الآن، فقط، أجاب عن سؤالي. لكن شيئاً ما، في الطريقة التي تكلّم بها، بدا لي مفتعلاً، كما لو أنه يحيد عن الموضوع الحقيقي الذي يودّ مناقشته معي. وأعلمتني غريزتي، بذلك فوراً.

سألته، وفي لهجتي شيء من الغضب:

ـ ماذا تريد يا بتروس بالضبط؟

لم يُجبني مرشدي. خرج عن الطريق، واتجه إلى شجرة قديمة شبه عارية في أحد الحقول، تبعد عشرات الأمتار، وهي الشجرة الوحيدة المنتصبة عند الأفق. وبما أن بتروس لم يدعُني إلى اللحاق به، فقد بقيت مسمّراً في مكاني، ورأيت مشهداً غريباً. كان بتروس يدور حول الشجرة ويتكلم بصوتٍ عالٍ وعيناه مطرقتان. ثم أشار إليّ أخيراً بالاقتراب:

ـ اجلس هنا.

حمل صوته نبرة جديدة. ولم أستطع أن أعرف إذا كانت هذه النبرة تعبّر عن الحنان، أم عن الحسرة.

ـ ستبقى هنا. ألقاك غداً في «سانتو دومينغو دولا كالثادا».

وقبل أن أتمكّن من التفوّه بكلمة، تابع بتروس:

ـ سيأتي يوم، وأضمن لك أنك لن، تواجه، يوماً، عدوّك اللدود أي الكلب على طريق مار يعقوب. وعندما يأتي هذا اليوم، كن مطمئناً، لأني ساكون قربك، وأمدّك بالقوة اللازمة للصراع. لكن اليوم ستواجه نوعاً آخر من الأعداء، عدواً وهمياً يمكنه أن يدمّرك، كما يمكنه أن يكون صديقك المفضّل، وهو الموت.

إن «الإنسان هو الكائن الوحيد في الطبيعة الذي يعي موته المقبل. ولهذا السبب، لهذا السبب فقط، أكنّ احتراماً للجنس البشري، وأتصور أن مستقبله سيكون أفضل من حاضره. حتى عندما يعرف الإنسان أن أيامه معدودة، وأن كلّ شيء سينتهي في الوقت الذي يتوقّع فيه النهاية، فهو يجعل من الحياة صراعاً جديراً بكائن أبديّ. وما يدعوه الناس باطلاً، كترك الآثار بعد الموت، أو إنجاب الأولاد، أو العمل على تخليد الذكرى، أرى فيه التعبير الأسمى عن الكرامة الإنسانية.

إن الإنسان، وهو مخلوق هشّ، يحاول دوماً أن يتستّر على اليقين الأسمى لموته. ذلك أنه لا يعرف أن الموت هو الذي يدفعه ليحقق أفضل الأشياء في حياته. تراه يخاف العبور في الظلمة، ويرعبه المجهول إلى أقصى حد. وتتمثّل الوسيلة الوحيدة للتخلّص من هذا الخوف بأن ينسى أن أيامه معدودة. هو لا يعرف أنه لو وعى الموت، لصار أقدر على مواجهته بجرأة أكبر، فيمضي قدماً في انتصاراته اليومية، لأن ليس لديه ما يخسره منذ اللحظة التي يصبح فيها الموت أمراً محتوماً.

بدت لي فكرة قضاء الليل في «سانتو دومينغو» ذكرى بعيدة. تابعت باهتمام متزايد أقوال بتروس. وعلى الأفق المقابل لنا، بدأت الشمس بالغروب. لعلّها سمعت أيضاً هذه الكلمات.

«الموت هو رفيقنا الأكبر، لأنه هو الذي يجعل لحياتنا معنى. ولكن، لكي نتأمّل الوجه الحقيقي لموتنا، علينا أن نتذكر، أولاً، كل الرغبات والأهوال التي يستطيع اسمه إيقاظها فينا، وفي أيّ كائن حي».

جلس بتروس تحت الشجرة، ودعاني لأفعل مثله. قال لي إنه دار

حول جذع الشجرة منذ قليل، لأنه تذكّر ما حدث، عندما كان حاجاً في طريقه إلى «مار يعقوب». ثم أخرج من حقيبته شُطيرتين كان قد اشتراهما وقت الغذاء.

قال، وهو يقدمهما إليّ:

– إن المكان الذي تجلس فيه لا يشكّل أي خطر. ليس هناك أفاعٍ سامّة، ولن يرجع الكلب لمهاجمتك، إلا عندما ينسى فشله هذا الصباح. وليس في الجوار صعاليك ولا مجرمون. أنت، إذن، في مكان آمن بشكل مطلق، إلا من خطر واحد: خوفك.

قال لي إنّي خبرت، منذ يومين، شعوراً حاداً وعنيفاً، وهو الحب الملتهم، ولم أتردّد في أي لحظة، ولم أخَفْ، لأنني لم أكن أملك أحكاماً مسبقة عن الحب الكوني. أما الموت، فلدينا جميعاً، بشانه، أحكام مسبقة، ولا نعرف أنه تجلٍّ آخر للحب الإلهي، ليس إلا. أجبت بتروس أنني، بعد كل هذه السنوات من الاكتساب والتعلّم قد انتصرت على الخوف من الموت عمليّاً. في الواقع، كنت أخاف الطريقة التي سأموت بها، أكثر من خوفي الموت نفسه.

– قمْ، إذن، هذا المساء بالتجربة الأكثر رعباً للموت.

وعلّمني بتروس تمرين «المدفون حياً».

ثم قال لي بتروس، فيما كنت أتذكّر تمريناً مسرحياً مشابهاً:

– يجب ألا تمارسه إلا مرّة واحدة. يجب أن توقظ كل الحقيقة داخلك، كل الخوف الضروري لكي يتيح لك التمرين الانبثاق من أعماق نفسك، فيمزّق قناع الرعب الذي يغطّي الوجه المحِبّ للموت.

نهض بتروس، ورأيت طيفه منتصباً وسط السماء التي اصطبغت بألوان الشمس الغاربة. وبما أنني بقيت جالساً، فقد بدت قامة عملاقة تبعث على الرهبة.

تمرين «المدفون حيّاً»

اجلس على الأرض واسترخِ. اشبك يديك فوق صدرك، واستلقِ في وضعية الميت.

تخيّل كل تفاصيل دفنك وكأنه سيحدث غداً. بيد أن الفرق الوحيد هو أنك مدفون حياً. وبمقدار ما تتوالى الأحداث، الكنيسة، المسيرة حتى القبر، إنزال النعش في الحفرة، ينبغي لك أن تشدّ كلّ عضلاتك في جهد أخير يائس، لتتحرك، ولكن لا تتحرك. لا تتحرك حتى اللحظة التي تفقد فيها قدرتك على الاحتمال. وبحركة واحدة، ادفع بكلّ جسمك ألواح النعش. تنفّس بعمق، وكن حراً. ويتضاعف تأثير هذه الحركة، إذا رافقتها صرخة، صرخة نابعة من أعماق جسدك.

– بتروس، لدي سؤال آخر.

– ما هو؟

– هذا الصباح، كنت صامتاً وغريباً، وكأنك حدست قبلي مجيء الكلب. كيف كان ذلك ممكناً؟

– عندما اختبرنا معاً الحبّ المُلتهم، تشاركنا في المطلق. فالمطلق يُظهر كلّ الناس على حقيقتهم، بوصفهم شبكة هائلة من الأسباب والنتائج. ويغدو لكل حركة، يقوم بها أحدنا، انعكاسها في حياة الآخر. هذا الصباح، كان ذلك الجزء من المطلق حيّاً متوقّداً في داخلي؛ فتمكّنت من فهمك، ليس بمفردك، بل فهمت كل ما هو موجود في العالم. دون أن يحدّه زمان أو مكان. لقد تضاءل التأثير. ولن يرجع إلا في المرة المقبلة، حين أقوم بتمرين الحب الملتهم.

تذكّرتُ المزاج السيئ لبتروس هذا الصباح. فإذا كان يقول الحقيقة، فالعالم، إذن، في صدد اجتياز مرحلة صعبة جداً.

قال، وهو يبتعد:

– سأنتظرك في الفندق. سأسجّل اسمك في مكتب الاستقبال.

تبعته بنظراتي إلى أن اختفى. إلى يساري في الحقول، كان العمّال قد أنهوا أعمالهم، ورجعوا إلى بيوتهم. قرّرت القيام بالتمرين، عند هبوط الليل.

كنت هادئاً. كانت هذه هي المرة الأولى التي أبقى فيها وحدي، منذ أن شرعت في الرحلة الغريبة لطريق مار يعقوب. نهضت، وقمت ببعض الخطوات في الجوار، لكن الليل هبط سريعاً، فرجعت إلى حيث الشجرة، مخافة أن أضيع. وقبل أن يصبح الليل دامساً، دوّنتُ في ذهني المسافة التي تفصل الشجرة عن الطريق. وبالنظر

إلى عدم وجود ضوء يزعجني، فقد شعرتني قادراً تماماً على رؤية الدرب، والوصول إلى «سانتو دومينغو»، بفضل البريق الوحيد للهلال الصغير الذي ظهر في السماء.

حتى الآن، لم أشعر بالخوف. قلت في نفسي إنني في حاجة إلى الكثير من الخيال لأوقظ في داخلي كل المخاوف التي تحدثها ميتة فظيعة. لكن قلّما يهمّ عدد السنوات التي بلغناها. عندما يهبط الليل، يرجع معه كل المخاوف المختبئة في حنايا أنفسنا منذ الطفولة. وكلّما اسودّ الليل، أشعر بالاستياء.

كنت هنا وحيداً وسط الريف. حتى وإن صرخت، فلن يسمعني أحد. تذكّرت الهجوم الذي تهدّدني هذا الصباح، فشعرت بخوف عظيم، لم أشهد له مثيلاً في حياتي.

ماذا لو متّ؟ عندئذٍ، ينتهي كلّ شيء. إلا أنني، أثناء مسيرتي تبعاً لنهج «الميراث»، تحدّثت إلى أرواح عديدة، وكان لديَّ اليقين الكامل بأن هناك حياة بعد الموت. لكنّي لم أتساءل كيف سيتم هذا الانتقال. لا بدّ أنّ الانتقال من بُعد إلى آخر مُخيف، مهما نكن مستعدّين. لو متّ هذا الصباح، مثلاً، لفقدتْ طريقُ مار يعقوب، وسنواتُ دراستي، وحسراتُ عائلتي، والمالُ المخبّأ في حزامي، كلّ معنى. تذكّرتُ نبتة وضعتها على مكتبي في البرازيل. النبتة لا تزال موجودة، وكذلك الباص، وبائع الخُضَر القابع على الناصية والذي يبيع بضاعته بسعر أغلى من الجميع، وعاملة الهاتف التي تعطيني سرّاً الأرقام على لائحة حمراء. كل هذه الأشياء الصغيرة التي بإمكانها الاختفاء، فيما لو حدث لي سدادٌ مفاجىء، هي التي تؤكّد لي أنني لا أزال على قيد الحياة، لا النجوم ولا الحكمة...

كان الليل مظلماً تماماً. وعند الأفق، استطعت أن أميّز الأضواء الخافتة للمدينة. تمدّدت أيضاً، ونظرت إلى أغصان الشجرة المخيّمة فوق رأسي. بعد قليل، سمعت أصواتاً غريبة من كلّ نوع. كانت تصدر عن حيوانات الليل التي خرجت لتصطاد. وبما أن بتروس لا

يمكنه معرفة كل شيء لأنه بشر مثلي، فمن يضمن لي أن ليست هناك أفاعٍ سامة؟ ثمّ ماذا عن الذئاب؟ الذئاب الأبدية لأوروبا؟ لعلّها قررت، وقد اشتمت رائحتي، أن تمرّ هذه الليلة من هنا. ثم سمعت صوتاً قوياً يشبه غصناً يُكسر، فانتفضت، وبدأ قلبي يخفق في صدري خفقات جنونية.

كنت متشنّجاً للغاية. وكان من الأفضل أن أقوم بالتمرين، وأذهب إلى الفندق. هدأت قليلاً، وشبكْتُ يديَّ فوق صدري في وضعية الميت. شيء ما قريب منّي تحرك. نهضت متوثّباً.

لم يكن من خطب. كان الليل قد غمر كل شيء، وأيقظ بظلامه كل المخاوف البشرية. تمدّدت من جديد، مصمماً هذه المرة على جعل كل خوف حافزاً للتمرين. ولاحظت أنني كنت أتصبّب عرقاً، بالرغم من برودة الطقس.

تخيّلت النعش مسمّراً، والناس واقفين حولي. كنت جامداً، لكني ما زلت حيّاً. وودت لو أستطيع أن أبلغ عائلتي، التي ترى كلّ شيء، أنني أحبّها، لكنّ الصوت احتبس في حنجرتي. كان أمي وأبي يبكيان، وأصدقائي يلتفّون حولي، وكنت وحيداً! كل تلك الكائنات العزيزة كانت هنا، وليس بمقدور أحد الحسّ بأنني حي يرزق، أو بأنني لم أحقّق ما كنت راغباً في تحقيقه أثناء وجودي في هذا العالم! حاولت يائساً أن أفتح عيني، أن أقوم بإشارة، أن أقرع غطاء التابوت، لكن لا شيء في جسدي يتحرّك.

كنت أشعر أن النعش يتمايل. كانوا ينقلونني إلى المقبرة. استطعت سماع صوت الحلقات التي تحتكّ بحمّالات الحديد، وخطوات الناس في الموكب، وأصواتاً تتسامر. قال أحدهم إنه مدعو إلى العشاء لاحقاً وعقّب آخر أني متّ شاباً. كانت رائحة الأزهار حول رأسي تشعرني بالاختناق.

تذكّرت أنني لم أغازل امرأتين، أو ثلاثاً، مخافة أن ينبذنني. وتذكّرت بعض المناسبات التي تخلّيت فيها عن رغباتي، معتقداً

أنني أستطيع تأجيل تنفيذها إلى وقت لاحق. وشعرت بحزن عميق، ليس فقط لأنني كنت ميتاً حياً، بل لأنني خفت من الحياة فيما مضى. ماذا يعني الخوف من أن ينبذني الآخرون، أو أن أؤجّل عملاً إلى وقت لاحق، إذا كان الأهم هو أن نستمتع بالحياة ونحياها بكل قوانا؟ كنت أسيرَ نفسي وكان الأوان قد فات للرجوع إلى الوراء، وامتلاك الشجاعة التي كان عليَّ التحلّي بها.

كنت يهوذا نفسي، خائن نفسي. كنت هنا، ولا أستطيع تحريك عضلة واحدة لأنادي من يهبّ لنجدتي، فيما الناس في الخارج غارقون في الحياة، منشغلون بما سيفعلونه هذا المساء، ناظرون إلى تماثيل ومبانٍ لن أراها أبداً. واجتاحني شعور جارف بالظلم، ظلم أن أُدفن، فيما الآخرون يتابعون حياتهم. كان من الأفضل أن تحدث كارثة هائلة، وأن يكونوا جميعاً في المركب نفسه المتّجه إلى النقطة السوداء نفسها، التي يقلّونني إليها. النجدة! أنا حيّ! لم أمت. ذهني لا يزال يعمل.

وضعوا النعش على حافة القبر. سيدفنونني! زوجتي ستنساني، وتتزوج من جديد، وستنفق المال الذي جهدنا لادّخاره طوال هذه السنوات... لكن أي أهمية لذلك! أريد أن أكون معها الآن، لأنني حي!

سمعت بكاء. أحسست أن الدموع تنهمر أيضاً من عيني. لو أنهم يفتحون النعش في هذه اللحظة، فسيدركون حقيقة الأمر، ويتم إنقاذي. لكن النعش كان ينحدر داخل الأرض دون رحمة. وفجأة، صار كل شيء ظلاماً. حتى الآن، كان هناك بصيص نور يتسرّب من جوانب النعش. أما الآن، فظلام مُطبق. رفوش حفّاري القبور تسدّ منافذ القبر. وأنا حيّ! مدفون حيّاً! أصبح الهواء ثقيلاً، ورائحة الأزهار خانقة. وسمعت خطوات الناس، وهم يبتعدون. حلّ رعب مطلق. لم أستطع الحراك، لقد غادروا الآن. قليلاً، ويهبط الليل، ولا أحد يسمعني أقرع غطاء النعش.

لم يسمع أحد الصرخات التي أصدرها فكري. أنا وحيد. والظلمة والهواء الخانق وعطر الأزهار... كلّ ذلك جعلني مجنوناً. وفجاة، سمعت صوتاً صاخباً؛ إنها الديدان، الديدان التي تقترب لتلتهمني حيّاً. أحاول بكل قواي أن أحرك عضواً فيّ لكنني لا أفلح. الديدان تتسلق جسدي. إنها مكتنزة وباردة. تمرّ فوق وجهي، وتدخل في بنطالي. اخترقت إحداها إستي، واندسّت أخرى في فجوة أنفي. النجدة! أنا مثلهم حيّاً، ولا أحد يسمعني، ولا أحد يقول شيئاً. إن الدودة، التي دخلت عبر منخري، نزلت إلى حنجرتي، في حين أن دودة أخرى اخترقت أذني. يجب أن أخرج من هنا! أين الله الذي لا يستجيب لي؟ بدأت الديدان تلتهم حنجرتي، ولم أعد أستطيع الصراخ! إنها تنفذ من كل ناحية، من الأذن، من زاوية الفم، من ثقب الإحليل... أشعر بهذه الأشياء الدسمة التي يسيل لعابها في داخلي. يجب أن أخرج، أن أتحرّر! أنا محشور في هذا التابوت المظلم والبارد، وحيدٌ، ملتهمٌ حيٌّ. الهواء ينفد، والديدان تأكلني! يجب أن أغادر هذا النعش وأحطّمه. يا إلهي! استجمع كلّ قواي، لأن عليّ أن أتحرّك وأخرج من هنا. سأتحرّك. سأتحرّك.

لقد نجحت!

تطايرت ألواح النعش شظايا، واختفى القبر. ملأتُ صدري بهواء طريق مار يعقوب المنعش. كان جسدي يرتجف من الرأس حتى أخمص القدمين، وقد ابتلّ بالعرق. تحرّكت قليلاً، ولاحظت أنني تقيّأت. لكن لا شيء من هذا كان مهماً. المهمّ أنني حيّ.

سرت الرعشة فيّ، ولم أقم بأي جهد لأضبطها. اجتاحني شعور هائل بالهدوء الداخلي، وبحضورٍ إلى جانبي. نظرتُ، فرأيت وجه موتي. لم يكن الموت، الذي اختبرته منذ قليل، بل موتي الحقيقي، رفيقي ومرشدي الذي، بفضله لن أعود جباناً أبداً في حياتي. الآن

سيساندني موتي أكثر من يد بتروس، ونصائحه. لن يسمح لي بأن أرجىء إلى وقت لاحق ما أستطيع إنجازه الآن. لن يجعلني أهرب من صراعات الوجود، وسيؤازرني أثناء «الجهاد الحسن». ولن أخاف من تادية الأعمال، متذرّعاً بأني لا أريد أن أثير سخرية الآخرين. كان الموت هنا يوصيني بأنه لا يجدر بي، حين يأخذني بيدي لنسافر إلى عوالم أخرى، أن أصطحب أكبر الخطايا جمعاء: الندم. استأنست بحضوره، ونظرت إلى وجهه العطوف. تيقّنت أنني سأشرب من ينبوع الحياة الحيّ، الذي هو هذا الوجود.

لم يعد لليل أسرار ولا رعب. كان الليل بهيجاً، ساكناً. عندما اختفت الرجفة من جسدي، نهضت وتوجّهت إلى مخازن العمال في الحقول. نظّفت بنطالي القصير واستبدلت به بنطالاً حملته في حقيبة ظهري. ثم رجعت إلى الشجرة، وأكلت الشطيرتين اللتين تركهما بتروس. كان ألذّ طعام تناولته في حياتي، لأني كنت حيّاً، والموت لم يعد يخيفني.

قررت أن أنام في هذا المكان. ولم تكن الظلمة بهذه الوداعة.

* * *

العيوب الشخصية

وجدنا أنفسنا في حقل هائل مترامي الأطراف، غُرس بالقمح الأملس، يمتد برتابة على طول الأفق. قطع رتابة المنظر عمودٌ قروسطي يعلوه صليب يشير إلى طريق الحجّاج. رمى بتروس حقيبته أرضاً أمام العمود، وجثا على ركبتيه. ودعاني لأفعل ما فعل.

«سنصلّي، سنصلّي من أجل الشيء الوحيد، الذي يجعل حاجّاً يفشل عندما يجد سيفه، وهو عيوبه الشخصية. يلقّنه المعلمون الكبار أن يوجّه النصلة، لكن يده ستكون دوماً ألدّ عدوّ له. سنصلّي حتى إذا وجدْت سيفك، أمسكته، دائماً، باليد التي لن تؤذيك».

كانت الساعة الثانية بعد الظهر، وكل شيء ساكن حولنا، فبدأ بتروس صلاته:

«رحمتك يا رب، لأننا حجّاج في الطريق إلى كومبوستيلا. وهذا يمكنه أن يكون عيباً. رحمتك اللامتناهية يا ربّ. ساعدنا حتى لا نجعل المعرفة ترتدّ علينا.

«الرحمة لهؤلاء الذين يشفقون على أنفسهم، ويعتبرون أنفسهم صالحين، ويظنون أن الحياة مُجحفة بحقّهم، ولا يستحقّون ما يحصلون عليه، إن هؤلاء لن ينجحوا أبداً في خوض «الجهاد الحسن». الرحمة لهؤلاء القساة على أنفسهم، ولا يرون الشرّ إلا في أعمالهم، ويعتبرون أنفسهم مسؤولين عن مظالم العالم، لأنهم لا يعرفون شريعتك التي تقول: «شعور رؤوسكم كلّها مُحصَاة».

«الرحمة لهؤلاء الذين يأتمرون، ويقضون ساعات طويلة في العمل، ويضحّون بأيام الآحاد، حيث كلّ شيء مقفل، وحيث لا مكان يذهبون إليه. لكن الرحمة لهؤلاء الذين يقدّسون عملك، ويذهبون أبعد من جنونك بالذات، وينتهون مَدينين أو مسمّرين على الصليب بأيدي إخوتهم بالذات، لأن هؤلاء لا يعرفون شريعتك التي تقول: «كونوا حكماء كالحيّات، وودعاء كالحمام».

«الرحمة لأن الإنسان يمكنه أن يهزم العالم، دون أن يخوض «الجهاد الحسن» مع نفسه لكن الرحمة لهؤلاء الذين ربحوا «الجهاد الحسن»، وهم الآن على مفترق طرقات الحياة وفي حاناتها، لأنهم لم ينجحوا في إلحاق الهزيمة بالعالم، لأن هؤلاء لا يعرفون شريعتك التي تقول: «من يسمع كلامي ويعمل به يشبه رجلاً بنى بيته على الصخر».

«الرحمة لهؤلاء الذين يخافون إمساك القلم والريشة والأداة والآلة، معتبرين أن الذين جاؤوا قبلهم صنعوا الأفضل، وهم غير جديرين بدخول عالم الفن المذهل. لكن زد رحمتك يا ربّ على هؤلاء الذين أمسكوا بالقلم والريشة والأداة والآلة،وحوّلوا الإلهام شعوراً حقيراً، واعتبروا أنفسهم أفضل من الآخرين. فهم لا يعرفون شريعتك التي تقول: «لا خفيّ إلا سيظهر، ولا مكتوم إلا سيُعلم».

«الرحمة لهؤلاء الذين يأكلون ويشربون ويتخمون، لكنهم تعساء ووحيدون، وسط الوفرة التي يعيشونها، والرحمة أيضاً للذين يصومون ويمنعون ويحظّرون، ويظنون أنفسهم قديسين، ويذهبون ليكرزوا باسمك في الساحات، لأن هؤلاء لا يعرفون شريعتك التي تقول: «لو كنت أشهد لذاتي لما كانت شهادتي حقّاً».

«الرحمة لهؤلاء الذين يهابون الموت، ويجهلون الممالك العديدة التي اجتازوها، والميتات العديدة التي ماتوها، والذين هم التعساء، لأنهم يعتبرون أن كل شيء مصيره إلى زوال. لكن الرحمة أيضاً لهؤلاء الذين عرفوا ميتاتهم العديدة، واعتبروا أنفسهم خالدين، لأنهم

يجهلون شريعتك التي تقول: «إن مَنْ لا يولد ثانية، لا يرى ملكوت الله».

«الرحمة لهؤلاء الذين يستبعدهم القيد الحريري للحب، ويعتبرون أنفسهم سادةً على الآخرين، ويشعرون بالحسد، ويسممون أنفسهم، ويتعذبون، لأنهم لا يعرفون أن الحب يتغيّر كالريح وككل الأشياء. لكن الرحمة أيضاً لهؤلاء الذين يموتون خوفاً من الحب، ويرفضون الحب باسم الحب العظيم، لأنهم لا يعرفون شريعتك التي تقول: «من يشرب من هذا الماء فلن يعطش أبداً».

«الرحمة لهؤلاء الذين يختزلون الكون إلى تفسير، والله إلى وصفة سحرية، والإنسان إلى كائن ذي حاجات أساسية عليه إشباعها، لأن هؤلاء لن يسمعوا أبداً موسيقى الأجواء السماوية. لكن ترأفْ أيضاً بهؤلاء الذين يملكون إيماناً أعمى، ويحوّلون الزئبق في المختبرات ذهباً، ويحيطون أنفسهم بالكتب التي تكشف لهم أسرار التاروت وقدرة الأهرامات. لأن هؤلاء لا يعرفون شريعتك التي تقول: «الأطفال وحدهم يرثون ملكوت السموات».

«الرحمة لهؤلاء الذين لا يرون أحداً أعظم من أنفسهم، ولا يأبهون للآخرين، ويعتبرونهم منظراً غامضاً وبعيداً. هؤلاء الذين يعبرون الطريق بسياراتهم الليموزين، وينعزلون في مكاتبهم المكيَّفة في الطابق الأخير، وهم يتعذّبون بصمت، بسبب وحدة قوّتهم. لكن الرحمة أيضاً لهؤلاء الذين تظلّ أياديهم مبسوطة للإحسان والخير، ويريدون الانتصار على الشر بالحب وحده، لأنهم يجهلون شريعتك التي تقول: «مَنْ ليس له سيف، فليبع رداءه ويشترِ سيفاً».

«الرحمة يا ربّ، رأفةً بنا، نحن الذين يفتّشون ويجرؤون على الإمساك بالسيف الذي وعدت به، نحن الشعب القدّيس والخاطئ المنتشر على وجه الأرض، لأننا لا نعرف ذواتنا حقاً. نخال أنفسنا مكتسين، فيما نحن عراة، نعتقد أننا نرتكب جريمة، فيما نحن، في الواقع، ننقذ نفساً من الهلاك. لا تنسنا من رأفتك، نحن جميعاً، الذين يستلّون السيف من يد الملاك ومن يد الشيطان في آن، لأننا من العالم وفي العالم، ونحتاج إليك، نحتاج دوماً إلى شريعتك التي تقول: «وأنا أرسلكم، فلا تأخذوا معكم لا كيساً ولا مزوداً ولا حذاء، ولا ينقصكم شيء».

كفّ بتروس عن الكلام، وخيّم الصمت طويلاً. كان يحدّق إلى حقول القمح الممتدّة حولنا.

* * *

الانتصار

وصلنا بعد الظهيرة، إلى خرائب قصر قديم يعود إلى جمعية فرسان الهيكل. جلسنا نرتاح. دخّن بتروس سيجارته التقليدية، وشربت قليلاً من الخمر التي احتفظت بها من الغداء. نظرت إلى المشهد الذي يحيطني: البيوت القليلة التي يسكنها المزارعون، برج أحد القصور، تموجات الريف، الأرض المحروثة المعدّة للبذار. وفوجئت، وأنا أنظر إلى يميني، براعٍ قرب الأسوار المتهدّمة، يعود من الحقول مع خرافه. كانت السماء حمراء والغبار، الذي تنثره حوافر الحيوانات، أضفى على المشهد منظراً غامضاً، أشبه بحلم أو برؤيا سحرية. رفع الراعي يده، وحيّانا، فرددنا التحية.

مرّت الخراف قربنا وتابعت طريقها. نهض بتروس، وقد أثّر فيه المشهد، قائلاً:

ـ هيّا، لنذهب بسرعة.

ـ لماذا؟

ـ ألا ترى أننا قضينا وقتاً طويلاً على طريق ما يعقوب؟

لكن شيئاً ما كان يقول لي إن دعوته إلى الإسراع، مرتبطة بمشهد الراعي وخرافه.

بعد يومين، وبعد أن اجتزنا حقول القمح الهائلة ذات المنظر الرتيب، وصلنا إلى أسفل الجبال المرتفعة في الجنوب. وعلى الرغم

من بعض الربوات الطبيعية، فإن المكان كان موسوماً بالعلامات الصفراء التي تحدّث بها الأب جوردي. ومع ذلك، فإن بتروس، ودون أن يدلي بأيّ تفسير، قد ابتعد شيئاً فشيئاً عن هذه العلامات، متّجهاً إلى الشمال. سألته عن الأمر، فأجابني، بلهجة جافة، أنه مرشدي، ويعرف تماماً كيف يقودني.

بعد حوالى نصف ساعة من المسير، سمعت ضجة أشبه بشلّال. ولم يكن حولنا إلا الحقول التي أيبستها الشمس. ورحت أفتش عن مصدر الصوت. كنّا كلّما تقدّمنا، ازداد الصخب قوّة، إلى أن عرفنا مصدر الصوت، الذي لا يرقى إليه شكّ: إنه مسقط ماء. كانت هذه ظاهرة خارجة عن المألوف: نظرت من حولي، فلم أرَ لا جبالاً، ولا مساقط مياه.

عند منعطف إحدى الأكمات، رأيتني، فجأة، أمام مشهد طبيعي غريب: ثمّة طبقة مائية تنحدر إلى محور الأرض، تقع في منخفض أرضي يتّسع لمبنى من خمسة طوابق، وتعلو ضفاف المنخفض الهائل، خضرة فياضة، مختلفة تماماً عن البقعة التي تحيط بمسقط الماء.

قال بتروس:

ـ سنجتاز المنحدر.

بدأنا بالانحدار. وفكرت بـ «جول فرن». كنّا كأنّنا نتّجه إلى محور الأرض. كان الانحدار وعراً، وتوجب عليّ التشبث بالجنبات الشوكية والحجارة المسنونة، كي لا أهوي. وصلت إلى أسفل المنحدر وذراعاي وساقاي تكسوها الكلوم.

علّق بتروس، قائلاً:

ـ يا للمنظر الطبيعي الجميل.

شاركته شعوره: إنها واحةٌ وسط الصحراء، تجلّى فيها اخضرار كثيف، في حين أن رذاذ الماء يرسم شكل قوس قزح. كان هذا المنظر برمّته جميلاً، سواء شُوهد من الأسفل أم من الأعلى.

وأصرَّ بتروس:

ـ هنا الطبيعة تُظهر عظمة قوّتها.

وأردفت قائلاً:

ـ هذا صحيح.

ـ كذلك هي تسمح لنا بأن نثبت، نحن أيضاً، قوّتنا. سنتسلّق هذا المسقط، وسط المياه.

نظرتُ من جديد إلى المشهد. فما عدت أرى الواحة الجميلة وهي إحدى النزوات المتكلّفة للطبيعة. وجدتني أمام جدار يبلغ ارتفاعه خمسة عشر متراً. ومن علوه، يتساقط الماء بصخبٍ كبير. لم يكن عمق البركة، التي يشكّلها تساقط الماء، يتجاوز قامة رجل، فيما كان النهر يجري بصخب عبر فتحة تنساب إلى أحشاء الأرض. لم يكن على الجدار أي نقطة يمكن التشبث بها، كما أن البُركة ليست بالعمق الكافي لتتحمّل سقوطاً. فبدت لي المهمّة مستحيلة.

تذكّرت مشهداً حصل منذ خمس سنوات، خلال ممارسة أحد الطقوس الخطيرة التي جرى فيها تسلّق أحد الأماكن الشاهقة. تركني المعلّم أقرر ما إذا كنت أريد المتابعة، أم لا. كنت أكثر فتوّة، وكنت مسحوراً بقدراته، وبمعجزات الميراث، فقررت المضي قدماً، لأثبت شجاعتي وجرأتي.

بعد قرابة الساعة من التسلّق، وأمام العقبة الأكثر صعوبة من الصعود، عصفتْ ريح قوتها غير معهودة، وكان عليَّ أن أتشبث، بكل قواي، بالحرف الصغير الذي كنت مستنداً إليه، كي لا أهوي. أغمضتُ عينيَ منتظراً الأسوأ، وأظافري مغروزة في الصخر. وكم كانت دهشتي بالغة، عندما استنتجت لاحقاً أن أحدهم قد ساعدني على تثبيت موضع مريح وأكيد. فتحتُ عينيَ؛ كان

معلّمي إلى جانبي يرسم في الهواء بعض الوجوه، وفجاة، توقّفت الريح. وبرشاقة غريبة تشبه التمارين الخالصة التي تجعل الجسم ينطلق صعداً بقوة الإرادة وحدها، هبط من جديد، ودعاني لأفعل مثله.

وصلت إلى الأسفل، وساقاي ترتجفان. سألته مستنكراً لما جعل الريح تتوقّف قبل أن يبلغني.

ـ لأني أنا الذي جعل الريح تهبّ.

ـ لقتلي؟

ـ بل لإنقاذك. فأنت غير قادر على تسلّق هذا الجبل. وعندما سألتك: هل تريد الصعود؟ كنت أريد أن أمتحن حكمتك، لا قوّتك.

ثم أضاف المعلّم:

ـ لقد اختلقتُ أمراً لم أوحِ لك به. فلو أنك كنت تتقن التسلّق، لما كانت هناك مشكلة. لكنك أردت أن تكون شجاعاً، في الوقت الذي كان الأمر فيه يتطلّب ذكاءً لا شجاعة.

وحدّثني في ذلك اليوم عن مجوسٍ أُصيبوا بالجنون، خلال مسار الإشراق، ولم يعودوا قادرين على تمييز قواهم من قوى تلاميذهم. وأنا، خلال مسيرة حياتي، تعرفت إلى رجال كبار في «جمعية الميراث». وقابلت ثلاثة معلّمين، بمن فيهم معلّمي، قادرين على إيصال التحكّم الجسدي إلى مستويات تفوق تصور الإنسان. رأيت معجزات ونبوءات تحقّقت، وإعادة تجسُّد. حدّثني معلمي عن حرب المالوين قبل أن يغزو الأرجنتينيّون الجزر بشهريْن. ووضعها لي بالتفصيل، وشرح لي المسببات الكوكبية لهذا الصراع.

ومنذ ذلك اليوم، اكتشفت أن بعض المجوس الذين، كما قال المعلم، أصبحوا مجانين خلال مسار الإشراق، كانوا شبيهين بالمعلّمين، حتى في قدراتهم. وقد رأيت أحدهم، بفضل تركيزه القوي، يجعل

بذرة تبرعم في خمس عشرة دقيقة. لكن هذا الرجل، وأمثاله، قادوا تلاميذ كثيرين إلى حافة الجنون واليأس. إذ انتهى بعضهم في مستشفى الأمراض النفسية، كما تمّ إثبات قضية انتحار. هؤلاء الرجال موجودون على اللائحة السوداء لجمعية «الميراث»، لكن كان يستحيل وضع رقابة عليهم. وما يزال عدد منهم يتابع نشاطاته إلى الآن.

كل هذه القصة عبرت فكري في أقل من ثانية، أمام منحدر الماء الذي يستحيل عبوره. فكّرت بكل هذا الوقت الذي مشيناه أنا وبتروس معاً. تذكّرت الكلب الذي هاجمني ولم أتسبّب له بأذى. كما تذكّرت افتقار بتروس إلى الانضباط مع الخادم في المطعم، وثمله أثناء حفلة الزواج.

– بتروس، لا يمكنني ان أتسلّق هذا الجدار. لسبب واحد: هو الاستحالة.

لم يُجبني. جلس فوق العشب، وفعلت مثله. بقينا صامتين لربع ساعة. شعرت بأنني أعزل بسبب صمته، وأخذت المبادرة في الكلام من جديد.

– بتروس، لا أريد تسلّق هذا الشلال، لأنني ساهوي معه. أعرف أنني لن أموت، لأنني حين رأيت وجه موتي، رأيت أيضاً اليوم الذي سيحدث فيه إذا كنت وفيّاً لطريقي. لكن سقوطي ممكن، وسيفضي إلى بقائي مشلولاً طوال حياتي.

– باولو، باولو...

نظر إليّ وابتسم. تغيّرت ملامحه كليّاً، وكان الحب الملتهم في صوته واللمعان في عينيه.

– هل ستقول إني أخلّ بقسم الطاعة الذي أوليتك إياه قبل سلوك الطريق؟

– أنت لا تخلّ بأي قسم. لا تشعر بخوف أو بكسل. وبالطبع لا تفكّر أني أسالك أمراً غير مجد. أنت لا تريد تسلّق الشلال، لأنك تفكر بالمجوس السود[1].

إنّ التحكّم بالقدرة على اتّخاذ القرار لا يعني الإخلال بالقسم؛ فهذه القدرة ليست عصيّة على الحجاج.

تأمّلت مسقط الماء، ثم استدرت ناحية بتروس. قدّرت إمكانات التسلّق وكانت معدومة.

ثم أضاف:

– انتبه، ساصعد قبلك دون أن أستعين بأي موهبة، وسانجح. إذا نجحت، فهذا، فقط، لأنني أعرف أين أضع قدمي، وعليك أن تفعل مثلي. وهكذا، الغي قدرتك على اتّخاذ القرار. أما إذا رأيتني أتسلّق جدار المسقط ورفضت، فهذا يعني أنك أخللت بالقسم.

خلع بتروس حذاءه. كان يكبرني بعشر سنوات على الأقلّ، فإذا نجح في التسلّق، فسوف يبطل كلّ حجّة لديّ. نظرت إلى مسقط الماء، وشعرت بالبرد في معدتي.

لكنّه لم يتحرك. خلع حذاءه، وبقي في مكانه. نظر إلى السماء ثم قال:

– على بعد كيلومترات من هنا، ظهرت العذراء على أحد الرعيان عام ١٥٠٢. اليوم يصادف عيدها، عيد عذراء الطريق، وأريد أن أكرّس انتصاري لها. وأنصحك بأن تفعل مثلي، أي أن تكرّس انتصارك لها. لا تقدّم إليها ألم قدميك ولا جراح يديك اللتين

(١) اسم يطلق في «جمعية الميراث» على المعلّمين الذين فقدوا الاتصال السحري بتلاميذهم. كما يستعمل هذا التعبير للإشارة إلى المعلّمين الذين أوقفوا مسار معارفهم، بعد أن هيمنوا على قوى الأرض فقط.

قزحتهما الحجارة. فالعالم أجمع لا يهديها إلا ألم توباته. لا شيء يضير في ذلك، لكني أعتقد أنها ستكون سعيدة لو أن البشر يسلّمونها، بالإضافة إلى عذاباتهم، أفراحهم أيضاً.

لم أكن مستعداً إطلاقاً للكلام. كنت أشكّ في قدرة بتروس على تسلّق هذا الجدار. وقلت في نفسي إن كل هذا مجرّد ملهاة، وإنه، في الواقع، يخدعني بكلمات جميلة ليجبرني لاحقاً على فعل ما لا أريد. ومع ذلك، أغمضت عيني، ورفعت صلاتي لعذراء الطريق، متعهّداً أنني، إذا تمكّنت من تسلّق الجدار، فسأرجع يوماً إلى هذا المكان.

ـ «كل ما تعلّمته حتى الآن لا معنى له، إلا إذا وجدت له تفسيراً. تذكّر أن طريق مار يعقوب هي طريق الناس العاديين. قلت لك ذلك آلاف المرات. على الطريق، كما في الحياة، تغدو الحكمة بلا قيمة، إلّا إذا ساعدت الانسان على تخطّي الحواجز.

«فلا غاية من وجود المطرقة ما لم يكن هناك مسامير لطرقها. لكن وجود المسامير ليس كافياً. ينبغي أن تكون المطرقة موجودة في يد المعلم، وأن يستخدمها تبعاً لوظيفتها».

تذكّرت، عندئذٍ، قول المعلم في «إيتاسيايا»: «من يملك سيفاً فليضعه دوماً قيد الاختبار، لئلا يصدأ في غمده».

ثم قال مرشدي، موضحاً:

ـ المسقط هو المكان الذي يجب أن تطبق من خلاله كلّ ما تعلّمته إلى الآن. هناك أمر لصالحك. أنت تعرف تاريخ موتك، والخوف من الموت لن يشلّك، عندما تحين اللحظة لتتّخذ قراراً سريعاً بشأن الموضع الذي ستستند إليه للوصول بسلام. لكن تذكّر أن عليك الاستعانة بالماء، لأنه هو الذي يمنحك ما تحتاج إليه. لا تنس أن تغرز ظفرك في إبهامك، إذا تملّكتك فكرة سيئة.

وينبغي لك، بشكل خاص، الاتّكال، في كل لحظة من

الصعود، على الحب الملتهم. فهو الذي يقودك، ويبرز كلّ خطوة من خطواتك.

صمت بتروس. تعزى تماماً، وغطس في المياه الباردة للبركة الصغيرة، ثم رفع يديه إلى السماء. شعرتُ أنه كان سعيداً، مستمتعاً برشاش الماء المنعش، وأقواس القزح التي ترسمها نقاط الماء حولنا.

قال، قبل ولوجه ستار الشلال:

ـ «إن مسقط الماء هذا سيعلّمك كيف تكون معلّماً. سأصعد، لكن سيبقى حجاب الماء بيني وبينك، فلن تتمكّن من رؤية موضع قدميّ أو يديّ.

«كذلك فإن التلميذ لا يستطيع أبداً تقليد خطوات مرشده. لكلٍّ طريقته في رؤية الحياة، وفي مواجهة المصاعب وتحقيق الانتصارات. التعليم هو أن تظهر للآخر ما هو قادر عليه، والتعلُّم هو جعل هذا ممكناً».

لم أعلّق بكلمة واحدة. عبر تحت الشلال، وبدأ بالتسلّق. تتبّعت طيفه، كمن يرى أحداً عبر زجاج غير مصقول. تقدّم نحو الأعلى ببطء، ودونما تراجع. وكلّما اقترب من القمة، أحسست بالخوف لاقتراب اللحظة التي ينبغي لي فيها أن أحذو حذوه. وأخيراً، دنت اللحظة الأكثر رعباً: الصمود في وجه الماء الذي يتدحرج، والصعود دوماً. كانت قوّة الشلال قادرة على رميه إلى الأسفل. لكن رأس بتروس طفا، وألبسته المياه المتساقطة معطفاً فضياً. وفجاة، رفع جسده إلى الأعلى متشبثاً بكل قواه بالنجد لكن دائماً داخل الماء. واحتجب عن ناظري لبضع لحظات.

ثم ظهر على الضفّة، وجسده مبلّل ومغمور بنور الشمس. كان يبتسم.

هتف، وهو يشير إلي بيديه:

ـ هيّا، حان الآن دورك.

حان دوري، وإلا وجب التخلّي إلى الأبد عن سيفي.

خلعت ملابسي، وصلّيت من جديد لعذراء الطريق. ثم غطّست رأسي في المياه. كانت مجلّدة، فتشنّج جسدي. لكن راودني، بعد قليل، إحساس لذيذ. ودون تفكير، مشيت قدماً إلى مسقط الماء.

أكسبني تأثير الماء على رأسي الحس العبثي بالواقع. هذا الحس الذي يُضعف الإنسان، حين يكون في أشدّ الحاجة إلى إيمانه وعزيمته. كان الشلال أكثر عنفاً ممّا تصورته، فإذا تلقّيته بصدري فقد يقذف بي إلى الهاوية، حتى وإن كانت قدماي تستندان بعزم إلى قاع البركة. عبرت التيّار، وبقيت بين الصخرة والماء. ركن الجسد إلى مسافة ضيّقة ملتصقاً بالصخرة. بدت لي المهمة أسهل ممّا تصوّرت. أما الجدار الذي بدا مصقولاً من الخارج، فقد كانت تتخلّله، في الواقع، نتوءات عدّة. جُننت لفكرة أنني سأتخلّى عن سيفي خوفاً من صخرة ملساء، فيما الأمر يتعلّق بنوع من الصخور تسلّقته عشرات المرات. بدا لي أنني أسمع صوت بتروس: «هل رأيت، ما إن تحل المشكلة، حتى تصبح بسيطة بساطة مرعبة».

تسلّقت، ووجهي ملتصق بالصخرة الرطبة. اجتزت خلال عشر دقائق، أكثر من نصف الطريق. ولم يتبقّ لي إلا اجتياز قمّة الشلال. وبدا لي أن الانتصار، الذي سأحقّقه خلال هذا التسلّق، لن يفيدني شيئاً إذا لم أتخطّ الجزء الصغير الذي يفصلني عن الهواء الطلق. هنا يكمن الخطر. وفضلاً عن ذلك، فإنني لم أستطع أن أتبيّن جيّداً كيف تجاوزه بتروس. أخذت أصلّي لعذراء الطريق التي لم أسمع بها من قبل، والتي بين يديها أضع الآن إيماني كلّه، وأملي كلّه بالظفر. وضعت شعري بحذر تحت الشلال الهادر.

غمرني الماء وشوّش رؤيتي. شعرت بجبروته. وتشبّثت، بقوة، بالصخرة، وأنا خافض الرأس بشكل أستطيع معه تكوين جيب هواء يمكنني من خلاله التنفس. وثقت تماماً بقدميّ ويديّ؛ يديّ اللتين أمسكتا بالسيف القديم، وقدميّ اللتين اجتازتا طريق مار يعقوب. كانت أطرافي حليفتي الوفية، ولكن صوت الماء أصمّ أذنيّ، وكنت أتنفّس بصعوبة. عندئذٍ، غمست رأسي في التيار. ولبضع لحظات، أضحى كلّ شيء سواداً من حولي. صارعت لأبقى متشبثاً بالنتوءات، لكن بدا لي الصخب وكأنه يجرّني إلى مكان غامض وبعيد، حيث لم يكن لأدنى شيء أيّ أهمية، وحيث أستطيع بلوغه، فقط لو استسلمت لهذه القوة. عندئذٍ، لن يعود الجهد الفائق الذي سأبذله لأبقى ملتصقاً بالصخر، ضرورياً. ذلك أنّ كلّ شيء سيكون سلاماً وراحة.

ومع ذلك، قاومت يداي وقدماي إغواء الموت. بدأ رأسي يطفو ببطء على حجاب الماء، كما دخل. شعرت بحب عميق لجسدي الذي ساعدني في هذه المغامرة المجنونة، مغامرة رجل يجتاز مسقط ماء، بحثاً عن سيفه.

عندئذٍ، رأيت الشمس تلمع فوقي، وشهقت بعمق. أعطاني هذا الفوز دفعاً جديداً. نظرت من حولي، فرأيت على بعد سنتمترات النجد الذي اجتزناه، والذي يشير إلى نهاية السفر. أغراني كثيراً أن أهرع لأتشبث به، لكنني لم ألمح أي دعامة تسمح لي بذلك، جزاء الماء المتساقط. كانت الوثبة الأخيرة عنيفة، لكن لم يحن بعد وقت الانتصار. وكان عليّ أن أتحكّم بخطواتي. كانت تلك اللحظة الحاسمة في مسيرة الصعود؛ المياه تضربني على صدري، وضغطها يهدّد بقذفي نحو الأرض التي تجرأت على الخروج منها مدفوعاً بأحلامي.

لم يكن الوقت مناسباً لأفكّر بمعلمي وأصدقائي. ولم أكن

أستطيع النظر جانباً، لرؤية ما إذا كان بتروس قادراً على إنقاذي في حال انزلاقي. فكرت في أنه قام، حتماً، بهذا التسلّق ملايين المرات، ولا بُدّ من أنّه يعرف أنني أحتاج إلى المعونة بشكل مُلحّ، لكنه تخلّى عني، أو لعلّه لم يتخلَّ عني، بل كان خلفي في وقتٍ لا أستطيع فيه أن أدير رأسي، لأن ذلك يخلّ بتوازني؛ وعليّ، إذن، أن أحقّق انتصاري بنفسي.

ثبتُّ قدميّ وإحدى يديّ بالصخرة، فيما تحرّرت يدي الأخرى باحثة عن الانسجام مع الماء. لم يكن عليها أن تقاوم، لأنني استخدمت أقصى قوّتي. وأصبحت يدي سمكة طليقة تعرف أين عليها التوجّه. تذكرت أفلام طفولتي، حيث تقفز أسماك السلمون في مساقط الماء، لأن عليها، هي أيضاً، بلوغ هدفها.

ارتفعت ذراعي ببطء، مستعينة بقوّة الماء. تحرّرتُ، وكما السلمون في أفلام طفولتي، غطستُ في الماء، بحثاً عن مكان تستند إليه من أجل القفزة النهائية. كانت الصخرة مصقولة بفعل قرون من التآكل. لكن لا بدَّ أن هناك دعامة. وإذا كان بتروس قد نجح، فأنا أيضاً بإمكاني ذلك. واجتاحني ألم فظيع؛ أنا الآن على خطوة من النهاية. وفي اللحظة التي تتعاظم فيها قوة الإنسان، فإنه لا يعود واثقاً بنفسه. سبق لي أن خسرت في اللحظة الأخيرة. اجتزت المحيط سباحة، وكدت أغرق لدى تدفّق الأمواج على الشاطىء. لكنّي الآن على طريق مار يعقوب، وليس بوسع هذه القصة أن تتكرّر إلى ما لا نهاية. يجب الانتصار هذه المرّة.

كانت يدي الحرة تنزلق على الصخرة الملساء، وضغط الماء يزداد قوّة. لم يعد بإمكان أعضائي الأخرى التحمّل أكثر. وكان من الممكن أن تصيبني التشنّجات في أيّ وقت. صفع الماء بعنف أعضائي التناسلية، وشعرت بألم حاد. وفجأة، وجدت يدي الحرّة متّكأ في مكان خارج مسار التسلّق. حفظت ذهنياً موقعه، لأسند

إليه يدي الأخرى التي قادتني نحو الخلاص؛ وجدت على بعد سنتمترات قليلة من المتكأ الأول نقطة أخرى في انتظاري.

هنا الموقع الذي وجد فيه حجاج مار يعقوب متكأ لهم منذ قرون. تشبثت بكل قواي، محرزاً يدي الأخرى. في البداية، قذفتها قوة النهر إلى الوراء، فبلغت أول دعامة. وللحال، تبع جسدي الطريق التي افتتحتها ذراعاي، ووقفت على النجد.

آخر خطوة أنجزت. عبرت التيار. وفوجئت بأن السقوط لم يكن بالوحشية التي تخيلتها، بل مجزد خيط ماء ساكن. رفعت جسدي، واستلقيت على الضفة مستسلماً لتعبي. أدفأت الشمس جسدي. لقد نجحت؛ لا زلت حياً كما كنت عند الأسفل في البركة. وبالرغم من صخب الماء، فإنني سمعت خطى بتروس، وهي تقترب.

أردت أن أنهض، أن أعبر له عن فرحتي، لكن جسدي، الذي أنهكه التعب، لم يطاوعني.

ــ إبق هادئاً. استرخِ، وحاول أن تتنفس ببطء.

هذا ما فعلته. وغرقت في نوم عميق بلا أحلام. عندما استيقظت، كانت الشمس قد انحدرت فوق الأفق. ارتدى بتروس ثيابه، وأعطاني ثيابي، قائلاً إنه علينا مواصلة المسير.

أجبت:

ــ أنا تعب جداً.

ــ لا تهتم، سأعلمك كيف تغترف الطاقة، ممّا يحيط بك.

وعلّمني بتروس «نفس رام».

«نفس رام»

أزفر الهواء من رئتيك قدر ما تستطيع. ثم اشهق ببطء، وأنت ترفع ذراعيك. خلال الشهيق، ركّز لكي يخترق قلبك الحب والسلام والانسجام مع الوجود.

احتفظ بنفسك متوقفاً، وأنت ترفع ذراعيك أطول وقت ممكن، مستمتعاً بالانسجام الداخلي والخارجي، ثم ازفر بسرعة، وأنت تلفظ كلمة رام.

كرّر هذا التمرين لمدّة خمس دقائق.

مارستُ التمرين لمدة خمس دقائق، وشعرت بالتحسّن. نهضت، ارتديت ثيابي، وحملت حقيبة ظهري.

قال لي بتروس:

ــ تعالَ من هنا.

مشيت حتى حافّة النجد. كان الينبوع الصاخب يتدفّق بغزارة تحت قدمي.

قلت:

ــ من هنا، يبدو الأمر أسهل ممّا يبدو من الأسفل.

ــ صحيح. لو أني أظهرت لك هذا المشهد من قبل، لخنت نفسك، وقدّرت إمكاناتك بشكل سيئ.

كنت لا أزال ضعيفاً. كرّرت التمرين. وبعد قليل، شعرت بانسجام تام بيني وبين الكون المحيط بي، وكأنّه اخترق قلبي. سألت بتروس لما لم يعلّمني «نفس رام» من قبل، لأنني غالباً ما شعرت بالتعب والكسل، أثناء السير على طريق مار يعقوب.

أجابني، وهو يضحك:

ــ لأنك لم تقل لي شيئاً عن تعبك أو كسلك.

ثم سألني إن بقي معي بسكويت بالزبدة، كنت قد اشتريته في «أستورغا».

* * *

الجنون

منذ حوالى ثلاثة أيام، ونحن نقوم بسير حثيث. كان بتروس يوقظني قبل شروق الشمس لنبدأ السير. ولم نكن نتوقف إلّا عند التاسعة مساءً. واقتصرت محطاتنا على وجبات الطعام. وقد ألغى مرشدي القيلولة خلال الساعات الأولى بعد الظهيرة. شعرت وكأنَّه يتّبع برنامجاً غامضاً، تعذّرت عليّ معرفته.

ثم إن طريقته في التصرف قد تغيرت تماماً. في البداية، عزوت السبب إلى الشكوك التي أظهرتها إبّان فصل مسقط الماء، ثمّ أدركت أن الأمر ليس كذلك. فقد كان يظهر استياءه أمام الجميع، وينظر إلى ساعته مرّات عدة في اليوم. ذكّرته بكلماته: نحن نخلق بأنفسنا مفهوم الزمن.

فأجابني:

ـ أنت تزداد ذكاءً كلّ يوم. سنرى إذا كنت ستستخدم هذا الذكاء فعلاً، عندما يتطلّب الموقف ذلك.

بعد ظهيرة أحد الأيام، تعبت من الإيقاع المتسارع في المشي، لدرجة أنني فقدت القدرة على القيام بخطوة إضافية واحدة. أمرني بتروس بخلع قميصي، وإسناد عمودي الفقري إلى شجرة قريبة. بقيت بضع دقائق على هذا الوضع. وبعد قليل، أحسست أنني أفضل حالاً. بدأ بتروس يشرح لي منافع النباتات، ولا سيما الأشجار القديمة التي تقدر على نقل الانسجام الذي تحمله في طيّاتها إلى كل من يسند مركزه العصبي إلى جذعها. واسترسل، لساعات، في خطبة عن الخصائص المادية، والقدرات الهائلة والمنشّطة، للنباتات.

لم أهتمّ بتدوين الملاحظات، لأني قرأت ذلك في مكان ما. لكن خطبة بتروس كانت تهدف إلى تبديد شعوري بأنه كان غاضباً منّي. أجللت، عندئذٍ، صمته باحترام أكبر. وربّما حدس هو بقلقي، فحاول أن يظهر من الودّ حيالي، بقدر ما يسمح مزاجه السيّئ في الأيام الأخيرة.

ذات صباح، وصلنا إلى جسر هائل غير متناسق مع خيط الماء الرفيع الذي ينساب تحته. كان ذلك صباح الأحد، وكانت الحانات والبارات في البلدة المجاورة لا تزال مغلقة. جلسنا لتناول الإفطار.

قلت، مفتتحاً الكلام:

ـ للإنسان والطبيعة نزواتٌ مشتركة. فنحن نبني جسوراً جميلة، وتتكفّل الطبيعة بتحويل مجرى النهر!

قال بتروس:

ـ إنه الجفاف. أسرع في تناول شطيرتك. علينا معاودة السير.

قرّرت، أخيراً، أن أسأله عن سبب هذه العجلة.

ـ قلت لك إن وقتاً طويلاً مضى، ونحن لا نزال على الطريق إلى مار يعقوب. لديَّ أشياء كثيرة عليَّ إنجازها في إيطاليا، وينبغي لي العودة باكراً.

لم يقنعني هذا الجواب. لعلّه كان صحيحاً، لكنه، بالتأكيد، لم يكن الحافز الوحيد. ألحَيْتُ في السؤال، لكنه غيَّر مجرى الحديث قائلاً:

ـ ماذا تعرف عن هذا الجسر؟

ـ لا شيء، حتى ولو أخذنا بالاعتبار مسألة الجفاف، فإن أبعاده تبقى غير متناسقة. أعتقد أن النهر قد غيّر مجراه فعلاً.

قال:

ـ لا أملك أدنى فكرة، لكنه يُعرف باسم «ممز الشرف». وهذه الحقول المنتشرة حولنا كانت ميداناً لمعارك دامية بين الفيزيغوط[1] والشفابيين[2]. وشهدت، لاحقاً، معارك بين جنود ألفونس الثالث والمغاربة. وإذا كان الجسر طويلاً بهذا الشكل، فلكيْ يستوعب الدماء التي تجري من تحته، دون أن تغرق المدينة.

كانت هذه دعابة سوداء. لم أضحك. أضاف بتروس، وقد اعتراه القليل من الاضطراب:

ـ ليست جيوش الفيزيغوط ولا صرخات نصر ألفونس الثالث، هما اللتان أطلقتا الاسم على الجسر، بل قصة حب وموت:

«خلال عهود الحجّ الأولى على طريق مار يعقوب، كان يفد من كافة أنحاء أوروبا حجّاج وكهنة ونبلاء، وحتى ملوك، أرادوا تكريم القديس. كما كان يأتي مهاجمون ولصوص وقطّاع طرق. والتاريخ يتحدّث عن حالات لا تحصى من سرقات قوافل بأكملها، وجرائم فظيعة ارتكبت بحقّ الحجّاج الذين يسافرون منفردين».

قلت في نفسي: «التاريخ يعيد نفسه».

«وهكذا قرّر الفرسان النبلاء أن يحموا الحجّاج. وتكفّل كل منهم بحراسة جزء من الطريق. لكن، كما أن الأنهار تغيّر مجراها، فإن مثال الناس أيضاً يتغيّر. بدأ الفرسان، الذين ألقوا الذعر في نفوس اللصوص، يتخاصمون فيما بينهم، لمعرفة من هو الأقوى والأشجع على طريق مار يعقوب. أخذوا يتواجهون ويتبارزون، فيما اللصوص يقومون بأعمالهم على الطرقات دون عقاب.

«دام هذا طويلاً، إلى أن شغف أحد نبلاء مدينة ليون بامرأة عام

---

(١) الفيزيغوط، أو القوط الغربيون، الذين غزوا إسبانيا عام ٤٧٦، حيث أسسوا مملكة دامت حتى الفتح العربي عام ٧١١. اهتدوا إلى المذهب الكاثوليكي نحو عام ٦٠٠.

(٢) الشفابيون: إثنية حول مدينة شتوتغارت، تقاتلت مع الفيزيغوط.

١٤٣٤. كان يدعى دون سويرو دو كينيونس، وهو ثري نافذ. حاول بكافة الوسائل أن يتزوّج السيدة، لكن المرأة، التي لم يحتفظ التاريخ باسمها، لم تأبه إطلاقاً لشغفه الكبير، ورفضت طلبه».

تشوّقت لأعرف الصلة بين حب غير متبادل، والخصام بين الفرسان الجوّالين. لاحظ بتروس اهتمامي، ووعدني أن يخبرني بقية القصة، شرط أن أنهي شطيرتي دون إبطاء، وأن نعاود المسير فوراً.

قلت:

ـ لكأنك أمي، عندما كنت صغيراً.

لكني التهمت بقية الخبز. ثم حملت حقيبة ظهري، وبدأنا باجتياز المدينة الصغيرة النائمة.

أكمل بتروس قصته:

«جُرح فارسنا في عنفوانه الشخصي، وقرّر أن يفعل ما يفعله جميع الناس، عندما يشعرون أنهم منبوذون: الشروع في حرب خاصة. أقسم أنه سيقوم بمأثرة هامة جداً، بحيث لا تنسى الآنسة اسمه أبداً. أخذ يفتش، لمدة شهر، عن مثال يكرّس من أجله هذا الحب المطعون. وذات مساء، سمعهم يتحدّثون بالجرائم والصراعات الجارية على طريق مار يعقوب، فخطرت له الفكرة.

«جمع عشرة من أصدقائه، وأقاموا في هذه البلدة التي نجتازها. أشاع بين الحجّاج، الذين يمرون من هنا، أنّه مستعدّ للبقاء ثلاثين يوماً، وتحطيم ثلاثمئة سيف، ليثبت أنه الأقوى والأشد بسالة بين كل فرسان الطريق. أقام مع أصدقائه مخيّماً، وحشدوا الأعلام والرايات والخدم، وانتظروا أن يأتي الفرسان لتحدّيهم».

بدأتُ أتخيّل الاحتفالات التي تقام: خنازير مشوية، نبيذ بحسب الطلب، موسيقى، قصص وألعاب. تراءى أمامي مشهد كامل.

وأضاف بتروس:

ـ «بدأت مبارزات الفروسية في ١٠ يوليو، عند وصول الفرسان الأوائل: كان كينيونس وأصدقاؤه يحاربون نهاراً، ويقيمون الاحتفالات الكبرى ليلاً. وكانت المبارزات تجري دوماً فوق الجسر، حتّى لا يستطيع أحد الهرب. في فترة ما، ازداد عدد المقاتلين كثيراً، بحيث أن النيران كانت تبقى مشتعلة حتى الصباح. وأُجبر الفرسان المهزومون على التعهّد أنهم لن يتقاتلوا فيما بينهم، وأن تقتصر مهمتهم، من الآن فصاعداً، على تأمين الحماية للحجّاج حتى يبلغوا كومبوستيلا.

«ما هي إلّا أسابيع قليلة، حتى عمَّت شهرة كينيونس في أرجاء أوروبا. وجاء لتحدّيه، بالإضافة إلى فرسان الطريق، جنرالات وجنود ولصوص، كانوا يعرفون تماماً أنّ من يستطيع إلحاق الهزيمة بفارس ليون الشجاع، يصبح مشهوراً بين ليلة وضحاها. وفيما كان الآخرون يسعون خلف الشهرة، وضع كينيونس، نصب عينيه، هدفاً أنبل: حبّ امرأة. وهذا المثال جعله يخرج منتصراً من كل المعارك.

«في التاسع من شهر أغسطس، انتهت المبارزات، وتمّ تكريس دون سويرو واحداً من أشجع الفرسان، وأقواهم على الإطلاق. ومنذ ذلك اليوم، لم يجرؤ أحد على الشكّ في شجاعته الكبيرة. وعاد النبلاء إلى مواجهة عدوّهم الوحيد المشترك: اللصوص الذين يهاجمون الحجّاج على الطريق الكبيرة. وقد أدّت هذه الملحمة، لاحقاً، إلى تشكيل الفرقة العسكرية لمار يعقوب، حامل السيف».

اجتزنا البلدة. أردت أن أقوم بنصف استدارة، لألقي نظرة على «ممر الشرف»، أي الجسر الذي جرت عليه هذه القصة، لكن بتروس قرّر أن نتابع المسير.

سألت:

ـ وماذا حصل لدون كينيونس؟

ـ ذهب إلى «سانتياغو دو كومبوستيلا»، ووضع في المذخر عقداً ذهبياً، يزيّن الآن عنق مار يعقوب الأكبر.

ـ أسأل إن كان تزوج السيدة أخيراً...

قال بتروس:

ـ آه، هذا أمر أجهله. في تلك الفترة، لم يكتب التاريخ إلا الرجال. ثم إنه، حيال مشاهد المعارك التي لا تُحصى، من ذا الذي سيهتم بقصّة حب؟!؟

قال مرشدي هذه الكلمات، ثم رجع إلى صمته المعهود. ومشينا ليومين وأكثر بصمت، دون أن نتوقّف تقريباً، أو نرتاح.

في اليوم الثالث، اعتمد بتروس، في مشيه، إيقاعاً بطيئاً، بشكل غير عادي. قال إنه كان تعباً، جزاء الجهد الذي بذله طوال أسبوع، وإن سنّه ولياقته البدنية لم تعودا تسمحان له باتّباع الإيقاع السابق. مرةً أخرى، كنت متيقّناً أنه لا يقول الحقيقة. وكان وجهه، بالإضافة إلى الإرهاق، يعكس قلقاً عميقاً، وكأنّ أمراً خطيراً على وشك أن يحدث.

بعد الظهيرة، وصلنا إلى «فونسبادون»، وهي بلدة كبيرة، لكن خَربة تماماً. كانت البيوت حجرية، أمّا سقوفها، فمن الأردواز الذي دمّره الزمن، في حين أن خشب العوارض قد تعفّن. كانت البلدة تشرف، من إحدى الجهات، على هاوية سحيقة. وكان وراء التلة الماثلة أمامنا أحد أقدس الأماكن على طريق مار يعقوب: صليب الحديد.

هذه المرّة، أنا من كان متلهّفاً لبلوغ هذا النصب الغريب، المؤلّف من جذع يبلغ ارتفاعه مترين، ويعلوه صليب حديدي. أقيم الصليب أيام اجتياح قيصر، تكريماً للإله عطارد، بحسب التقليد الوثني. وجرت العادة أن يضع الحجاج هناك حجارة منقولة من مكان بعيد. فاستغللت كثرة الصخور في هذه المدينة المهجورة، ولملمت عن الأرض قطعة أردواز.

وإذ، صمَّمتُ على حثّ الخطى، لاحظت أن بتروس كان يتباطأ أكثر فأكثر في مشيته، متفحصاً البيوت الخَربة، مفتّشاً بين جذوع الأشجار الميتة وذخائر الكتب، إلى أن جلس وسط الساحة، حيث يرتفع صليب خشبي.

اقترح:

ـ فلنسترحْ قليلاً.

كان الوقت لا يزال نهاراً. وحتى إن بقينا هنا ساعةً، فسيكون لدينا الوقت للوصول إلى صليب الحديد قبل هبوط الليل. جلست قربه، وتأملت المنظر المقفر: الناس الذين يغيّرون أمكنتهم، البيوت المتينة التي كانت مأهولة لوقت طويل قبل أن تتهدّم.

كان المكان رائعاً تُضفي عليه الجبال في الخلف، والوادي في المقدّمة، جمالاً ملحوظاً. وتساءلت عن السبب الذي ترك من أجله كلّ هؤلاء الناس مكاناً كهذا.

سألني بتروس:

ـ هل تعتقد أن دون سويرو كان مجنوناً؟

وكنت قد نسيت من هو دون سويرو، وكان على بتروس أن يذكّرني بممر الشرف.

أجبت:

ـ أجل، أعتقد أنه كذلك.

مع أني كنت أشكّ في صحّة جوابي.

ـ «وهو كذلك، وأيضاً الراهب ألفونسو الذي التقيته، وأنا أيضاً، ذلك أنني أظهر هذا الجنون في الرسوم التي أنفّذها. وحتى أنت، الذي يفتش عن سيفه. إننا جميعاً نملك في داخلنا شعلة الجنون المقدّسة الحارقة، التي يغذّيها الحب الإلهي.

«ولا يحتاج ذلك إلى غزو أميركا، أو التحدّث مع العصافير، كما

كان يفعل مار فرنسيس الأسيزي. إن بائع الخُضَر القابع على الناصية، بإمكانه أن يحترق بالشعلة المقدّسة للجنون، إذا كان يُحبّ عمله. فالحب الإلهي موجود بشكلٍ يتخطّى معه المفاهيم البشرية، وهو مُعدٍ، لأن الجميع متعطّشون إليه».

ذكّرني بتروس بأنني أستطيع إيقاظ الحب الإلهي، بفضل تمرين «الكرة الزرقاء»، لكن، لكي يتفتح الحب الإلهي، لا ينبغي أن أخاف تغيير مجرى حياتي. إذا كنت أحبّ ما أفعله، فهذا ممتاز، وإلا فالوقت ملائم دوماً للتغيير. وإذا تركت التغيير يحدث، أتحوّل إلى أرض خصبة، تاركاً للخيال المبدع أن ينشر فيَّ بذوره.

ـ «إن كلّ ما علّمتك إياه، بما فيه الحب الإلهي، لا معنى له، ما لم تكن راضياً عن نفسك. وإذا لم تكن راضياً، فإن التمارين، التي لقّنتك إياها، تقودك إلى الرغبة في التغيير حتماً. ولكي لا ترتدّ التمارين عليك، ينبغي أن تفسح في المجال لحدوث التغيير في حياتك. إنها اللحظة الأصعب في حياة الإنسان: أن يعي أهمية «الجهاد الحسن»، لكنه يشعر أنه عاجز عن خوضه، لأنه عاجز عن تغيير حياته. عندئذٍ، ترتدّ المعرفة على مالكها».

نظرت إلى مدينة «فونسبادون». لعلَّ هؤلاء الناس أحسّوا بالرغبة الجماعية في التغيير. سألت بتروس هل اختار هذا المكان، عمداً، ليقول لي ذلك.

أجاب:

ـ «لا أعرف ما حصل هنا بالضبط. فالناس يضطرون، دوماً، إلى تقبُّل التغيير الذي يفرضه القدر، لكني لا أتحدّث بهذا، بل أتحدّث بعمل إراديّ، ورغبة حقيقية لمحاربة كلّ ما لا يرضيك في حياتك اليومية.

«خلال وجودنا، تواجهنا، دوماً، مشاكلُ صعبة: اجتياز شلّال، مثلاً، دون أن تهوي... عندئذٍ، عليك أن تترك العنان لخيالك المبدع.

في مثل حالتك، كانت هناك مسألة حياة أو موت. ولم يكن الوقت ملائماً للتردد: لقد أشار الحب الإلهي إلى الطريق الوحيدة.

إلا أن ثمة مسائل تجبرنا على اختيار طريق من طريقين، وهي تتعلّق بمشاكل تعترضنا كلّ يوم، كاتّخاذ قرار مهني، أو قطيعة عاطفية، أو لقاء اجتماعي. إن كلاًّ من هذه القرارات الصغيرة يمكنه أن يعني خياراً، فيه مسألة موت أو حياة. عندما تخرج من بيتك صباحاً لتذهب إلى عملك، عليك أن تختار بين وسيلة نقل توصلك سليماً معافى إلى باب مكتبك، ووسيلة أخرى تعرّض ركّابها لحادث يتسبّب بموتهم. أنظر كيف أن قراراً بسيطاً يمكن أن يتوقّف عليه مصير إنسان.

جعلني كلام بتروس أفكّر بقراري: لقد اخترت طريق مار يعقوب، بحثاً عن سيفي. إن سيفي هو هدفي الأهمّ، وعليَّ العثور عليه، كيفما اتّفق. كان عليَّ، إذن، اختيار القرار الصحيح.

أفضيت إلى بتروس بالسرّ الذي كان يشغلني، فقال:

ـ إن الوسيلة الوحيدة لاتّخاذ القرار الصحيح، هو الاعتراف بالقرار الخاطئ: تفحّص مليّاً الطريق الأخرى، دون خشية ولا اعتلال، ثم اختر.

عندئذٍ، علّمني بتروس تمرين الظلال.

قال بتروس، بعد أن شرح لي التمرين:

ـ إنّ مشكلتك هي سيفك.

وافقته الرأي.

ـ قُمْ، إذن، بهذا التمرين الآن. سأذهب للقيام بجولة. وعند رجوعي، سأراك قد عثرت على الحل الصحيح. أعرف ذلك.

تذكّرت عجلة بتروس في الأيام الأخيرة، وحوار المدينة المهجورة، لكأنه يفتّش عن كسب الوقت، ليتّخذ، هو أيضاً، القرار الصحيح.

تمرين الظلال

استرخِ لمدّة خمس دقائق، وراقب، من حولك، ظلال الأشياء والكائنات. ثم حاول معرفة الجزء الذي ينعكس من الأشياء أو الأشخاص.

تابع على هذا النحو، خلال الدقائق الخمس الأولى. لكن، في الوقت نفسه، احصر انتباهك بمشكلتك التي ترغب في حلّها، وادرس كلّ الحلول غير الملائمة المتعلّقة بها. وأخيراً، انظر، خمس دقائق، إلى الظلال، وادرس الحلول الملائمة التي بقيت. فنّدها واحداً واحداً، حتى يبقى الحل الصحيح الوحيد لمشكلتك.

استعدت شجاعتي، ومارست التمرين.

مهّدت بالتمرين المتعلّق بـ «نفس رام» لكي أضع نفسي في حالة انسجام مع ما يحيطني. ثم نظرت، ربع ساعة، إلى الظلال المترامية حولي: ظلال البيوت الخربة، الحجارة، الأخشاب، الصليب القديم المنتصب خلفي. عندما راقبت الظلال خلال الدقائق العشر الأولى، فهمت أن من الصعب معرفة أيّ جزء فيها كان معكوساً. فأنا لم أفكر بذلك من قبل. فقد تحوّلت بعض العوارض المستقيمة أشكالاً مقرنة، واتخذت صخرة غير متناسقة شكلاً مستديراً لدى انعكاسها. لم يصعب عليّ التركيز، لأن التمرين سحرني. عندئذٍ، درست الحلول غير المناسبة لإيجاد سيفي. عبرت خاطري أفكار لا تحصى: منذ فكرة استقلال الحافلة للذهاب إلى «كومبوستيلا» حتى فكرة الاتصال بزوجتي وممارسة ابتزاز عاطفي عليها لتدلّني على المكان الذي وضعته فيه.

عندما رجع بتروس، ابتسمت.

— ماذا إذن؟

قلتُ، ممازحاً:

— اكتشفت طريقة أغاتا كريستي في كتابة القصص البوليسية. كانت تحوّل الفرضية الأسوأ إلى فرضية صحيحة. كانت، حتماً، تعرف تمرين الظلال.

سألني بتروس، عن مكان سيفي.

— أريد، أولاً، أن أصف لك الفرضية غير الصحيحة التي كوّنتها وأنا أنظر إلى الظلال: السيف غير موجود على طريق مار يعقوب.

— أنت عبقريّ!! اكتشفت أننا نمشي طوال هذا الوقت بحثاً عن سيفك! اعتقدت أنهم قالوا لك ذلك في البرازيل.

وتابعتُ:

— إنه محفوظ في مكان لا تستطيع زوجتي بلوغه، فاستنتجت

من ذلك أنه موجود في مكان علني، ولكن بطريقة لا يمكن معها رؤيته مباشرة.

لم يضحك بتروس هذه المرة. وأضفتُ:

— وبما أن من المحال أن يكون في مكان مزدحم بالناس، فهو، إذن، في مكان شبه مقفر. ولئلّا يلاحظ الأشخاص القليلون، الذين يرونه، الفرق بين سيفي وسيف إسباني نموذجي، فهو موجود، إذن، في مكان لا يعرف الناس فيه التمييز بين مختلف أنماط السيوف.

— هل تعتقد أنه هنا؟

— لا، ليس هنا. إنه لخطأ فادح القيام بهذا التمرين في المكان الذي يوجد فيه السيف. هذه الفرضية تخلّيت عنها في الحال. لكن لا بدّ أنه موجود في مدينة كهذه، لكن غير مهجورة، لأن سيفاً في مدينة مهجورة يجذب انتباه الحجاج والمتنزهين.

قال بتروس:

— جيّد جداً.

ولاحظت أنه كان فخوراً بي، وبالتمرين الذي علّمني إياه.

قلت مصرّاً:

— شيء واحد بعد...

— ما هو؟

— المكان الأسوأ لوجود سيف أحد الإخوان، هو المكان الدنيوي. يجب أن يكون، إذن، في مكان مقدّس، في إحدى الكنائس مثلاً، حيث لا أحد يجازف بسرقته.

أقول باختصار، إن سيفي موجود في كنيسة صغيرة قرب سانتياغو، على مرأى من الجميع، ولكن بطريقة لا يلفت فيها الأنظار. من الآن فصاعداً، سأزور كل كنائس الطريق.

اعترض بتروس:

— لن يكون هذا ضرورياً. عندما يحين الوقت، ستتعرف إليه.

لقد نجحْتُ.

ـ اسمعْ بتروس، لمَ مشينا بهذه السرعة من قبل؟ ولمَ نتمهل الآن في مدينة مهجورة؟

ـ ما هو القرار الأسوأ برأيك؟

نظرت إلى الظلال بلمحة بصر. لقد كان على حقّ. فنحن لم نات إلى هذا المكان مصادفة.

اختفت الشمس خلف الجبال، لكن ضياءً حيوياً استمرَّ حتى هبوط الليل. كانت أشعته تنعكس أيضاً على صليب الحديد، الصليب الذي أردت رؤيته، والذي يبعد، من هنا، بضع مئات من الأمتار. كنت أريد أن أعرف أسباب هذا الانتظار. مشينا بسرعة كبيرة طوال الأسبوع. ووجدت أن الدافع الوحيد لذلك هو الوصول إلى هنا، في هذا اليوم، وفي هذه الساعة تحديداً.

حاولت أن أفتح الحوار لقضاء الوقت ليس إلّا. ولكن بتروس كان متوتراً ومركزاً. رأيته عدّة مرات سيّئ المزاج، لكن لم يسبق لي أن رأيته متوتراً. وفجأة، تذكرت أنه كان متوتراً ذات مرة حين كنا نتناول إفطارنا في قرية نسيت اسمها، قبل وقت قليل من اللقاء بـ ...

رفعت نظري. كان هنا... الكلب.

الكلب، العنيف الذي طرحني أرضاً. الكلب الجبان الذي انطلق مهرولاً في المرة الثانية. وعد بتروس بمساعدتي خلال لقائي المحتمل بالكلب. استدرتُ نحوه. لم يكن قربي أحد.

ظلّت عيناي مسمّرتين في عينيْ الحيوان، فيما فتّشت سريعاً عن وسيلة لمواجهة الوضع. لا أحد منّا قام بأدنى حركة. وفكرت للحظة بمبارزات الوسترن في المدن الموحشة. لم يفكر أحد في تصوير مشهد مبارزة بين رجل وكلب، فهذا غير معقول! ومع

ذلك، بتُ، الآن، أعيش، في الواقع، ما بدا في الخيال غير معقول.

أمامي هنا جوقةُ الشياطين، إنهم كثر. وقربي بيت مهجور. فلو بدأت بالركض، فسوف أتمكن من تسلّق السقف دون أن تتمكن جوقة الشياطين اللحاق بي، فهي سجينة جسد كلب، وإمكانياته.

تخلّيت عن الفكرة بسرعة، فيما ظلّت عيناي مسمّرتين في عيني الكلب. لمرّات عدة أثناء الطريق، أرعبتني هذه اللحظة، وها قد وافت. قبل العثور على سيفي، عليَّ مقابلة عدوّي والقضاء عليه، أو التعرّض للهزيمة. لم يتبقَّ لي إلّا مواجهته. فإذا هربت، في هذا الوقت، فسأقع في الفخ ولن يعود الكلب، وسوف يساورني الخوف حتى «سانتياغو دو كومبوستيلا»، كما سأحلم، لاحقاً، ليالي بأكملها بالكلب، خائفاً من ظهوره ثانية، لا بل لبقيت مرتعشاً من شدّة الخوف طوال حياتي.

وفيما كنت أفكر، أقدم الكلب على حركة باتجاهي. عندها، ركزتُ، وتهيّأت للصراع الذي سيبدأ. هرب بتروس، وبقيت وحدي. خفت. ما إن خفت، حتى بدأ الكلب بالتوجّه نحوي، قابعاً بصوت خافت. كان قباعه المضبوط أكثر تهويلاً بكثير من النباح القوي، فازداد خوفي. خمّن الكلب ضعفي في عينيّ، فارتمى فوقي.

كان كأنه صخرة لطمت صدري. فوقعتُ أرضاً. تذكرت، بشكل غامض، أنني كنت أعرف موتي، وأنه لن يوافيني بهذه الطريقة. لكن الخوف تعاظم لديَّ، ولم أنجح في السيطرة عليه. صارعت فقط، لأحمي وجهي وعنقي. ثمّة ألم كبير في فخذي جعلني أنقبض، وأدركت أن لحمي قد نُهش. رفعت يدي عن رأسي، ووضعتها على جرحي. استغل الكلب الظرف، مهيئاً للهجوم على وجهي، فامسكت بيدي حجراً، وضربتُ الحيوان بكل ما في الباس من قوة.

ابتعد الكلب قليلاً، والذهول في عينيه يفوق آلام جرحه. نجحت في النهوض، وتراجع هو قليلاً، لكن الحجر الملطّخ بالدم أمدّني بالشجاعة. كان احترامي المغالى فيه لعدوّي فخاً. لم يكن الحيوان أكثر شجاعة منّي. ربّما كان أكثر خفّة ورشاقة، لكنه ليس أكثر قوّة، فأنا أثقل وزناً، وأكبر حجماً منه. تضاءل خوفي، بيد أنني فقدت السيطرة على نفسي، وبدأت أزعق، والحجر في يدي. تراجع الحيوان، ثمّ توقّف فجأة.

كان كأنّه يقرأ أفكاري: ففي غمرة يأسي، أحسستني قوياً، ورأيت أن من المضحك التصارع مع كلب. اجتاحني إحساس مفاجىء بالقوة. وبدأت ريح ساخنة تعصف في هذه المدينة المقفرة. شعرت بسأم عظيم من مواصلة هذا الصراع. ففي النهاية، يكفي تسديد الحجر إلى رأس الكلب كي يُهزم. أردت أن أضع حدّاً لهذه القصة، وأعنى بجرح ساقي، وأنتهي من تجربة السيف العبثية هذه، وطريق مار يعقوب الغريبة.

كان هذا أيضاً فخّاً آخر. قام الكلب بقفزة، وطرحني من جديد أرضاً. نجح هذه المرة في تجنّب الحجر بمهارة، وعضّ يدي لكي أفلت الحجر. أخذت أوجه له الضربات بيدي الفارغة، لكن دون أن أسبّب له أذى جسدياً. وراح يمزّق بمخالبه المسنونة ملابسي وذراعي، وفهمت أن المسألة مسألة وقت ليس إلا: قليلاً، ويهيمن عليّ كلياً.

وفجأة، سمعت صوتاً في داخلي يقول إن سماحي له بالهيمنة عليّ سيوقف الصراع، وسأخرج منه سليماً: مهزوماً، لكن حياً. كانت ساقي تؤلمني، بل جسدي كلّه الذي أصابته الخدوش المحرقة. أصرّ عليّ الصوت بأن أتخلى عن الصراع، فعرفته. إنه صوت أستران «رسولي». توقّف الكلب قليلاً، وكأنه، هو أيضاً، سمع الصوت. ومرةً أخرى، رغبت في التخلّي عن كلّ شيء؛ ذلك أن أستران قال لي إن أناساً كثيرين في هذه الحياة لا يجدون سيفهم.

ما الفرق إذن؟ ما أردته هو الرجوع إلى بيتي، ولقاء زوجتي، وإنجاب الأولاد، والقيام بالعمل الذي أحب. فلأكفّ عن هذه السخافات كلّها، وعن هذه المواجهات مع الكلاب، وتسلّق مساقط المياه! هذه هي المرة الثانية التي أستشعر فيها ذلك. لكن الرغبة الآن، أقوى، ولديّ يقين بأنني سأستسلم في الدقيقة المقبلة.

لفتت ضجة على الطريق انتباه الحيوان. كان أحد الرعيان يسوق قطيعه إلى الحقول. وتذكّرت أنني رأيت هذا المشهد من قبل، قرب خرائب قصر قديم. عندما لاحظ الكلب الخراف، انفصل عني، وتحضّر للهجوم عليها. كان هذا خلاصي.

بدأ الراعي بالصراخ، وتفرّق القطيع مهرولاً. وقبل أن يبتعد الكلب، قاومت أكثر، لكي أترك للبهائم الوقت لتهرب، وأمسكت بإحدى قدمي الكلب. كان يحدوني أمل جنوني بأن يأتي الراعي إلى نجدتي واستعدت، للحظة، الثقة بسيفي، وبقدرة «رام».

حاول الكلب أن يتحرّر من قبضتي. لم أغدُ ذلك العدوّ، بل غدوت المزعج الذي يمنعه من بلوغ ما يريده، وهو الخراف. تشبّثت بقدم الحيوان، منتظراً راعياً لا يأتي، وخرافاً لا تهرب.

لقد أنقذتني هذه اللحظة، إذ انبثقت قوة هائلة فيّ، ولم يكن وهم القوة هو الذي يسبّب السأم أو الرغبة في الاستسلام. تمتم أستران من جديد: عليّ دوماً مواجهة العالم بالأسلحة ذاتها التي تتحدّاني، ولا يمكنني أن أواجه كلباً، إلّا إذا صرت كلباً مثله.

كان هذا هو الجنون الذي حدّثني عنه بتروس في ذلك اليوم. أظهرت أنيابي، وقبعت بصوت خافت، وحقدي ينفجر من خلال الأصوات التي أطلقها. وبلمحة بصر، رأيت وجه الراعي المذعور، والخراف التي تخشاني قدر خشيتها الكلب.

فهمتْ جوقة الشياطين هذا وخافت. عندئذٍ، أجهزت على

خصمي. كانت هذه المرة الأولى منذ بدء المعركة. لقد هاجمت بأنيابي وأظافري، محاولاً أن أنهش الكلب في رقبته، تماماً كما خشيت أن يفعل بي من قبل: حدثتني رغبة عظيمة في داخلي للظَفَر، ولم يعد لكلّ ما عداه أهمية. ارتميت على الحيوان، ورميته أرضاً. تخبط ليتحرر مني، وانغرزت أظافره في لحمي؛ لكني غرزت، أنا أيضاً، أظافري في لحمه، وعضضته.

نظر إليّ الكلب برعب. فالآن، صرتُ أنا الكلب، وتحوّل هو إنساناً. واعتمل في داخله خوف يشبه خوفي القديم، لدرجة أنني، بعد أن تحرز مني، استطعت اللحاق به، وسجنه في بيت مهجور، خلف جدار صغير من الأردواز، حيث الهاوية، وحيث لا وسيلة للهرب. كان الكلب إنساناً ذاهباً ليلتقي وجه موته.

وفجاة، أدركت أن شيئاً ما لا يسير على ما يرام. كنت قوياً إلى حدٍّ بعيد صار معه تفكيري غائماً: رأيت وجه غجري، وصوراً غامضة تحيط بهذا الوجه. صرتُ أنا نفسي جوقة من الشياطين. وهنا تكمن قدرتي. تركَتِ الجوقةُ هذا الكلب المسكين المذعور الذي سيرتمي، بين لحظة وأخرى، في الهاوية، ودخلَتِ فيَّ. شعرت برغبة جامحة في تقطيع الحيوان الأعزل إرباً.

تمتم أستران: «أنت الأمير، وهم جوقة الشياطين». لكني لم أشأ أن أكون أميراً. كذلك سمعت، من بعيد، صوت معلّمي يقول لي بإلحاح إن لديَّ سيفاً، ويجب العثور عليه. يجدر بي أن أقاوم أكثر، وألّا أقتل هذا الكلب.

أكّدت نظرة الراعي ما كنت أفكر فيه. كان خائفاً مني أكثر من الكلب. شعرت بالدوار، وبالمشهد يترنّح أمامي. لا يجدر بي أن يُغمى علي، وإلا انتصرت جوقة الشياطين. عليّ إيجاد حلّ. فأنا لم أعد أتصارع مع الحيوان، لكن القوة تملّكتني. شعرت بساقيّ تصطكان، استندت إلى حائط، فانهار تحت ثقلي، وسقطتُ وسط الحجارة وقطع الأخشاب، وقد التصق وجهي بالأرض.

أجل، الأرض. صارت جوقة الشياطين هي الأرض وثمار الأرض، الصالحة منها والفاسدة، لا فرق: كانت الأرض منزل الجوقة التي تحكم العالم، أو تخضع له، لا فرق. تفجّر الحب الإلهي في داخلي، وغرزت أظافري في التراب بكلّ ما أوتيت من قوّة. أطلقت صرخة تشبه تلك التي سمعتها، حين التقيت الكلب لأوّل مرة. شعرت أن جوقة الشياطين تخترق جسدي، وتخرج منه منحدرة إلى التراب، لأن الحب الإلهي كان في داخلي، ولأن الشياطين لم تُخلق لتفنى في الحب الملتهم. كانت هذه إرادتي، الإرادة التي جعلتني أصارع الإغماء، إرادة الحب الإلهي المثبت في نفسي، المقاوِم. وارتجف كل جسدي.

أخذت أتقيأ، لكني أحسست أن الحب الإلهي كان يكبر فيّ، ويخرج من كل مسامي. واصل جسدي ارتجافه حتى اللحظة التي عرفت فيها أن جوقة الشياطين عادت إلى مملكتها.

جلست أرضاً، جريحاً منسحقاً. رأيت أمامي مشهداً غريباً: كلباً مدمًى يهزّ ذنبه، وراعياً مذعوراً ينظر إليّ.

قال الراعي، وقد رفض تصديق ما يراه:

ـ لا بدّ أنك أكلت شيئاً. الآن وقد تقيأت، فسوف ترتاح.

أومأت برأسي موافقاً. شكرني، لأني سيطرت على «كلبي»، وتابع طريقه برفقة خرافه.

اقترب مني بتروس صامتاً. اقتطع خرقة من قميصه، لفّها حول ساقي التي تنزف بقوّة. طلب مني أن أحرّك أعضائي وجسدي، واستنتج أن جراحي لم تكن بهذه الجسامة.

قال مبتسماً:

ـ منظرك مخيف.

رجع إليه مزاجه الجيد النادر، وقال:

ـ إن الذهاب لزيارة صليب الحديد مستحيل اليوم، في مثل هذه الظروف. قد يكون هناك سيّاح، وسوف تخيفهم بمنظرك.

لم أقم بردّة فعل. نهضْتُ. نفضت الغبار عن ملابسي، ملاحظاً أن في مستطاعي المشي. اقترح عليّ بتروس أن أقوم قليلاً بالتمرين المتعلّق بـ «نفس رام». وحمَلَ حقيبتي. استعدتُ الانسجام مع العالم بفضل التمرين. بعد نصف ساعة، سأصل إلى صليب الحديد.

وذات يوم، ستنبعث «فونسبادون» من خرابها، فجوقة الشياطين تركت فيها الكثير من قدرتها.

* * *

الأمر والطاعة

وصلت إلى الصليب الحديدي، مستنداً إلى بتروس، لأنّ ساقي الجريحة لا تسمح لي بالمشي وحدي. عندما استنتج مرشدي بتروس فداحة الأذى الذي ألحقه الكلب بي، قرّر أن أخلد للراحة، حتى أسترد قواي، بشكل يؤهّلني متابعة طريق مار يعقوب. قريباً من المكان، كانت هناك ضيعة تشكّل ملجأ للحجاج الذين داهمهم الليل. ووجد بتروس غرفتين، عند حدّاد، فأقمْنا فيهما.

كان لشقّتي شرفة، وبناء الشرفة ثورة هندسية انطلقت من هذه القرية وعمّت جميع أنحاء إسبانيا في القرن الثامن. لمحْتُ سلسلة الجبال التي عليّ تسلقها عاجلاً أم آجلاً، قبل الوصول إلى مار يعقوب. تهاويت فوق سريري، ولم أستيقظ إلا في صباح اليوم التالي، محموماً، لكن طيّب المزاج.

ذهب بتروس لإحضار الماء من سبيل يدعوه ساكنو القرية: «البئر التي لا مقر لها»، ونظّف جراحي. بعد الظهر، رجع بصحبة امرأة عجوز تسكن في الجوار. فوضعا أعشاباً مختلفة فوق الخدوش، وأجبرتني العجوز أن أشرب مغلياً مرّاً.

كلّ يوم، وحتى تختم الجروح، أجبرني بتروس على لعقها. كنت أشعر دائماً بطعم الدم المشبع بحلاوة يخالطها مذاق معدني كان يثير غثياني. لكن مرشدي أكّد أن الريق هو أقوى مطهّر، وأن هذا سيساعدني على محاربة أي التهاب مُحتمل.

في اليوم الثاني، عاودتني الحمى، وأجبرني بتروس والعجوز على

شرب المغلي من جديد، وغطّيا الجراح بمرهم جديد للأعشاب. لكن حرارة جسمي، مع أنها لم تكن مرتفعة، لم تنخفض. عندئذٍ توجَّه مرشدي إلى قاعدة عسكرية في الجوار، ليأتي بضمادات، لأنه لم يجد في القرية كلها شاشاً، ولا لصقة مشمّعة، لتضميد الجرح.

بعد انقضاء بضع ساعات، رجع مع الضمادات، يصحبه طبيب عسكري شابّ، كان يريد أن يعرف مكان الحيوان الذي عضّني.

قال الطبيب العسكري، بلهجة رصينة:

ـ إذا تفحصنا الجرح، فسوف يتبيّن لنا أن الكلب مسعور.

أجبته:

ـ لا، إطلاقاً. كان الأمر مجرّد لعبة تخطّت الحدود. فأنا أعرف الحيوان منذ وقت طويل.

لم يكن الطبيب مقتنعاً. أراد أن يحقنني بلقاح مضاد لداء الكلَب. ورأيتني مجبراً على قبول ذلك، تحت طائلة نقلي إلى مستشفى القاعدة. ثمَّ سألني، مرة أخرى، عن مكان الحيوان الذي نهشني.

أجبته:

ـ في «فونسبادون».

وقال بلهجة الإنسان العارف، الذي يكتشف الكذب سريعاً:

ـ «فونسبادون» مدينة متهدّمة. ولا كلاب شاردة فيها.

بدأت أطلق بعض التأوهات المصطنعة. وقاد بتروس الطبيب إلى خارج الغرفة، بعد أن ترك لنا كلّ ما نحتاج إليه من ضمادات نظيفة ولصقات مشمّعة ومرهم لختم الجروح.

لم يستعمل بتروس ولا العجوز المرهم. ضمّدا الجروح بالشاش المضمّخ بالأعشاب. كنْتُ سعيداً جدّاً، لأنني لم أعد ملزماً بلعق جروحي. في الليل، كانا يركعان حول سريري، ويبسطان أيديهما فوق جسدي، ويبدءان بالصلاة بصوت عالٍ. سألْتُ بتروس عن الأمر،

فأشار، بطريقة غامضة، إلى أن الأمر يتعلّق بالخطوات، وبطريق روما. أصررت على معرفة الموضوع، لكنه بقي صامتاً.

بعد يومين، وكنت قد شفيت تماماً، رأيت من نافذتي جنوداً يقومون بالتحريات في المدينة والتلال المجاورة، فسألت أحدهم عن السبب.

أجابني:

ـ هناك كلب مسعور يرتاد الجوار.

بعد الظهر، جاء الحدّاد، مالكُ الغرف، يطلب مني مغادرة المدينة حين يصبح في مقدوري السير. انتشرت القصة بين ساكني الضيعة، وخافوا أن ينتقل داء الكلَب إليهم. حاول بتروس والعجوز التحاور مع الرجل، لكنه لم يتراجع عن آرائه. ووصل به الأمر إلى التأكيد أمامنا أنه رأى خيطاً من الزبد يسيل من شقوق شفتي أثناء النوم.

لم تقنعه الحجّة القائلة إنَّ جميع الناس قد تطرأ عليهم تلك الظاهرة أثناء النوم. هذه الليلة، راحت العجوز ومرشدي يصلّيان بحرارة، ولوقت طويل، وأيديهما مبسوطة فوق جسدي.

في اليوم التالي، كنت أعرج قليلاً، لكني تابعت السير على طريق مار يعقوب. سألت بتروس عمّا إذا كان قلقاً بشأن شفائي.

أجابني:

ـ على طريق مار يعقوب، قاعدة لم أحدثك بها، تقول: ما إن نباشر بالسفر، حتى يصبح العذر الوحيد لمقاطعة السفر هو المرض. فإذا لم تعد قادراً على مقاومة جراحك، وإذا استمرت الحمّى، فهذا يعني أن رحلتنا يجب أن تتوقّف هنا.

ثم أضاف، بفخر:

ـ لكن صلواتنا استُجيبت.

وتيقّنت أن هذه الشجاعة كانت ضرورية له، بمقدار ما هي

ضرورية لي. كانت الطريق كلّها تنحدر، ونبّهني بتروس إلى أن ذلك سوف يستمر يومين أيضاً. استعدنا إيقاع سيرنا المعهود الذي توقفه قيلولة بعد الظهيرة، حين يشتدّ حرّ الهاجرة. كان بتروس يحمل حقيبة ظهري، بسبب ضمادات يدي. ولم يعد هناك ما يدعو إلى العجلة، فالمواجهة الأشد خطورة قد مرّت بسلام.

تحسّنت حالتي خلال ساعات قليلة، وكنت فخوراً بنفسي، بما فيه الكفاية. تسلّقت مسقط الماء، وضلّلت شيطان الطريق. والآن، بقيت لديَّ المهمة الأجلّ: العثور على سيفي، وقد قلت ذلك لبتروس.

ـ كان النصر جميلاً، لكن فاتك الأهمّ.

سمّرتني كلماته في مكاني.

ـ ماذا يعني ذلك؟

ـ فاتك التعرّف إلى اللحظة الفعلية لبدء القتال. فأنا أسرعْتُ الخطى ومشيت حثيثاً، فيما كان كل ما يشغلك هو البحث عن سيفك. بمَ يفيد السيفُ رجلاً يجهل أين سيلتقي عدوّه؟

أجبته:

ـ سيفي أداة قوتي.

ـ أنت شديد الاعتداد بقدرتك. فقد أنساك مسقطُ الماء وتمارين «رام»، ومحاوراتك مع «رسولك» أن هناك عدوّاً يجب القضاء عليه، وأنّك كنت على موعد معه. قبل أن توجّه اليدُ السيف، عليها أن تحدّد موقع العدوّ، وتعرف كيف تواجهه. فالسيف يقوم بالضربة فقط، لكن اليد هي المنتصرة أو الخاسرة، قبل المباشرة بهذه الضربة.

نجحْتَ في دَحْر الشياطين من دون سيفك. وظلّ سرّ يكمن وراء سعيك، سرّ لم تكتشفه. لكنك، من دونه لن تعثر عمّا تبحث عنه.

بقيت صامتاً، ففي كل مرّة أعتقد فيها أني أقترب حقّاً من

هدفي، يصدّني بتروس في شعوري هذا، ويردّد أنّي مجرد حاجّ بسيط ينقصه دوماً شيء أساسي للوصول إلى هدفه. وهكذا اختفى شعوري بالسعادة، بعد لحظات من هذا الحوار.

مرةً أخرى، وجدتني في بداية طريق «سانتياغو»، فأشعرني ذلك بالإحباط. لقد عبَر هذه الطريق، التي تدوسها قدماي، ملايين الحجّاج على مدى اثني عشر قرناً: ذاهبين إلى «سانتياغو دو كومبوستيلا»، وعائدين منها. كانوا يرون في الوصول إلى المكان المحدّد مسألة وقت، ليس إلّا. لكن، في مثل وضعي، كانت الأفخاخ، التي ينصبها «الميراث»، تضع دوماً حاجزاً جديداً على طريقي يجب تجاوزه، وتفرض خياراً يجب تبنّيه.

قلت لبتروس إني أشعر بالتعب وجلسنا في ظل المنحدر، حيث كانت الصلبان الخشبية الكبيرة تحفّ بالطريق. وألقى بتروس الحقيبتين أرضاً.

وأضاف:

ـ يمثّل العدوّ، دائماً، جانبنا الأضعف، الذي قد يتجلّى عبر الخوف من الألم الجسدي، أو الشعور المسبق بالنصر، أو الرغبة في ترك المعركة، قائلين إن الأمر لا يستحقّ العناء. إن عدوّنا لا يقوم بالصراع، إلا أنه يعرف أنه قادر أن ينال منّا، وبالتحديد في النقطة التي تصوّر لنا كبرياؤنا فيها أننا لا نقهر. ونسعى خلال الصراع إلى الدفاع عن جانبنا الأضعف، فيما العدو يضرب الجانب الأقلّ حماية، الجانب الذي نثق به تماماً، فنهزم، في النهاية، لأن ما حدث يجب ألّا يحدث: تركنا للعدو اختيار طريقة القتال.

كان كل ما تحدّث عنه بتروس قد حصل لي خلال عراكي مع الكلب، لأني رفضت، أثناء ذلك، فكرة أني أواجه عدوّاً، وأني مضطر إلى صراعه. عندما ألحّ بتروس إلى «الجهاد الحسن»، لم يكن اعتقادي إلّا بأن الأمر يتعلّق بالصراع من أجل الحياة.

قال، عندما شاطرته شكوكي:

ـ أنت على حقّ؛ لكن «الجهاد الحسن» لا يقتصر على ذلك، فشنّ الحرب ليس خطيئة، بل إنه فعلُ حُبّ. ذلك أن العدوّ يعطينا دوماً فرصة التقدّم، وتحقيق ذواتنا، وهذا ما فعله الكلب معك.

ـ ومع ذلك، فإنك لا تبدو أبداً راضياً. هناك دائماً شيء ناقص. والآن حدِّثني عن سر سيفي.

أجاب بتروس أن هذا السر كان عليّ معرفته، قبل الشروع في السفر. وتابع يتحدّث عن العدو.

ـ يمثّل العدو شرارةً من الحب الإلهي. وما كان إلّا ليجزب يدنا وإرادتنا، والطريقة التي نستعمل بها سيفنا. ثمة غاية من وجوده في حياتنا، ووجودنا في حياته. وهذه الغاية يجب أن تتمّ. وهكذا يكون الهروب من المعركة أسوأ ما يمكن أن يحصل لنا، أسوأ من أن نخسر الصراع، لأن الهزيمة تعلّمنا دوماً شيئاً ما، لكن الهرب لا يخوّلنا إلا الاعتراف بنصر عدوّنا.

فوجئت لدى سماعي بتروس يتحدّث بهذه اللهجة العنيفة، وهو الذي بدا شديد التعلّق بيسوع المسيح، وقد قلت له ذلك.

قال:

ـ فكِّر بضرورة يهوذا ليسوع، الذي كان عليه اختيار عدوّ، وإلا فإنّ نضاله على الأرض، لن يكتب له المجد.

كانت الصلبان الخشبية، المنتشرة على الطريق، تُظهر أن هذا المجد قد شُيِّد بالدم والخيانة والنكران. نهضت، وأعلنت استعدادي لمتابعة السفر.

أثناء الطريق، سألت بتروس عن نقطة الارتكاز الأقوى التي يستطيع الإنسان الاعتماد عليها، أثناء الصراع لهزم العدو.

ـ إنها حاضره. فالإنسان يعتمد، أكثر ما يعتمد، على ما يفعله الآن، لأن فيه مكمن الحب الإلهي، الذي يمدّه بالحماس للانتصار.

أريد أن يكون هذا واضحاً لديك. نادراً ما يمثّل العدوّ الشرّ. فالعدو هنا، لأن السيف، الذي لا يُستخدم، يصدأ في غمده.

عدت بالذاكرة إلى الفترة التي كنّا نبني فيها بيتاً في الريف.

فيومها، قرّرت زوجتي، فجأة، أن تغيّر موقع إحدى الغرف. وكانت تُلقي على كاهلي المهمّة الصعبة، وهي أن أنقل إلى البنّاء رغبتها في هذا التغيير. كان البنّاء رجلاً ستينياً. وعندما عبّرت له عن رغبتي، نظر من حوله، ثم فكّر، واقترح حلّاً أفضل بكثير، يسمح باستعمال الحائط الذي باشر برفعه. ووجدت زوجتي الفكرة رائعة.

لعلّ بتروس ينوي محادثتي عن ذلك بكلمات صعبة: استخدام القوة، التي نحن بصدد ممارستها، من أجل الانتصار على العدو.

وأخبرته قصة البنّاء.

ختم قائلاً:

ـ تعلّمنا الحياة، على الدوام، أكثر ممّا تعلّمنا طريق «سانتياغو»، لكن المشكلة أننا لا نملك إيماناً قوياً بتعاليم الحياة.

كانت تفصل، بين الصليب والآخر من الصلبان المنتشرة على طريق مار يعقوب، مسافة ثلاثين متراً. لا بدَّ أن حاجّاً، يملك قوة تفوق قدرة البشر، قد صنعها. لأن وحده من أوتي هذه القوة، يستطيع رفع هذا الخشب المتين الصلب.

سألت بتروس عن معناها، فقال:

ـ أداة تعذيب قديمة تجاوزها الزمن.

ـ لكن ماذا تفعل هنا؟

ـ لعلّ أحدهم وفى نذراً. كيف لي أن أعرف؟

توقّفنا أمام أحد الصلبان المحطّمة.

قلت:

ـ لعلّ خشبه تعفّن، فهوى.

ـ إنه مصنوع من الخشب نفسه الذي صنعت منه الصلبان الأخرى، لكنّ أيّاً منها لم يتعفن.

ـ إذاً لم يُغرز بقوّة كافية في الأرض.

نظر بتروس من حوله، رمى حقيبته أرضاً، وجلس.

لم أفهم تصرّفه: كنا قد استرحنا قبل ذلك بضع دقائق. وبحركة غريزية، نظرت من حولي مفتّشاً عن الكلب.

قال، وكأنه يحدس أفكاري:

ـ هزمت الكلب، فلا تخفْ من شبح الموتى.

ـ لماذا توقّفنا إذن؟

أشار عليّ بتروس بالسكوت. وظلّ بضع دقائق صامتاً. شعرت بالخوف القديم من الكلب يعاودني. وقررت النهوض، منتظراً أن يقرّر الكلام.

سأل، بعد فترة من الوقت غير وجيزة:

ـ ماذا تسمع؟

ـ لا شيء. الصمت فقط.

ـ «ليتنا كنّا على درجة عالية من الحكمة، بحيث نسمع الصمت! لكننا بشر، ولا نعرف حتى أن نسمع ثرثرتنا. لم تسألني قطّ كيف حدست وصول جوقة الشياطين. الآن، سأقول لك: عن طريق السمع. بدأ الصوت قبل أيام، عندما كنّا في «استورغا». وانطلاقاً من هناك، رحت أمشي بخطى حثيثة أكثر، لأن كل شيء كان يؤكّد أن طرقاتنا ستلتقي في «فونسبادون». وسمعتَ الصوت نفسه، لكنّك لم تصغِ.

«كل شيء مكتوب في الأصوات: ماضي الإنسان، حاضره ومستقبله. إن الإنسان، الذي لا يعرف أن يصغي، لا يمكنه سماع النصائح التي تُغدقها الحياة في كل لحظة. وحده ذلك الذي يسمع صوت الحاضر يمكنه اتّخاذ القرار الصحيح».

طلب مني بتروس أن أجلس، وأنسى أمر الكلب. ثمّ علّمني إحدى ممارسات «رام»، الأسهل والأهمّ على طريق مار يعقوب.

وهكذا شرح لي بتروس «تمرين الإصغاء».

تمرين الإصغاء

استرخِ، واغمضْ عينيك.

حاولْ، لبضع دقائق، أن تحصر تفكيرك بالأصوات المحيطة بك، وكأنّ الأمر يتعلق بأوركسترا يعزف فيها جميعُ الموسيقيين.

حاولْ أن تميّز، تدريجاً، الأصوات. فتتبّع الأصوات كلّها، الواحد تلو الآخر، وكأنك تستمع إلى آلة تعزف بمفردها، وانسَ الباقي.

إذا مارست هذا التمرين بشكل يومي، فسوف تسمع أصواتاً تتصوّرها للوهلة الأولى ثمرة خيالك، ثمّ تكتشف أنها أصوات أشخاص. أصوات ماضية، أو حاضرة، أو مستقبلية، تشكّل جزءاً من ذاكرة الزمن.

ولا يمكنك ممارسة هذا التمرين، إلاّ إذا كنت تعرف، آنفاً، صوت «رسولك».

أما الحدّ الأدنى لمدّة ممارسته، فهي عشر دقائق.

قال بتروس:

ـ مارس التمرين في الحال.

وشرعْتُ في التمرين. سمعت صوت الريح، وصوتاً نسائياً في البعيد، وصوت غصن يتكسر في وقت ما. لم يكن التمرين صعباً، وقد فتنتني سهولته. ألصقت أذنيَّ بالأرض، واستمعت إلى الصوت الصاخب للأرض. وتدريجاً، أخذت أميّز الأصوات: صوت الأوراق الجامدة، صوت في البعيد، خفقات أجنحة، قباع حيوان لم أتمكّن من تحديده. ومرّت الدقائق الخمس عشرة للتمرين سريعاً.

قال بتروس، دون أن يسألني عن الأصوات التي سمعتها:

ـ مع الوقت، سترى أن هذا التمرين سوف يساعدك على اتخاذ القرار الصحيح. إنّ الحب الإلهي يُعبّر عن نفسه من خلال «الكرة الزرقاء»، لكنّه يعبّر، أيضاً، من خلال النظر واللمس والشمّ والقلب والسمع. ستبدأ بسماع الأصوات خلال أسبوع، كحدّ أقصى. بدايةً، ستكون الأصوات خجولة، لكنها، تدريجاً، ستكشف لك أسراراً هامّة. انتبه فقط «لرسولك»، فقد يحاول خداعك. وما دمت تعرف صوته، فلن يشكّل لك تهديداً.

سألني بتروس ليعرف ما إذا كنت قد سمعت النداء الفَرِح لأحد الأعداء، أو دعوة امرأة، أو سرّ سيفي.

أجبته:

ـ سمعت، فقط، صوتاً نسائياً في البعيد، لكنه صوت فلّاحة تنادي ابنها.

ـ أنظر، إذن، إلى هذا الصليب الماثل أمامك، واجعله ينتصب بقوّة فكرك وحده.

سألته عن هذا التمرين.

ـ إنه الإيمان بالفكر.

جلست، أرضاً، في وضعية رجل يمارس اليوغا. عرفت أنّني، بعد

كل ما أنجزته: الكلب، مسقط الماء، سأنجح في هذا أيضاً. حدّقت إلى الصليب. تخيّلت نفسي خارجاً من جسدي، ممسكاً بفروعه، ورافعاً إياه بفضل جسدي الكوكبي. أثناء سيري على نهج «الميراث»، أنجزت بعض هذه المعجزات الصغيرة، وتمكّنت من تحطيم أقداح وتماثيل من البورسلين، ونقل أشياء من موضعها على الطاولة. كانت هذه الطريقة سهلة، ولم تكن مرادفاً للقدرة، لكنها تساعد كثيراً على إقناع «الكفار». لم أمارسها، من قبل، مع شيء بهذا الحجم وبهذا الوزن، كمثل الصليب. لكن، إذا كان بتروس قد أمر بذلك، فهذا يعني أنني سأتمكّن من النجاح.

حاولْتُ كلّ ما في وسعي لمدّة نصف ساعة. استخدمت السفر الكوكبي والإيحاء. تذكّرت كيف أن المعلّم كان يسيطر على قوة الجاذبية، وحاولت أن أتذكّر الكلمات التي كان، دائماً، يتلفّظها في مثل هذه الظروف. لم يحدث شيء. بذلت كلّ جهد، وركّزت على إنجاز المهمّة، لكن الصليب ظلّ ساكناً. استدعيت أستران الذي ظهر بين أعمدة النار. لكن، عندما حدّثته عن الصليب، قال إنه يكره هذا الشيء.

وأخيراً، هزّني بتروس، وأخرجني من رعدتي:

ـ هيّا. الأمر بات مزعجاً. إذا كنت لا تستطيع رفع الصليب بواسطة الفكر، فاجعله ينتصب، إذن، بمساعدة يديك.

ـ بمساعدة يديّ؟

ـ أطع!

انتفضت. وجدتني فجأة أمام رجل قاسٍ يختلف تماماً عن ذلك الذي اعتنى بتضميد جروحي. لم أعرف ما عليّ أن أقول أو أفعل.

ـ أطِعْ! هذا أمر!

كنت مضمّد الذراعين واليدين منذ صراعي مع الكلب؛ لم

أصدّق ما سمعته أذناي. أريته ضماداتي دون أن أنبس بكلمة. لكنه ظلَّ ينظر إليَّ ببرودة ودون تأثر. كان ينتظر أن أطيع. إن هذا المرشد والصديق الذي رافقني طوال الوقت، وعلّمني ممارسات «رام»، وروى لي القصص الجميلة عن طريق «سانتياغو»، قد اختفى ليظهر مكانه رجل ينظر إليَّ وكأني عبدٌ له، ويأمرني أن أقوم بعمل أخرق.

كرَّر:

ـ ماذا تنتظر؟

تذكّرت مسقط الماء، وتذكّرت أن الشكوك، ذلك النهار، قد خامرتني بصدد بتروس، وأنه كان شهماً حيالي، وأنه أظهر لي حبه ومنعني من التخلّي عن سيفي. لم أكن أفهم كيف أن رجلاً سخيّاً مثله يصبح، فجاة، بهذه القسوة، ويجسّد كل ما يحاول الجنس البشري جاهداً التخلّص منه، ألا وهو اضطهاد الإنسان لأخيه الإنسان.

ـ بتروس، أنا...

ـ أطعْ، وإلّا انتهى أمر طريق «سانتياغو».

عاودني الخوف. كنت خائفاً من بتروس خوفاً يفوق ما شعرت به أمام مسقط الماء، ويفوق خوفي من الكلب الذي قضّ عليَّ مضجعي وقتاً طويلاً جداً. توسلت يائساً إلى الطبيعة، لكي تُظهر لي آية تتيح لي رؤية أو سماع ما يبرّر هذا الأمر الأخرق الذي أملاه عليَّ بتروس. لكن كلَّ شيء بقي، من حولي، ساكناً. كان علي إطاعة الأمر، أو نسيان سيفي. مرة أخرى، رفعت، في وجه بتروس، ذراعيَّ المضمّدتين، لكنه بقي جالساً على الأرض، منتظراً تنفيذ الأمر.

فقرّرت، عندئذٍ، الطاعة.

مشيت حتى الصليب، وحاولت أن أدفعه بقدميَّ لأروز ثقله. ولم أتمكّن من تحريكه. لو كانت يداي طليقتين، لشعرت بصعوبة كبرى في رفعه، ولكن، بيديَّ المضمّدتين، ستكون المهمة شبه مستحيلة. لكنّي سأطيع. سأموت هنا، لو لزم الأمر، وسأعرق دماً، كما عرق يسوع دماً، عندما حمل صليبه الثقيل. لكنّ بتروس سيكتشف كرامة نفسي. أو لعلَّ هذا سيؤثر في عاطفته، ويعتقني من هذا الاختبار.

كان الصليب محطّماً عند قاعدته، لكنه ظلّ معلّقاً ببعض ألياف الخشب. لم يكن لدي سكّين لأقطعها. تخطّيت الألم، وأمسكته، محاولاً اقتلاعه من قاعدته المحطّمة، دون أن أستعمل يديّ. احتكّت جروح ذراعي بالخشب، وزعقت ألماً. نظرت إلى بتروس الذي بقي بارداً. وقرّرت أن أبتلع صراخي، وأدفنه في قلبي.

استنتجت أن الصعوبة المباشرة لا تقتصر على نقل الصليب من مكانه، بل على تحريره من قاعدته، ثم تشكيل حفرة في التراب ودفعه إليها. اخترتُ حجراً مسنوناً. تخطّيت ألمي، ورحت أضرب ألياف الخشب وأبردها.

كان الألم يتزايد في كل لحظة، والألياف تستجيب ببطء. عليَّ الانتهاء بسرعة، قبل أن تنفتح جروحي، فيصبح الأمر غير محتمل. لكنّي قررت إنجاز العمل ببطء أكبر، حتى أنتهي منه قبل أن ينال الألم مني. انتزعت قميصي ولففتها حول يدي، وبدأت العمل بحماية أفضل. كانت هذه فكرة جيدة: قطع أول ألياف الخشب، ثم الثاني. جمعت حجارة مسنونة، واستعملتها الواحدة تلو الأخرى، حتى تخفُّ سخونة يدي من تأثير الألم. تحطّمتْ كل ألياف الخشب تقريباً، فيما صمد الليف الرئيسي. وبدأت أعمل، بشكل محموم، لأني كنت أعرف أني سأصل قريباً إلى النقطة التي يصبح فيها الألم غير محتمل. المسألة مسألة وقت، وعليَّ أن أسيطر على نفسي. كنت أضغط وأضرب، وأنا أشعر أن بين الجلد والضمادة مادة

لزجة تحدّ من سهولة حركاتي. قلت في نفسي: لا بدَّ أنه دم، لكني تجنبت التفكير في ذلك. وفجأة بدا أن الليف المركزي قد انصاع أخيراً لضرباتي. كنت منفعلاً بعصبية، إذ نهضت متوثّباً ومستجمعاً كل قواي، وانهلت بضربة عنيفة من قدمي على الجذع.

سقط الصليب على جانبه سقطة صاخبة، متحرراً من قاعدته.

لم تدم فرحتي إلا ثواني قليلة. بدأت يداي ترتجفان بقوة، وأنا لا زلت في بداية عملي. نظرت إلى بتروس، فرأيته نائماً. فكّرت، لوهلة، بوسيلة لرفع الصليب دون أن ينتبه إلى الأمر. لكن هذا بالضبط ما أراده مني: أن أرفع الصليب. لم أكن أملك أيّ وسيلة لخداعه، لأن المهمّة متعلّقة بي وحدي.

نظرت إلى التراب، التراب الأصفر اليابس. من جديد، كانت الحجارة منفذي الوحيد. لم أعد أستطيع استخدام يدي اليمنى التي استشرى فيها الألم، واستمرت تفرز تلك المادة اللزجة التي تثير قلقي بشكل فظيع. انتزعت ببطء القيمص التي لففتها حول ضماداتي: كان الدم يبقّع الشاش، ولكن الجرح لا يزال شبه مختوم. إن بتروس لمتوحش.

ذهبت لأفتّش عن حجر أكثر ثقلاً. لففت القميص حول يدي اليسرى، وبدأت أضرب وأحفر الأرض عند أسفل الصليب. تقدّمت بسرعة في سعيي، لكني ما لبثت أن اصطدمت بالتراب القاسي والجاف. تابعت الحفر، لكن صلابة التراب جعلت عملية الحفر شاقة. وقررت ألا أوسع الحفرة كثيراً، حتى أتمكن من إدخال الصليب فيها دون أن يرتخي عند القاعدة. وقد ضاعف ذلك من صعوبة انتشال التراب في العمق. كفّت يدي اليمنى عن إيلامي، لكن الدم المتجمد أشعرني بالغثيان. ثمّ أن الحجارة كانت تنزلق من بين أصابعي كل لحظة، لأنني لم آلف العمل بيدي اليسرى.

حفرت وقتاً لا متناهياً. وكنت، كلّما ضربت الأرض بالحجارة، وأدخلت يدي في الحفرة لأنتشل التراب، أفكّر ببتروس. نظرت إلى

نومه الساكن، وكرهته من أعماق قلبي. لا الضجّة ولا حقدي يؤثّران فيه، على ما يبدو. فكّرت أن بتروس لديه أسبابه، لكني لم أفهم سبباً لهذا الاستعباد، وللطريقة التي يذلّني بها. عندئذٍ، أضحى التراب أمام وجهه، فضربته بالحجر، يعبّئني الغضب المسعور الذي كان يحفزني على الحفر أعمق فأعمق. عاجلاً أم آجلاً، سأنجح.

كنت مسترسلاً في هذه الفكرة، عندما اصطدمتْ الحجارة بشيء صلب، وأفلتت منّي مرة أخرى. حصل ما كنت أخشاه: لقد حفرت طوال هذا الوقت لأصطدم بصخرة عريضة، تمنعني من الذهاب بعيداً في مسعاي.

نهضت، مسحت العرق عن وجهي، وفكّرت. لم تكن لديَّ القوة الكافية لنقل صليبي، ولا يمكنني أن أعاود كلّ شيء، لأن يدي اليسرى، وبعد أن توقّفتُ، بدأت تسري فيها إشارات توحي بالحذر الكامل. كان هذا أسوأ من الألم، وقد أثار قلقي. نظرت إلى أصابعي، حرّكتها، فاستجابت، لكن غريزتي أشارت عليّ بوجوب ألّا أحمّل يدي أكثر مما تحتمل.

تأملْتُ الحفرة. لم تكن عميقة كفاية لتحمل قاعدة الصليب.

«إن الحل الأسوأ يعلّمك الأحسن». تذكّرت تمرين الظلال، وجملة بتروس. كان يقول، دائماً وبإلحاح، إن تعاليم «رام» لا معنى لها، ما لم أطبّقها لمواجهة تحدّيات الحياة اليومية. لا بدَّ أن تعاليم «رام» تفيد في شيء، حتى في وضعٍ مستحيل كهذا.

«إن الحل الأسوأ يرشدك إلى الأحسن». والحل المستحيل يعتمد على نقل الصليب، في حين أنني لا أملك القوة على فعل ذلك. كما أن الحل المستحيل يتمثّل، أيضاً، بالاسترسال في حفر التراب عميقاً. إذا

كانت الوسيلة السيئة تقوم على التوغّل عميقاً في التراب، فإن الوسيلة الملائمة، هي رفع مستوى الأرض. ولكن كيف؟

وفجاة، عاد إليَّ كل حبي لبتروس. لقد كان على حق. فأنا أستطيع رفع مستوى الأرض.

بدأت أجمع كلّ الحجارة المتوافرة أمامي، وأضعها حول الثغرة، وأمزجها بالتراب الذي انتشلته. وبعد جهد كبير، رفعت قليلاً أسفل الصليب، وثبّته بالحجارة، بحيث يبدو أعلى. بعد مضي نصف ساعة، كان التراب مرفوعاً، والحفرة عميقة بما يكفي.

لم يتبقَ لي، والحالة هذه، إلا أن أجذب الصليب وأدفعه إلى داخل الحفرة. إنه جهد أخير. وكان لا بدَّ من النجاح. كانت إحدى يديَّ مخدرة وبالثانية ألم، وتعلو ظهري بعض الخدوش. ولم يكن أمامي إلا أن أتمدّد تحت الصليب وأنهض تدريجاً، لأتمكّن من دفعه إلى الداخل.

تمدّدت على التراب، وملأ الغبار فمي وعيني. كانت يدي مخدَّرة. لكن، بانتفاضة أخيرة، رفعت الصليب قليلاً، وانزلقت تحته. تدبّرت أمري بحذر، ساعياً أن يحاذي الصليب عمودي الفقري. توقّعت مرات عدّة أن ينزلق الصليب، لكنّي عملت ببطء شديد، متحاشياً قدر الإمكان اختلال التوازن، ومصحّحاً وضعية جسدي باستمرار. وأخيراً، اتخذتُ الوضعية الجنينية: جعلت ركبتيّ إلى الأمام، وحملته متوازناً فوق ظهري. للوهلة الأولى، تدحرج أسفل الصليب فوق تلة الحجارة، لكنه ما لبث أن عاد إلى مكانه.

فكّرت، وأنا أكاد أنسحق تحت ثقل الصليب وكلّ ما يمثّله: بأن «كلّ ما كان ينقصني هو إنقاذ الكون». اجتاحني شعور بالورع العميق. تذكرت أن أحداً ما قبلي حمل الصليب فوق ظهره، وأن يديه الجريحتين، كيديَّ، لم تكونا قادرتين على تجنّب الألم

والخشب. كان شعوراً دينياً ممزوجاً بالعذاب، طردته فوراً من روحي، لأن الصليب فوق ظهري قد عاود ترنّحه.

عندئذٍ، نهضت ببطء، وفكرت بالولادة من جديد. فأنا لا أستطيع النظر إلى الوراء ولم تكن من وسيلة لتوجيهي سوى الأصوات. منذ قليل، تعلّمت أن أصغي إلى أصوات العالم، وكأنّ بتروس حدس أنني سأحتاج إلى هذا النوع من المعرفة. شعرت أن ثقل الصليب قد خفَّ قليلاً، وأن الحجارة عادت إلى أمكنتها. سيرتفع الصليب ببطء، ويعتقني من هذا الاختبار، ويرجع، كما كان، مجزد زينة لطريق مار يعقوب.

لم يتبقَ، إذن، إلا الجهد الأخير: فعندما أجلس على كاحلي، سينزلق الصليب في الحفرة. تحرّك حجر أو اثنان، لكن الصليب كان يساعدني آنذاك، لأنه لم يبتعد كثيراً عن المكان الذي رفعت فيه التراب. وأخيراً، أنبأني ارتجاج في ظهري أن القاعدة قد تحرّرت. إنها اللحظة الحاسمة، وهي أشبه بتلك اللحظة التي عبرت فيها الشلال، اللحظة الأصعب، لأننا نخاف الخسارة، ونفضّل التخلّي عنها قبل حصولها. شعرت، مرة أخرى، بسخافة مهمّتي التي تقوم على رفع الصليب، في حين أن رغبتي كانت أن أعثر على سيفي، وأقلب كلّ الصلبان، حتى يُبعث المسيح الفادي. لا شيء من ذلك كان مهماً. قمت بحركة عنيفة، وانزلق الصليب عن ظهري، وأنا على يقين بأن القدر هو الذي قاد عملي.

كنت أنتظر أن يهوي الصليب من الناحية الأخرى، جارفاً معه كل الحجارة التي جمعتها. خشيت أن تكون وثبتي غير كافية، وأن يقع الصليب فوقي من جديد. لكنّي سمعت، فقط، الصوت الصاخب الناجم عن ارتطام شيء ما بالأرض.

استدرت بهدوء. كان الصليب منتصباً، ومترنّحاً قليلاً تحت وطأة الدفع. تدحرجت بعض الحجارة عن التلّة، لكن الصليب لم يسقط. قمت بسرعة، وأرجعت الحجارة إلى أمكنتها، وأحطته

بذراعي، ليوقف تمايله. أحسسته حيّاً ودافئاً وواثقاً وصديقاً، طوال فترة عملي.

نظرت معجباً إلى ما قمت به، لكن عاودني ألم جراحي. كان بتروس لا يزال نائماً. اقتربت منه، وركلته بقدمي.

استفاق فجأة، ونظر إلى الصليب:

علّق قائلاً:

ـ هذا ممتاز. في «بونفزادا»، نغيّر كلّ ضماداتك.

* * *

«الميراث»

كنت أفضل لو أنني رفعت شجرة... عندما حملت هذا الصليب فوق ظهري، قلتُ في نفسي إن السعي وراء الحكمة يحمل للناس طعم التضحية.

في المكان الذي أمثل فيه الآن، بدت كلماتي وكأنها مجرّدة من أي معنى. وبدا لي فصل الصليب حدثاً بعيداً لم يحصل البارحة، بل قبل ذلك بوقت طويل. وهو لا يتلاءم إطلاقاً مع غرفة الاستحمام برخامها الأسود، أو مع الماء الفاتر في مغطس التدليك المائي، أو مع كأس الكريستال وما تحويه من نبيذ «ريوخا» الذي احتسيته على مهل.

كان بتروس بعيداً عن دائرة نظري، في غرفة الفندق الفخم الذي حللنا به.

قلت بإصرار:

ـ لمَ الصليب؟

هتف مرشدي من غرفته:

ـ تعذبتُ كثيراً لأقنع البوّاب القابع عند المدخل أنك لست متسوّلاً.

لقد غيَّر بتروس الحديث. وبتّ أعرف، بالخبرة أن من غير المجدي الإصرار أو المعاندة. نهضت. لبست بنطالاً وقميصاً نظيفة، وأعدت تضميد جراحي. أبعدت الرباط بحذر، متوقّعاً أن أجد

جروحاً، لكن قطعة متخثرة من الدم قشرت، تاركة قليلاً من الدم. ختم جرح جديد، وأحسستني متعافياً، أتمتّع بصحة جيدة.

جلسنا لتناول العشاء في مطعم الفندق. وأمر بتروس بإحضار الطبق الخاص بالمدينة، وهو «السمكية»(•) على الطريقة الفالنسية، تناولناه بصمت، ونحن نحتسي نبيذ «ريوخا» اللذيذ. عند نهاية العشاء، دعاني بتروس للقيام بجولة.

خرجنا من الفندق، واتّجهنا إلى محطّة سكة الحديد. استعاد بتروس سكوته المعهود، وبقي صامتاً طوال النزهة. بلغنا مخزن الحافلات، الذي كان وسخاً، وتنبعث منه رائحة الزيت. جلس بتروس على مرقاة إحدى الحافلات الكبيرة.

قال:

ـ لنسترخ.

لم أكن أريد أن يتّسخ بنطالي ببقع الزيت، وفضلت البقاء واقفاً. سألته ما إذا كان من الأفضل أن نمشي حتى الساحة الرئيسيّة لـ «بونفزادا».

قال مرشدي:

ـ طريق مار يعقوب شارفت الانتهاء. وبما أن حقيقتنا أقرب إلى هذه الحافلات التي تنبعث منها رائحة الزيت أكثر منها إلى الخلوات الرعوية التي صادفناها في طريقنا، فمن الأفضل، إذن، أن ينتهي حديثنا اليوم، هنا، في هذا المكان.

طلب مني أن أنزع حذائي وقميصي، ثم أرخى ضمادات ذراعي، ليجعلها أكثر ليونة. لكنّه أبقى على ضمادات يدي.

وقال:

ـ لا تحزن. لن تكون في حاجة إلى يديك الآن، ولن تضطر إلى الإمساك بأي شيء.

(•) السمكية: طعام إسباني مكوّن من أرزّ ولحم وخضر وأنواع مختلفة من الأسماك.

كان جدياً أكثر من العادة، فأغضبتني نبرة صوته. فثمة حدث جلل على وشك الوقوع.

عاود بتروس الجلوس، ونظر إليّ وقتاً طويلاً. ثم أضاف:

ـ «لن أقول لك شيئاً عن فصل البارحة. ستكتشف بنفسك معناه، ولن تتوصّل، إلا إذا قررت يوماً أن تعبر طريق روما، التي تمثّل طريق الخطوات والعجائب. سأقول لك شيئاً فقط: إن الناس الذين يعتبرون أنفسهم حكماء، يقعون في الحيرة لحظة صدور الأمر، وفي العصيان، لحظة الطاعة. يعتقدون أنّ من المخجل إعطاء الأوامر، ومن المعيب تلقّيها. لا تتصرّف هكذا البتّة.

«منذ قليل، عندما كنت في الغرفة، قلت إن طريق الحكمة تقود إلى التضحية، وهذا خطأ. إن تدرّبك لم ينتهِ البارحة. يجب أن تعثر على سيفك، وعلى السز الذي يحتويه. إن ممارسات «رام» تقود الإنسان إلى خوض «الجهاد الحسن»، وتوفير المزيد من الحظوظ له كي ينتصر في الحياة. وما التجربة التي قمت بها إلا اختبار طريق، تحضيراً لطريق روما إذا شئت، ويحزنني أن تعتقدها كذلك».

كان صوته ينطوي على حزنٍ حقيقيّ. وكنتُ قد لاحظت أن الشكوك في ما علّمني إياه كانت تساورني طوال الفترة التي قضيناها معاً. لم أكن، مثل كاستانيدا، وضيعاً وقوياً حيال تعاليم دون خوان، ولكنّي كنت رجلاً متكبّراً وعاصياً حيال البساطة المدهشة لممارسات «رام». كنت أريد أن أقول له ذلك، لكنّ الوقت كان قد تأخر.

قال بتروس:

ـ أغمضْ عينيك. وقم بـ «نفس رام»، وحاول أن تضع نفسك بانسجام مع هذا الحديد، مع هذه الآلات ورائحة الزيت هذه. ذلك هو عالمنا. لا تفتح عينيك، إلا بعد أن أنهي حديثي، وألقّنك تمريناً جديداً.

حصرت تفكيري بالنَّفس. أغمضتُ جفنيّ، واسترخى جسدي تدريجاً. سمعت ضجة المدينة، والكلاب تنبح في البعيد، وأصوات أناس يتبادلون الحديث قريباً من المكان. وفجأة، سمعت بتروس يردّد أغنية إيطالية، لاقت رواجاً في فترة مراهقتي، أنشدها ببينودي كابري. لم أكن أفهم كلمات الأغنية، لكن اللحن أعادني إلى ذكريات جميلة، وأتاح لي أن أعيش حالة صفاء مذهلة.

قال بتروس، بعد أن كفَّ عن الغناء:

ـ «منذ بعض الوقت، وفيما كنت أحضر مشروعاً توجّب علي تقديمه إلى بلدية ميلانو، تلقّيت رسالة من معلّمي، فحواها أن أحدهم تبع نهج «الميراث» إلى أقصى حدوده، ولم ينل سيفه، مع ذلك. وكان عليّ أن أرشده إلى طريق مار يعقوب.

«لم يفاجئني الحدث. كنت أتوقّع دعوة من هذا النوع في كل وقت، لأني لم أنجز مهمتي بعد: إرشاد حاجّ على طريق المجزة، كما أرشدني هو يوماً. لكنّ ذلك جعلني عصبياً، لأنها كانت المرة الأولى والوحيدة التي تُسند إليّ هذه المهمة، ولم أكن أعرف كيف سأنجزها».

فاجأتني كلمات بتروس. كنت أعتقد أنه قام بمهمة الإرشاد عشرات المرات.

ـ جئتَ فأرشدتُك. أعترف أن الأمر كان صعباً في البداية، لأنك كنت مهتماً بالجانب الفكري من التعاليم، أكثر من اهتمامك بالمعنى الحقيقي للطريق التي هي طريق الناس العاديين. بعد لقاء ألفونسو، صارت علاقتي بك أقوى وأشدّ، واعتقدتُ أنني سأجعلك تكتشف سرّ سيفك. لكن هذا لم يحدث. والآن، ينبغي أن تعتمد على نفسك، خلال الوقت القليل المتبقّي لك.

جعلتني هذه الكلمات عصبياً. وفقدت التركيز على «نفس رام». لابدّ أن بتروس أدرك ذلك، لأنه عاد يردّد الأغنية القديمة، ولم يتوقّف إلا عندما استرخيتُ من جديد.

ـ إذا اكتشفتَ السر، وعثرت على سيفك، فسوف تكتشف أيضاً وجه «رام»، وستكون سيّد القدرة. لكن ليس هذا كلّ شيء. فلكي تبلغ الحكمة، عليك أيضاً اجتياز الطرقات الأخرى، بما فيها الطريق السرية التي لن تكشف حتى لمن سلكها. أقول لك ذلك، لأننا لن نلتقي إلا مرّة واحدة بعد اليوم.

خفق قلبي في صدري بطريقةٍ لا إرادية. وفتحت عينيّ من جديد. كان وجه بتروس يلتمع بهذا النور الذي لم أعهده، إلا عند معلّمي.

ـ أغمضْ عينيك.

أغمضتهما في الحال، لكنّ قلبي كان منقبضاً، ولم أتمكن من التركيز. عاد مرشدي ينشد الأغنية الإيطالية، ولم أسترخِ من جديد إلا بعد وقت طويل.

ـ غداً ستتلقى رسالة ترشدك إلى مكاني. وسيكون ذلك طقساً إسرارياً جماعياً، طقساً على شرف جمعية «الميراث». لقد ساهم الرجال والنساء، على مرّ العصور، في تغذية شعلة الحكمة و«الجهاد الحسن»، والحب الإلهي. ولن يكون بمقدورك التحدّث إليّ. فالمكان، الذي سنلتقي فيه، مقدس ومغسول بدم الفرسان الذين سلكوا نهج «الميراث»، والذين، بالرغم من سيوفهم المسنونة، لم يقدروا أن ينتصروا على الظلمات. لكن تضحيتهم لم تذهب سدى. والبرهان أنه، بعد قرون لاحقة، سلك أناس طرقاً مختلفة لتكريمهم. هذا أمر هامّ، وعليك ألا تنسى هذا أبداً: حتى وإن أصبحت معلّماً. إعلمْ أن طريقك ليست إلا إحدى الطرق العديدة التي تقودك إلى الله. قال يسوع ذات مرة: «إن في بيت أبي منازل كثيرة».

وأضاف بتروس أنني، ابتداءً من بعد غد، لن أراه مجدّداً.

ـ «ذات يوم، ستتلقى رسالة منّي، أطلب إليك فيها أن ترشد حاجّاً

على طريق مار يعقوب، كما أرشدتك. عندئذٍ، يمكنك أن تعيش السر الكبير لهذه الرحلة، وهو سر أستطيع أن أكشفه لك الآن، ولكن بالكلمات فقط، لأنه في حاجة أن يُعاش ليُفهم.

وخيَّم صمت طويل. اعتقدت أنه غيَّر رأيه، ورحل. وشعرت برغبة جارفة أن أفتح عيني، وأرى ما يجري، وقمت بجهد، لأركِّز على «نفس رام».

وقال بتروس، أخيراً:

ـ السر هو أنك لا تستطيع أن تتعلّم إلا حين تُعلِّم. لقد اجتزنا معاً الطريق الغريبة لمار يعقوب. كن أنت تتعلّم الممارسات، وأنا أكتشف معناها. حين علّمتك، تعلّمتُ فعلاً. وحين أديتُ دور المرشد، استطعتُ إيجاد طريقي، أنا بالذات.

إذا عثرت على سيفك، فينبغي أن تعلّم الطريق للآخرين. عندئذٍ، أي حين تقبل دور المعلّم، ستكتشف كل الأجوبة في قلبك. نحن جميعاً نعرف كلّ الأشياء، قبل أن يكلّمنا أحد بها. فالحياة تعلّم في كل لحظة، وليس هناك إلا سر واحد: إدراك حقيقة أننا قادرون، ضمن عالمنا اليومي، أن نكون حكماء كسليمان، وأقوياء كالإسكندر الكبير. ولكننا لا نعي ذلك فعلاً، إلا حين نضطر إلى تعليم الآخر، والمشاركة في مغامرات غريبة كهذه.

كنت أعيش، في هذه اللحظة، إحدى تجارب الفراق غير المتوقّعة إطلاقاً في حياتي. فمن ربطتني به علاقة لا مثيلَ لقوتها، وتوقّعت أن يقودني حتى بلوغ هدفي، يتركني في منتصف الطريق، في محطة حديدية، تنبعث منها رائحة الزيت، ويأمرني بأن أحتفظ بعينيَّ مغمضتين.

أضاف بتروس:

ـ لا أحبّ أن أقول لك وداعاً. أنا إيطالي وانفعالي. وتقضي الشريعة بأن تجد سيفك بنفسك. هذه هي الطريق الوحيدة لكي تؤمن بقدرتك الخاصة. كل ما أريد أن أنقله إليك، نقلتُه. ولم يتبقَ إلا تمرين الرقص، الذي سأعلّمك إياه الآن، وعليك أن تمارسه غداً، خلال الاحتفال الطقسي.

بقي صامتاً لبعض الوقت، ثم قال:

ـ هذا الذي يفتخر، فليكن فخره مستمداً من مجد الربّ. تستطيع أن تفتح عينيك.

كان بتروس جالساً على مربط العربة. لم تكن لدي رغبة في الكلام، لأني برازيلي، وبالتالي انفعالي أيضاً. أخذ مصباح الزئبق، الذي كان ينيرنا، يومض، وأطلق قطار في البعيد، صفرة تعلن وصوله الوشيك.

وهكذا، علّمني بتروس تمرين الرقص.

قال بتروس، وهو ينظر إليَّ من أعماق عينيه:

ـ هناك شيء آخر. عندما رجعتُ من الحجّ، رسمتُ لوحة كبيرة تكشف عن كلّما حصل لي. كانت تلك طريق الناس العاديين، وتستطيع أنت أن تفعل مثلي، إذا شئت. إذا لم تكن تحسن الرسم، فاكتب، أو اخترع رقصةً. وهكذا يستطيع الناس، حيثما وُجدوا، أن يعبروا طريق مار يعقوب، والمجرَّة، والدرب الغريبة لـ «سانتياغو».

دخل القطار، الذي كان يُصفر، المحطة. أشار بتروس بيده، وامتطى إحدى الحافلات. بقيت، وسط ضجة الكوابح التي تصطك عند احتكاكها بقضبان الفولاذ، محاولاً أن أقرأ الرموز الغريبة للمجرة الماثلة فوق رأسي، ونجومها التي قادتني إلى هنا، وقادت، في صمتها، عزلة الناس ومصيرهم.

تمرين الرقص

استرخِ، واغمض عينيك.

تذكر الأغنيات الأولى التي سمعتها، عندما كنت طفلاً. أنشدها، بصمت، في قرارة نفسك. ثمّ، تدريجاً، اترك جزءاً من جسدك، قدميك أو بطنك، أو رأسك... جزءاً فقط، يرقص على إيقاع اللحن الذي تنشده.

بعد خمس دقائق، توقّف عن الغناء، واسمع الأصوات التي تحيط بك. ألّف معها لحناً، وارقص بكلّ جسدك، ولا تفكر بشيء خاص. حاول فقط أن تتذكّر الصور التي تظهر لك تلقائياً.

إن الرقص هو أحد أكثر الأشكال كمالاً للاتصال بالروح اللامتناهية، أي بالله. أما مدة التمرين، فتبلغ خمس عشرة دقيقة.

في اليوم التالي، لم أجد إلا ورقة في خزانة غرفتي، تحمل الملاحظة التالية:

السابعة مساءً في قصر «فرسان الهيكل».

قضيت فترة ما بعد الظهيرة، وأنا أتسكّع على أبواب المدينة. اجتزت، أكثر من ثلاث مرّات، مدينة «بونفّراد» الصغيرة، ناظراً في البعيد إلى القصر المتّكىء على إحدى الربوات، والذي ينبغي لي أن أقصده عند غياب النهار. كان الفرسان يلهبون خيالي دوماً. ولم يكن قصر بونفراد الأثر الوحيد المتبقّي من «جمعية فرسان الهيكل» على طريق مار يعقوب. فالجمعية أنشأها تسعة فرسان قرّروا عدم الرجوع من الحروب الصليبية. وقد بسط هؤلاء الفرسان، بقليل من الوقت، نفوذهم في كلّ أوروبا، مُحدثين ثورة كبرى في العادات، مع بداية هذه الألفية. وفيما كان القسم الأكبر من النبلاء يفكّرون بجني الثروات من عمل الرقيق في النظام الإقطاعي، كان «فرسان الهيكل» يكرّسون حياتهم وثرواتهم وسيوفهم لقضية واحدة: حماية الحجّاج على طريق أورشليم، مكتشفين نمطاً للحياة الروحية، يساعدهم في سعيهم إلى الحكمة.

عام ١١١٨، اجتمع هوغ دوبان وثمانية فرسان في باحة أحد القصور القديمة المهجورة، ورفعوا محبة البشر شعاراً لهم. وبعد قرنين، نشأت لهم خمسة آلاف جمعية موزّعة في العالم المعروف آنذاك، هدفها مصالحة نشاطيْن بَدَوا، حتى ذلك التاريخ، متعارضين فيما بينهما: الحياة العسكرية والحياة الدينية. وأتاحت هبات الأعضاء المنتسبين إليها، وهبات آلاف الحجّاج المنتمين إلى جمعية «فرسان الهيكل»، أن تجمع، في وقت وجيز للغاية، ثروةً لا تُحصى، استخدمت مرّات عدّة فديةً لتحرير شخصيات مسيحية من أسر

المسلمين. كانت استقامة الفرسان ونزاهتهم على مستوى رفيع جداً، بحيث أن ملوكاً ونبلاء عهدوا بثرواتهم إلى «فرسان الهيكل» الذين لم يكونوا يسافرون إلا وهم يحملون وثيقة تثبت وجود هذه الثروات. وكان يمكن تبادل الوثيقة في أي قصر تابع لجمعية «فرسان الهيكل»، لقاء مبلغ يعادلها. وهذا ما يُعبّر عنه، بلغة اليوم، بالكمبيالات.

وأتاحت الغيرة الدينية لـ «فرسان الهيكل» إدراك الحقيقة التي ذكّر بها بتروس في الليلة السابقة، والتي تقول: «إن في بيت أبي منازل عديدة». بدأ الفرسان يسعون، آنذاك، إلى وضع حدٍّ لحروب الجهاد الدينية، وإلى انصهار الديانات الوحدانية الثلاث: المسيحية واليهودية والإسلام. وهكذا شيّدوا كنائس قببها مستديرة، مثل هيكل سليمان، وجدرانها مثمنة الأضلاع كالجوامع العربية، وأجنحتها تتّسم بطابع الكنائس المسيحية.

ومع ذلك، وعلى غرار كل دعوة سابقة لعصرها، فإن الفرسان أخذوا يثيرون الريبة والحذر. كما أيقظ نفوذهم الكبير مطامع الملوك. وأصبح انفتاحهم الديني يُعدّ تهديداً للكنيسة. وفي نهار الجمعة ١٣ أكتوبر عام ١٣٠٧، نظّم الفاتيكان والدول الأوروبية الرئيسية إحدى أضخم العمليات البوليسية في القرون الوسطى: أوقف «فرسان الهيكل» الرئيسيون في قصورهم، واقتيدوا إلى السجن. اتُّهموا بممارسة احتفالات سرّية تتضمن عبادة الشيطان وتجدّف على يسوع المسيح، كما اتُّهموا بإقامة طقوس عربدة، وممارسة اللواط مع الفرسان الجدد. وبعد التعذيب العنيف والارتدادات والخيانات، امّحى تنظيمهم عن خارطة التاريخ القروسطي، وصودرت ثرواته، وتشتت أعضاؤه في أنحاء العالم. وأحرق آخر معلّم في الجمعية جاك دو مولي حيّاً وسط باريس، مع أحد مرافقيه. كان طلبه الأخير، قبل الموت، أن يموت ناظراً إلى أبراج كاتدرائية «نوتردام».

إلّا أن اسبانيا، المنخرطة في إعادة فتح شبه الجزيرة الإيبرية، ارتأت أن من المستحسن استقبال الفرسان الهاربين من أوروبا، واستيعابهم، بغية مساعدة الملوك في الحرب الدائرة مع المغاربة. وهكذا انضمّ الفرسان إلى الجمعيات الإسبانية، ومن بينها منظمة «مار يعقوب حامل السيف»، والمسؤول عن حماية الطريق.

كل ذلك عبر في ذهني، عندما كنت في تمام السابعة مساء، اجتاز الباب الرئيسي للهيكل في «بونفرّادا»، حيث كنت على موعد مع جمعية «الميراث».

لم يكن هناك أحد. انتظرت نصف ساعة، أدخّن سيجارة تلو سيجارة، متخيلاً الأسوأ: ماذا لو أقيم الطقس في السابعة صباحاً! وعندما صممت على الرحيل، دخلت فتاتان تحملان علم البلدان المنخفضة، وخيطت فوق ثيابهن الصدفة، رمز طريق مار يعقوب. جاءتا إليّ، وتبادلنا بعض الكلمات، وتوصّلنا إلى الاستنتاج بأننا ننتظر الشيء نفسه. قلت في نفسي إن البطاقة التي تلقّيتها لم تكن مخطئة، وشعرت بالعزاء.

كان الوافدون يصلون كلّ ربع ساعة: أوسترالي وخمسة إسبان وهولندي. عدا بعض الأسئلة المتعلقة بالمواعيد، والتي شكّلت قاسماً مشتركاً لشكوكنا، لم نكد نتبادل الكلام. جلسنا معاً في إحدى غرف القصر التي كانت تستعمل قديماً مستودعاً للمؤن، وقررنا انتظار أن يحدث شيء ما، حتى لو اقتضى الأمر انتظار نهار وليلة إضافيين.

طال الانتظار. رحنا نتحدّث أخيراً بالدوافع التي ساقتنا إلى هنا. عرفت، عندئذٍ، أن طريق مار يعقوب كانت تسلكها جمعيات مختلفة تتّصل، في غالبيتها، بجمعية «الميراث الكبرى»؛ وأن الناس، الذين تحدثت إليهم، قد مروا بتجارب ومسارات عدّة. لكن هذه

التجارب عرفتها منذ وقت طويل في البرازيل. وحدنا أنا والأوسترالي، كنّا نسعى إلى نيل الرتبة الأعلى لـ «الطريق الأولى». وأدركت، دون أن أدخل في التفاصيل، أن مسعى الأوسترالي مختلف تماماً عن ممارسات «رام».

في حوالى الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والأربعين، وفيما كنا على أهْبة التحدّث بحياتنا الشخصية، دوّى جرس. كان الصوت صادراً عن الكنيسة القديمة للقصر، فتوجّهنا إليها جميعاً.

كان المشهد مؤثراً: الكنيسة، أو ما بقي منها لأن القسم الأكبر كان مدمّراً، أضيئت بالمشاعل. وهناك، حيث كان المذبح مقاماً ذات يوم، توالت سبع قامات ترتدي الألبسة القديمة لـ «فرسان الهيكل»: القلنسوة والخوذة الفولاذية والزرد والسيف والترس. تقطّعت أنفاسي: لكأن الزمن قام بقفزة إلى الوراء. كان الشيء الوحيد الذي يذكّر بالواقع هو ملابسنا: سراويل الجينز والقمصان المزيّنة بالأصداف.

وعلى الرغم من ضوء المشاعل الخافت، فإنني قد استطعت أن أميّز أن أحد الفرسان، كان بتروس.

قال الأكبر سناً بينهم:

ـ اقتربوا من معلّميكم. حدّقوا في أعينهم. انزعوا ملابسكم، لتتلقّوا الملابس الجديدة.

اتجهت إلى بتروس. كان في حالة تقارب الرعدة، ولم يبدُ عليه أنه يعرفني. لكنّي لاحظت، في عينيه، حزناً ما، الحزن الذي تجلّى في صوته الليلة الماضية. نزعت كل ملابسي، وألبسني بتروس رداء أسود معطّراً انهدل على جسدي. لاحظت أن أحد المعلّمين كان لديه أكثر من تلميذ، ولكني لم أستطع تمييزه، لأن عينيَّ كانتا تحدّقان إلى بتروس.

قادنا الكاهن الأعلى إلى وسط الكنيسة، وراح فارسان يرسمان دائرة حولنا، ويكرّسانها قائلين:

ـ ترينيتاس، سوثر، مسياس، إيمانويل، ساباهو، أدوناي أثاناتوس، بيزو...(١).

رُسمت الدائرة، وهي تمثّل الحماية الضرورية للموجودين داخلها. لاحظت أن أربعة من هؤلاء الأشخاص كانوا يلبسون رداء أبيض، وهذا يعني نذر العفة المطلقة.

تابع الكاهن الأعلى، قائلاً:

«أميتس، ثيودونياس، أنيثورا باستحقاقات الملائكة يا رب، أرتدي رداء الخلاص، عسى كل شيء أتمناه يصبح حقيقة بمعونتك. أنت يا أدوناي المقدس الذي سيدوم ملكوته إلى أبد الآبدين، آمين».

ولبس الكاهن الأكبر سناً، فوق الزرد، الرداء الأبيض الذي طُرّز في وسطه صليب الهيكل. وهكذا فعل الفرسان أيضاً.

كانت الساعة تشير إلى التاسعة مساء، وهي ساعة «الرسول مركور». وجلتني من جديد وسط «دائرة الميراث»، وقد فاحت في الكنيسة رائحة بخور النعناع والحبق والعنبر.

وتلا الفرسان الصلاة العظمى:

ـ يا أيها الملك العظيم النفوذ «ن*»، أنت الذي بقدرة الرب «إيل» السامية تهيمن على كل الأرواح العليا والسفلى، ولا سيّما على النظام الجهنمي لقطاع الشرق، أبتهل إليك... لكي أستطيع تحقيق رغبتي أيّا تكن، ما دامت متعلّقة بعملك وبقدرة الرب «إيل»، الذي خلق

---

(١) بما ان الأمر يتعلق بطقس طويل جداً، لا يستطيع فهمه إلا أتباع جمعية «الميراث»، اخترت أن أختصر الكلمات المستخدمة. وهذا لن يؤثّر بشيء على الكتاب، لأن تنفيذ الطقس لا يستهدف إلا التقاء القدامى، وتقديم الاحترام المتوجّب إليهم. أما الأمر الأساسي في هذا الجزء من طريق مار يعقوب، فيتعلّق بتمرين الرقص، وقد شُرح بشكل وافٍ.

كل شيء: السماوات والهواء والأرض والجحيم، ويتصرف بها كما يشاء.

خيّم صمت ثقيل علينا. وشعرنا بحضور الاسم الذي ابتهل إليه دون أن نراه. كان هذا تكريس الطقس. سبق لي أن شاركت في مئات الطقوس المماثلة، وحدث أن توصلت إلى نتائج أكثر إثارة للدهشة، عندما تحين هذه اللحظة بالذات. لكنّ قصر «فرسان الهيكل» حزك خيالي: رأيت في الجزء الأيسر من الكنيسة عصفوراً لامعاً، لم أر مثله من قبل، يحلّق هناك.

رشّنا الكاهن الأكبر بالماء من خارج الدائرة. ثم كتب على الأرض، بالحبر المقدّس، الأسماء السبعين التي تطلق على الله في «الميراث». بدأنا جميعنا، حجّاجاً وفرساناً، بتلاوة الأسماء المقدّسة. تأجّجت النار في المشاعل، وهذه علامة أن الروح المبتهل إليه قد استجاب.

حان وقت الرقص. أدركتُ لما علّمني بتروس الرقص ليلة البارحة، وكان رقصاً مختلفاً عن ذلك الذي تعوّدت ممارسته في هذه المرحلة من الطقس.

لم ينبّهنا أحد إلى القاعدة، لكننا نعرفها جميعاً: يجب الإبقاء على الأقدام داخل الدائرة، لأننا لا نلبس رداء الحماية الذي ارتداه هؤلاء الفرسان فوق زردهم. عاينت حجم الدائرة، وقمت، تحديداً بما لقّنني إياه بتروس.

بدأت أفكر بطفولتي. وثمة صوت، صوت امرأة، بعيد في داخلي، أنشد أغنية دوّارة. حبوت على ركبتي، وتقوقعت في وضع البذرة. وحده صدري بدأ بالرقص. شعرت أنني في حالة جيدة، تغمرني النشوة التي تحدثها هذه الطقوس. وتدريجاً، تحوّلت الموسيقى في داخلي، وأصبحت الحركات عنيفة، ودخلت في نشوة

كبرى. كان كل شيء قاتماً، ولم يعد لجسدي وزن في هذه الظلمة. عندئذ، تنزّهت في حقول «أغاثا» المزهرة، والتقيت هناك جدي وعمي اللذين طبعا طفولتي بطابعهما. أحسست باهتزاز الزمن في شبكته، حيث تمتزج، حتى التماهي، مختلف الطرق. في وقت ما، رأيت الأوسترالي يعبر بسرعة كبيرة، وعلى جسده بريق أحمر.

كانت الصورة التالية، التي رأيتها تمثّل كأساً وصينيّة[1]، وكأنّ هذه الصورة تريد أن تقول لي شيئاً. حاولت تفسير لغزها ولم أستطع، مع أني كنت متيقّناً أن له علاقة بسيفي. ثم خلتني أرى وجه «رام» ينبثق من عمق الظلمة التي تشكّلت، عند اختفاء الكاس والصينية. لكن عندما اقترب الوجه، تبيّنت أنه وجه ن*، الروح المبتهل إليه. لم نقم بأي اتّصال خاص، وتبدد وجهه في الظلمة التي كانت تغيب، ثم تعود إلى الظهور.

لا أعرف كم من الوقت مضى علينا، ونحن نرقص. وفجأةً، سمعت صوتاً يقول: «يهوى، تتراغراماتون...» أغاظني هذا الأمر، لأني كنت حينئذ متّصلاً، ولا أنوي الرجوع، لكن المعلّم أصرّ.

رجعت إلى الأرض على أعقابي، وقد خابت مساعيّ. رأيتني من جديد داخل الدائرة السحرية، في الجو السلفي لقصر «فرسان الهيكل».

نظرنا، نحن الحجاج، واحدنا إلى الآخر. بدا وكأن القطيعة لم تعجب أياً منّا. شعرت برغبة جارفة لأتكلم مع الأوسترالي، عمّا رأيته. عندما نظرت إليه، فهمت أن الكلمات غير مجدية: لقد رآني هو أيضاً.

تحلّق الفرسان حولنا. بدأوا يضربون تروسهم بالسيوف، مثيرين ضجة تصمّ الآذان، إلى أن قال الكاهن الأعلى:

---

(١) طبق دائري من الذهب، إجمالاً، يستعمله الكاهن خلال القدّاس، ليضع عليه القربان المكرّس.

ـ يا روح ن*، بما أنك استجبت لطلباتنا بسرعة فسوف ندعك ترحل بجلال، دون أن تؤذي إنساناً أو حيواناً. أقول لك: إذهبْ، وكن مستعداً وراغباً في العودة، معزَّماً دوماً بفضل الطقوس المقدّسة لجمعية «الميراث». آمرك أن ترحل بسلام وسكون، وليعمّ سلام الله بينك وبيني. آمين.

بعد أن خرجنا من الدائرة، جثونا أرضاً، مخفضين رؤوسنا. صلّى أحد الفرسان سبع مراتٍ «أبانا»، وسبع مرات «السلام». ثم تلا الكاهن الأعلى سبع مرات: «نؤمن بإله واحد آبٍ ضابط الكل... مؤكداً أن عذراء «ميديوغوريه»، التي تمت تجلّياتها في يوغوسلافيا، قد أوصت بذلك. وبدأنا طقساً مسيحياً...

أمر الكاهن الأعلى:

ـ أندرو، انهضْ، وتعال إلى هنا.

توجه الأوسترالي إلى المذبح الذي تحلّق أمامه الفرسان السبعة.

وقال فارس آخر لا بدّ أنه كان مرشده:

ـ يا أخي، هل ترغب أن تُقبل في شركة الكنيسة؟

ـ أجل، أجاب الأوسترالي.

وعرفت أن الطقس المسيحي، الذي نشارك فيه، يتعلق بمسارّة فارس من «فرسان الهيكل».

ـ هل تعرف الواجبات الصارمة للكنيسة، والأوامر الإحسانية المتعلّقة بها؟

أجاب الأوسترالي:

ـ أنا مستعد لتحمل كلّ شيء بمعونة الله. وأرغب أن أكون خادمك وعبد الكنيسة، الآن وكل أيام حياتي.

ثمّ جاءت سلسلة من الأسئلة الطقسية التي لم يعد لبعض منها

أي معنى اليوم، ويتعلق بعضها الآخر بالتفاني والحب. وأجاب أندرو عليها جميعاً، وهو محنيّ الرأس.

قال مرشده:

ـ أيها الأخ المميز، إنك تطلب مني الشيء الكثير، لأنك لا ترى من ديننا إلا القشرة الخارجية: الشعر الجميل والثياب الجميلة. أنت لا تعرف الوصايا الصارمة التي يتضمنها هذا الدين. في الواقع، يصعب عليك أن تصبح، أنت سيّد نفسك، خادماً للآخرين، لأنك نادراً ما تفعل ما تريد. إذا كنت تريد أن تكون هنا، فسوف نرسلك إلى الجانب الآخر من البحر. وإذا أردت أن تكون في عكا، فسنرسلك إلى طرابلس أو إنطاكيا أو أرمينيا. وإذا أردت النوم، توجّب عليك السهر. وإذا أردت البقاء ساهراً، أرسلناك لتستريح فوق سريرك.

أجاب الأوسترالي:

ـ أريد دخول بيت الله.

بدا وكأن «فرسان الهيكل القدامى، الذين سكنوا ذات يوم هذا القصر، يشاهدون هذا الاحتفال المسازي، برضى. وتأجّجت نار المشاعل بحدّة.

ثم جاءت إنذارات عدّة. وأجاب الأوسترالي أنه يتقبلها جميعاً، لأنه راغب في دخول بيت الله. وأخيراً، اتّجه مرشده إلى الكاهن الأعلى، مردّداً كل الأجوبة التي قالها الأوسترالي. سأل الكاهن الأكبر الأوسترالي، بجلال، عمّا إذا كان مستعداً لقبول القواعد كلها التي يقتضيها دخول بيت الله.

ـ أجل، يا معلّم، إن شاء الله. أتيت أمام الله وأمامكم أيها الإخوة، أتضرع إليكم، وأسألكم، باسم الله وباسم العذراء، أن تقبلوني في شركتكم، وفي محاسن بيت الله، على الصعيدين الروحي والزمني، بصفتي خادم هذا البيت وعبده، الآن وكلّ أيام حياتي.

قال الكاهن الأعلى:

ـ حبّاً بالله، دعوه يأتي إلى هنا.

عندئذٍ، أخرج كل الفرسان سيوفهم من أغمدتها، وصوّبوها نحو السماء. ثم أخفضوا أسلحتهم، وصنعوا منها تاجاً فولاذياً حول رأس أندرو. عكست النار على النصول لوناً ذهبياً، مضفية على المشهد طابعاً مقدّساً.

اقترب معلّمه بمهابة، وسلّمه السيف.

قرع أحدهم جرساً دوّى صداه في القصر القديم إلى ما لا نهاية. أخفضنا، جميعاً، رؤوسنا واختفى الفرسان عن ناظرنا. عندما رفعنا وجوهنا لم نكن إلا عشرة، لأن الأوسترالي خرج برفقتهم من أجل المأدبة الطقسية.

بدّلنا ملابسنا، وافترقنا دون إجراءات شكلية. كانت الرقصة قد استغرقت وقتاً طويلاً، لأن النهار قد طلع. واجتاحني شعور هائل بالوحدة.

كنت أشعر بالحسد من الأوسترالي الذي عثر على سيفه وتسلّمه في نهاية سعيه. كنت وحيداً لا مُرشد لي، لأن جمعية «الميراث»، في بلاد بعيدة من أميركا الجنوبية، قد طردتني دون أن تعلّمني طريق الرجوع. كان لزاماً عليَّ اجتياز الطريق الغريبة لـ «سانتياغو» التي شارفت، الآن، نهايتها، ولم أعرف سرّ سيفي، ولا الطريقة التي تخوّلني العثور عليه.

كان الجرس يقرع باستمرار. عندما خرجت من القصر، عرفت أنه جرس الكنيسة المجاورة يدعو المؤمنين لأوّل قدّاس. استيقظت المدينة لتواصل ساعات العمل، وقصص الحب التعيسة، والأحلام البعيدة، والضرائب التي تتوجّب تأديتها. لا هذا الجرس ولا هذه المدينة يعرفان أن طقساً سلفياً قد أنجز في الليلة الماضية. وما اعتبرناه ميتاً، منذ قرون، يستمر في التجدّد، مظهراً قدرته المتعاظمة.

* * *

«السبريرو»

سألَتْ الفتاة الصغيرة، وهي الكائن الحيّ الوحيد الذي كان يعبر «فيلافرانكا ديل بييرثو»، بعد هذه الظهيرة الشديدة القيظ.

ـ هل أنت حاج؟

نظرت إليها دون أن أجيب. كانت في حوالى الثامنة من عمرها، وكانت ترتدي ملابس رثّة. هرعتُ إلى سبيل الماء، حيث جلستُ لأرتاح قليلاً.

كان شاغلي الوحيد أن أصل سريعاً إلى «سانتياغو دو كومبوستيلا»، وأحسم أمري مع هذه المغامرة المجنونة. لم أستطع التوصّل إلى نسيان صوت بتروس الحزين في مستودع الحافلات، ولا نظرته البعيدة، حين التقت عيناه عينيَّ خلال طقس «الميراث». بدا الأمر كما لو أن كل جهوده لمساعدتي لم تؤدِّ إلى شيء. عندما استُدعي الأوسترالي إلى المذبح، كان بتروس، حتماً، راغباً في استدعائي أنا أيضاً، وأنا متأكد من ذلك. وكان ممكناً أن يُخبأ سيفي في هذا القصر الحافل بالخرافات وبحكمة الأقدمين، خصوصاً وأن أوصاف المكان تتطابق تماماً مع كل الاستنتاجات التي توصّلت إليها: مقفر، ويزوره بعض الحجاج الذين يحترمون ذخائر «جمعية فرسان الهيكل»، بالإضافة إلى أنه مكان مقدّس.

لكن وحده الأوسترالي تمَّ استدعاؤه من بيننا. لا بدّ أن بتروس شعر بالإهانة، لأنه لم يكن مرشداً قادراً على هدايتي إلى مكان سيفي.

من جهة أخرى، أيقظ فيَّ طقس «الميراث» مجدداً شغفي بمعرفة الخفي الذي تعلّمت أن أنساه، فيما كنت أسلك درب مار يعقوب، درب الناس العاديين. كانت التضرعات، والتحكّم شبه المطلق بالمادة، والاتصال بالعوالم الأخرى... أهم بكثير من ممارسات «رام». لعلَّ تطبيق الممارسات بات أكثر موضوعية في حياتي، ولعلّني تغيّرت كثيراً منذ شرعت في سلوك الطريق. اكتشفت، بفضل بتروس، أن المعرفة المكتسبة تستطيع أن تجعلني أتجاوز مساقط المياه، وأهزم الأعداء، وأتحاور مع «الرسول» بشأن مسائل عملية. عرفت وجه موتي والكرة الزرقاء للحب الملتهم، الذي يغمر العالم أجمع. كما أظهرت استعداداً لأن أخوض «الجهاد الحسن»، وأن أصنع من الحياة نسيج انتصارات.

في أي حال، فإن هناك جزءاً خفياً منّي لا يزال يتحسّر على الحلقات السرية، والعبارات الاستعلائية، والبخور، والحِبْر المقدس. كان ما يدعوه بتروس «تكريم الأقدمين» يمثل لي اتصالاً حاداً ونوستالجياً بالدروس القديمة المنسية. ثمَّ إن فكرة عدم بلوغ هذا العالم كانت تحرمني حافز الذهاب أبعد في سعيي. أثناء العودة إلى الفندق بعد طقس «الميراث»، وجدت «دليل الحاج»، الى جانب مفاتيحي، وهو كتاب استعان به بتروس عندما لم تكن العلامات الصفراء واضحة كما يجب. وقد سمح لنا الدليل بتقدير المسافة بين مدينة وأخرى. تركت «بونفزادا» في الصباح نفسه، دون أن أخلد للنوم، وتابعت الطريق. اكتشفت، بعد ظهيرة ذلك اليوم، أن الخارطة لم تكن موجودة، واضطررت إلى قضاء ليلة في العراء، في ظل صخرة.

وهنا، راجعتُ كلَّ ما حدث لي منذ لقائي السيدة سافان. وفكّرت في ما قاله لي بتروس بإلحاح، ليفهمني أن النتائج، خلافاً لما تعلّمناه، هي وحدها التي تتّسم بالأهمية. الجهد خلاصيّ وضروريّ، لكن، إذا لم يفضِ إلى نتيجة، فهو لا يعني شيئاً. لا أستطيع أن أتوقّع من نفسي، ومن كل ما حصل معي، إلا نتيجة

واحدة: العثور على سيفي. وهذا ما لم يحصل بعد. لم يتبق لي إلا مسيرة أيام قليلة، وأصل إلى «سانتياغو».

قالت الفتاة التي كانت تقف قرب سبيل الماء في «فيلافرانكا ديل ببيرثو»، بإصرار:

ـ إذا كنت حاجاً، أستطيع مرافقتك حتى «بوابة الغفران». من يعبر هذه البوابة لا يعود محتاجاً للذهاب إلى مار يعقوب.

قدمت إليها بعض قطع البيزيتا لكي ترحل سريعاً، وتدعني بسلام. لكنها راحت تلهو بماء السبيل، وترشّ حقيبتي وسروالي.

كرّرتْ:

ـ هيا يا سيد، لنذهبْ.

في هذه اللحظة، فكرت بعبارات كان يقولها بتروس، وهي مستوحاة من إحدى رسائل القديس بولس: «ينبغي للحارث أن يحرث على الرجاء، وللدارس على رجاء أن يكون شريكاً في الغلّة».

كان عليّ أن أصمد قليلاً بعد، أن أتابع البحث دون أن أخاف الهزيمة، وأن أحتفظ بالأمل في العثور على سيفي واكتشاف سرّه. لكن، مَنْ يدري؟ تُرى هل تحاول هذه الفتاة أن تقول لي شيئاً لم أكن راغباً في فهمه؟ إذا كان، لبوّابة الغفران الموجودة في إحدى الكنائس، الأثر الروحي نفسه المترتّب على زيارة ضريح مار يعقوب، فما الذي يمنع إذن أن يكون سيفي موجوداً هناك؟

أجابت الفتاة:

ـ هيّا، لنذهبْ!

نظرت إلى الجبل الذي انحدرت منه لتوّي. كان عليَّ العودة إلى الوراء، وتسلّق جزء منه مجدداً. كنت قد مررت ببوابة الغفران، دون أن تعتريني أدنى رغبة في زيارتها، لأن هدفاً واحداً وضعته

نصب عيني، هو: الوصول إلى مار يعقوب. لكن، أمامي فتاة صغيرة، وهي الكائن الحيّ الوحيد الذي صادفته بعد الظهيرة الحارّة هذه، وهي تصرّ أن أعود على أعقابي، وأقصد مكاناً لم أولِهِ اهتماماً. لعلّني، بسبب من عجلتي وإحباطي، غفلت عن هدف كان موجوداً على طريقي. ثمّ لماذا لم ترحل هذه الفتاة، بعد أن أعطيتها المال؟

كان بتروس يقول لي، دوماً، إني أحبّ أن أروي لنفسي القصص، متوهّماً أشياء كثيرة. لكن ماذا لو كان مخطئاً!

تبعت الفتاة، وتذكّرت قصة بوابة الغفران: لقد أرادت الكنيسة أن تتوصّل إلى «تدبير» يشمل الحجّاج المرضى، لا سيّما وأن الطريق تصبح، ابتداءً من هذا المكان وحتى الوصول إلى «كومبوستيلا»، وعرة وجبليّة. لذا، أعلن أحد البابوات، في القرن الثاني عشر، أنه يكفي اجتياز بوابة الغفران لكل مَنْ فقد القدرة على متابعة الدرب، وهو ينال الغفرانات نفسها، التي يحظى بها الحجاج الذين بلغوا نهاية الطريق. وهكذا، قدّم هذا البابا الحلّ لبعض الحجاج، وأعاد إنعاش الحجّ المقدس.

تسلّقنا المكان الذي مررت به سابقاً: طرقات متعرجة ومنزلقة ووعرة. كانت الفتاة تتقدّم سريعة كالبرق. واضطررت، في مرات عدّة، أن أطلب منها الإبطاء في سيرها. كانت تطيع لحظة، ثم تعاود الركض. وبعد نصف ساعة، وإثر اعتراضات عدّة من جانبي، وصلنا إلى بوابة الغفران.

قالت:

ـ أملك مفتاح الكنيسة. سأدخل وأفتح البوابة، لتجتازها.

دخلت الفتاة من الباب الرئيسي، وبقيت أنتظرها في الخارج. كانت الكنيسة صغيرة تتّجه فتحة بوابتها إلى الشمال، وقد زُيّنت

كلياً بأصداف وشاهد من حياة القديس يعقوب. وفيما كنت أصغي إلى صوت المفتاح في القفل، ظهر أمامي كلبٌ راعٍ لا أعرف من أين أتى، ووقف بيني وبين البوابة.

تأهّبت لقتاله.

وفكرت: «ألن تنتهي هذه القصة؟ أيضاً وأيضاً، تجارب وصراعات وإهانات. كل ذلك لم يرشدني إلى مكان!»

ومع ذلك، وفي هذه اللحظة، فإن بوابة الغفران فتحت، وظهرت الفتاة الصغيرة. عندما رأت الكلب الذي يتفرّس بي ـ في الحقيقة أنا الذي كان يتفرّس به ـ تلفظت بكلمات لطيفة لتدجين الحيوان. ابتعد الكلب، وهو يهزّ ذنبه، حتى جاوز آخر الكنيسة.

لعل بتروس على حقّ. ولعلني أعشق رواية القصص لنفسي، وأتوهم أشياء وأشياء تحوّل كلب راعٍ صغير إلى حيوان متوغد خارق القدرات. إن هذه علامة سيئة، علامة التعب الذي يفضي إلى الهزيمة.

لكن بقي هناك أمل. دعتني الفتاة الصغيرة للدخول. اجتزت بوابة الغفران، وأنا أعلّل النفس. وتلقّيت الغفرانات ذاتها، التي يحظى بها زوار مار يعقوب.

جلت بنظري في أرجاء المعبد المقدّس، وأنا شبه مجرّد من التصوّرات. أسعى فقط وراء الشيء الوحيد الذي استولى على تفكيري.

قالت الفتاة، وكانت تؤدّي دور الدليل السياحي:

ـ هنا تتّخذ تيجان العمود شكل صدفة، رمز الطريق. وهنا القديسة أغاتا... من القرن الـ ...

سرعان ما فهمت أن لا جدوى من القيام بهذه الرحلة إلى هذا المكان.

ـ وهنا هو مار يعقوب شاهراً سيفه، والمغاربة تحت حصانه. إنه تمثال يعود إلى القرن الـ ...

أجل، هنا يوجد سيف مار يعقوب، لكن سيفي ليس هنا. أعطيت الفتاة قطعاً من البيزيتا، فرفضتها، وطلبت مني الخروج، وكأنها شعرت بالمهانة. وتوقّفت عن تقديم الإرشادات.

انحدرت من الجبل مجدّداً، وعاودت السير باتجاه «كومبوستيلا». وعندما كنت أعبر، للمرة الثانية، «فيلافرانكا ديل بييرثو»، ظهر رجل يقول إنه يدعى أنجل. وسألني عمّا إذا كنت أودّ زيارة كنيسة مار يوسف النجار. رغم السحر الذي يتجلّى به اسم هذا الرجل، فقد قلت، في نفسي، إني خارج لتوّي من خيبة، وإن بتروس على حقّ، أنا واثق بذلك، وهو عارف تماماً أسرار النفس البشرية. لدينا، دوماً، ميل إلى رؤية أشياء لا وجود لها، ونرفض رؤية الأمور البديهية الأوضح من النهار.

لكنني أحببت أن أتأكّد من جديد. وتركت لأنجل أن يقودني إلى الكنيسة الأخرى. كانت مقفلة، ولم يكن المفتاح بحوزته. نظرت إلى تمثال القديس يوسف، وهو يحمل أدوات النجارة، ثم شكرت الرجل، وأعطيته بعض المال. لكنه رفض أخذها، وتركني وسط الشارع.

قال:

ـ نحن فخورون بمدينتنا. لا نفعل هذا من أجل المال.

تابعت طريقي لمدّة ربع ساعة، وتركت ورائي «فيلافرانكا ديل بييرثو»، بأبوابها وشوارعها ومرشديها الغامضين، الذين لا يطلبون شيئاً مقابل إرشادهم.

اجتزت، لفترة غير وجيزة من الوقت، قطاعاً جبلياً، وأنا أبذل جهداً كبيراً، وأتقدّم بصعوبة. في البداية، لم أفكّر إلا بمشاغلي السابقة: الوحدة، العار، لأنني خيبت أمل بتروس؛ سيفي وسرّه. لكن صورتَي الفتاة وأنجل كانتا تتراءيان، أمامي، في كل لحظة. كانت عيناي موجّهتين فقط إلى نيل المكافأة، فيما كانا يعطيانني أفضل ما لديهما: حبّهما لهذه المدينة، دون مقابل. تولّدت،

في أعماقي، فكرة غامضة، فكرة تربط بين كل هذه العناصر. وكان بتروس يصرّ، دوماً، على ضرورة السعي إلى المكافأة، إذا أردنا نيل الظفر. كلّما نسيت أمور العالم ولم يعد يشغلني شاغل إلا سيفي، يعيدني بتروس إلى الواقع من خلال مساعٍ أليمة. وقد تكرّر هذا التصرّف مراراً، على طول الطريق.

كان هذا مقصوداً، وهنا يكمن سرّ سيفي. إن ما دُفن في أعماقي بدأ يعتمل في نفسي، ويتسرّب نور طفيف منه إليَّ. لم أعرف، حتى الآن، ما هو نزوع نفسي بالضبط، لكن شيئاً ما في داخلي كان يقول لي إني أسير في الاتجاه الصحيح.

كنت ممتنّاً لالتقائي أنجل والفتاة الصغيرة. كان هناك حب ملتهم يظهر من طريقتهما في الكلام عن الكنائس. وقد جعلاني أجتاز مرّتين الطريق التي خططت لعبورها خلال بعد الظهر. ومن جديد، نسيت الانبهار الذي أحدثه فيَّ طقس «الميراث»، ورجعت إلى أراضي إسبانيا.

تذكّرت أن بتروس قد أعلن لي، ذات يوم بعيد جداً الآن، أننا اجتزنا مرّات عدّة الطريق نفسها في البيرنيه. وتحسّرت على ذلك النهار. كان بداية جيدة. ومن يدري: هل يشكّل تكرار الحدث نفسه علامة نهاية سعيدة؟

وصلت مساءً إلى إحدى القرى، ووجدت مأوى لدى امرأة عجوز، طلبت مني مبلغاً زهيداً من المال لقاء الغرفة والطعام. تحدّثنا قليلاً، وأسرّت لي إيمانها بقلب يسوع، وقلقها بشأن غلال الزيتون في هذه السنة التي تميّزت بالجفاف. شربت الخمر الجيدة، وتناولت الحساء، ثم خلدت للنوم في ساعة مبكرة.

أحسستني أكثر اطمئناناً، بسبب هذه الفكرة التي كنت أكوّنها في داخلي، والتي ستنفجر عمّا قريب. صلّيت، وأنجزت بعض التمارين التي علّمني إياها بتروس؛ ثم استدعيت أستران. كان عليَّ التحدث معه عن صراعي مع الكلب، لا سيما وأنه فعل ذلك النهار كل ما في وسعه لإلحاق الأذى بي؛ كما أعلن رفضه

مساعدتي خلال فصل الصيف. بعد كل الذي فعله معي، صممت، فعلاً، على إبعاده من حياتي وإلى الأبد، فلو لم أتعرف إلى صوته، لاستسلمت للتجارب التي اعترضتني إبّان المعركة.

قلت:

ـ فعلت كل ما في وسعك لتساعد جوقة الشياطين على الانتصار.

احتج أستران، قائلاً:

ـ لا أحارب إخوتي.

توقّعت هذا الجواب. لقد أخطرتُ بذلك. وكان سخيفاً أن أغضب من «الرسول» لأنه يطاوع طبيعته بالذات. كان عليّ أن أفتّش فيه عن الرفيق الذي يساعدني في اللحظات المماثلة، فتلك وظيفته الوحيدة. وضعت حقدي جانباً، وبدأنا نتحدث بأمور الطريق وبتروس وسرّ السيف الذي شعرت أنه موجود في داخلي. لم يقل لي شيئاً مهمّاً، عدا أن هذه الأسرار ممتنعة عليه. على الأقل، وجدت من أتحدث إليه، بعد أن قضيت فترة بعد الظهر صامتاً. تحدثنا، حتى وقت متأخر، إلى أن قرعت العجوز بابي، مشيرة إليّ أني أتحدّث أثناء نومي.

نهضت على أفضل وجه، وتابعت المسير في الصباح. وقدّرت أنني سأصل بعد الظهيرة إلى أراضي «غاليسيا»، حيث توجد «سانتياغو دو كومبوستيلا». كانت الطريق تتّجه صعداً دون توقف. وتوجّب عليّ مضاعفة جهودي لمدة ربع ساعة تقريباً، لأحافظ على إيقاع المسير الذي فرضته على نفسي. ومشيت آملاً، في كل لحظة، أن تنحدر بي الطريق عند المنعطف المقبل. لكن هذا لم يحدث إطلاقاً، وفقدت الأمل، في النهاية، للتقدّم سريعاً هذا الصباح. في البعيد، لمحت جبالاً أكثر ارتفاعاً، وتذكرت، في كل لحظة أن اجتيازها مفروض عليّ، عاجلاً أم آجلاً. ومع ذلك، فإن الجهد الجسدي قد علّق تفكيري، تماماً، وشعرتني أكثر لطفاً مع نفسي.

قلت في نفسي: تبّاً! كم من الناس في هذا العالم يمكنهم أن يأخذوا على محمل الجدّ رجلاً يترك كلّ شيء، ليبحث عن سيف؟ وماذا يعني ذلك حقاً في حياتي إن لم أنجح في العثور عليه؟ كنت قد تعلّمت ممارسات «رام». والتقيت «رسولي»، وتصارعت مع كلب، ونظرت إلى وجه موتي. وأنا أحاول أن أقنع نفسي بما تمثّله طريق مار يعقوب الآن من أهمية لي. إن السيف لم يكن إلا نتيجة. وكنت أودّ أن أعثر عليه، لكنني كنت أودّ أكثر أن أعرف ماذا أفعل به. لأنه كان يلزمني استخدام عمليّ له، تماماً كما استخدمت التمارين التي علّمني إياها بتروس.

توقفت فجأة. فالفكرة، التي كانت تعتمل حتى الآن في كياني، انفجرت، وبات كل شيء من حولي واضحاً، وانحبست في داخلي موجة عارمة من الحب الإلهي. رغبت، بحدّة، أن يكون بتروس هنا، لأروي له ما كان يريد معرفته عني، الأمر الوحيد، الذي كان ينتظر في الواقع أن أكتشفه، ويتوّج هذه الحقبة الطويلة من التعاليم على الطريق الغريبة لمار يعقوب، ألا وهو سرّ سيفي.

وسرّ سيفي، كسرّ كلّ انتصار يبحث الإنسان عن تحقيقه في هذه الحياة، هو أمر سهل للغاية: ما العمل به؟

لم أفكّر في هذا من قبل. فكلّ ما رغبت في معرفته، أثناء الطريق، هو المكان الذي خُبّئ فيه. لم أتساءل قطّ لما كنت أريد العثور عليه، أو لما كنت أحتاج إليه. وجّهت كل طاقتي نحو المكافأة، ولم أدرك أنه، عندما يرغب أحدنا في شيء، فعليه أن يعرف الغاية الواضحة من هذه الرغبة. هذا هو الدافع الوحيد الذي يجدر بنا أن نفتّش من أجله عن مكافأة. وهذا هو سرّ سيفي.

كنت أريد أن يعرف بتروس أنني قمت بهذا الاكتشاف؛ لكنني

بث متيقناً بعدم تمكّني من رؤيته مجدداً. لقد انتظر طويلاً أن يأتي هذا النهار الذي أكتشف فيه ذلك، لكنه، الآن، غائب، ولن أستطيع أن أقول له ذلك.

عندئذٍ، وبصمت، جثوت على ركبتيّ، وتناولت ورقة من مفكّرة ملاحظاتي، وكتبت ما أنوي فعله بسيفي. ثم طويت الورقة بعناية، ووضعتها تحت حجر. في أي حال فإن الحجر قد ذكّرني باسم «بتروس» وبصداقته. أعرف أن الزمن سيدمّر هذه الورقة سريعاً، لكني سلّمتها إلى بتروس بطريقة رمزية.

إنه يعرف، مسبقاً، ما علي فعله بسيفي، وأن مهمتي معه قد اكتملت.

تسلّقت، قدماً، الجبل. كان الحب الإلهي يسيل منّي، ويوزد كل شيء من حولي. الآن، وقد اكتشفت السر، عليَّ اكتشاف الشيء الذي أبحث عنه. استولى إيمان ويقين لا يتزعزع على كياني كلّه. وأخذت أدندن لحن الأغنية الإيطالية التي أنشدها بتروس في مخزن الحافلات. وبما أنني لم أكن أعرف كلماتها، فقد اخترعت كلماتٍ لها. لم يكن هناك أحد في جواري. اجتزت غابة كثيفة، وجعلتني عزلتي أغنّي بصوت أعلى. ثم شعرت أن الكلمات التي اخترعتها، تتّخذ معنى غامضاً في رأسي. كانت وسيلة اتّصال بالعالم الذي يتسنّى لي وحدي معرفته، لأن العالم كان يعلّمني.

سبق لي أن قمت بهذه التجربة، ولكن بطريقة مختلفة، خلال أول لقاء لي بجوقة الشياطين. في ذلك اليوم، تجلّت فيَّ موهبة اللغات. كنت، عندئذٍ، خادم «الروح» الذي استعملني لأنقذ امرأة، وأجد عدوّاً، وأتعلّم الشكل الوحشي لـ «الجهاد الحسن». الآن، اختلف الأمر. كنت سيّد نفسي، وكنت أتعلّم الكلام مع الكون.

ورحت أكلّم كلّ ما يظهر في طريقي: جذوع الأشجار، برك

الماء، الأوراق الميتة، النباتات الجميلة المعرّشة. كان ذلك تمرين الناس العاديين الذي يتعلّمه الأطفال، وينساه الكبار. كانت الأشياء تجيبني بشكل خفي، وكأنها تفهم ما أقول، وتغمرني، بالمقابل، بالحب الملتهم. دخلت في حالة من الرعدة، وخفت. لكنّي كنت مستعداً لمتابعة اللعبة، حتى النهاية.

مرّة أخرى، كان بتروس محقاً: أعلّم نفسي، فأصير معلّماً.

دنت ساعة الغداء، لكني لم أتوقّف لتناول الطعام. وفيما كنت أجتاز النواحي الصغيرة، رحت أتكلّم بصوت أكثر انخفاضاً، وأضحك وحدي. وإذا أثار منظري اهتمام بعض الناس، فما من ضير في أن يستنتجوا أن الحجاج، في أيامنا هذه، يصلون، وهم في حالة جنون، إلى كاتدرائية مار يعقوب. لكن ليس لذلك أهمية تذكر. فأنا أحتفل بالحياة من حولي، وأعرف ما عليّ فعله بسيفي، حالما أعثر عليه.

مشيت ما تبقّى من فترة بعد الظهر، وأنا أرتعد، مدركاً المكان الذي أقصده، متمثّلاً حالة وعي تام للحياة المحيطة بي، والتي تعكس لي الحب الإلهي. للمرة الأولى، بدأت غيوم ثقيلة تتكوّن في السماء. تمنّيت أن تمطر، لأن المطر، بعد كل هذا السير وسط الجفاف، يبدو تجربة جديدة ومثيرة. في الساعة الثالثة بعد الظهر، وطئت قدماي أراضي غاليسيا. ورأيت على خارطتي أن جبلاً واحداً يفصلني عن نهاية المرحلة. قرّرت أن أتسلّق، وأنام في أول مكان مأهول على طريق النزول: في «تريكاستيلا»، حيث حلم ألفونس الحادي عشر، أحد كبار الملوك، بتأسيس مدينة كانت، قبل قرون، قرية في الريف.

تابعت غنائي، وتكلّمت، باللغة التي اخترعتها، إلى ما صادفته من عناصر. وشرعتُ في تسلّق آخر جبل «السبريرو». كان اسمه يُطلق على قرية قديمة رومانية، ويبدو أنه يشير إلى شهر فبراير، الذي حصل فيه حادث هام. كان هذا الجبل يعتبر، قديماً، المعبر

الأصعب لطريق مار يعقوب. ولكن، اليوم، تغيّرت الأشياء بالطبع. صحيح أن التسلّق لا يزال وعراً، لكن أقيم على الجبل المجاور هوائي تلفزيوني هائل ليرشد الحجّاج إلى الطريق، ويمنعهم من الضلال، الشيء الذي كان شائعاً ومحتّماً في الأزمنة الغابرة.

كانت الغيوم تنخفض أكثر فأكثر. وكنت على وشك اختراق الضباب. كان عليَّ للوصول إلى «تريكاستيلا» أن أتبع بحذر العلامات الصفراء، لأن هوائي التلفزيون حجبه الضباب. إذا تهت، فساكون مضطراً إلى قضاء ليلة إضافية في العراء، وفي هذا اليوم، ومع المطر الذي ينذر بالهطول، لن تكون التجربة مغرية. كنت أشعر بنقاط المطر تسيل على وجهي، كذلك ملأني شعور بالاكتمال والحرية والحياة. لكن أن أقضي الليلة في مكان رحب مع كاس نبيذ، وأن أضطجع في سرير مريح تحسّباً لرحلة الغد، شيء، وأن أنام في الوحل مستسلماً للأرق، يترضّضني التهاب الركبة بسبب الضمادات المبلّلة، شيء آخر. عليَّ الاختيار بسرعة: إما المتابعة قدماً واختراق الضباب ما دام هناك نور، وإما الرجوع إلى القرية الصغيرة التي مررت بها قبل ساعات لأبيت فيها ليلتي، وإرجاء تسلّق جبل «السبريرو» إلى الغد.

ما إن فهمت ضرورة اتّخاذ قرار فوري، حتى لاحظت أن شيئاً غريباً قد حدث لي: دفعني اليقين، بأني اكتشفت سرّ سيفي، إلى الأمام قدماً، باتّجاه الضباب الذي سيغمرني. كان هذا شعوراً مختلفاً عن الشعور الذي حثّني لأتبع الفتاة إلى بوّابة الغفران، أو الرجل الذي قادني إلى كنيسة مار يوسف النجار.

تذكّرت أنّني، في المرّات القليلة التي ألقيت فيها محاضرات في البرازيل، كنت، على الدوام، أقارن التجربة الصوفية بتجربة نعرفها جميعاً: التدرّب على الدرّاجة. في المرة الأولى، نصعد على الدراجة،

ونعطي دفعاً للدواسة فنسقط. نتقدّم ونسقط. نتقدّم ونسقط. ومع ذلك، فإن التوازن الكامل يتحقّق فجأة، ونتوصّل إلى التحكّم بالآلة. لا يعود ذلك إلى تراكم التجارب، بل إن الأمر أشبه بمعجزة: تقودنا الدراجة، فنوافق على اتّباع خلل الدولابين، ونستعمل حركة السقوط لنجعل منها منحنى، أو اندفاعاً جديداً.

خلال تسلّقي جبل «السبريرو» في الساعة الرابعة بعد الظهر، تبيّن لي أن المعجزة قد تحقّقت: فبعد أن سرت طويلاً على طريق مار يعقوب، بدأت هي «تسيّرني». كنت أتبع ما يدعوه الناس «الحدس». وبسبب الحب الملتهم الذي خبرته طوال النهار، وبسبب سرّ سيفي الذي اكتشفته، وبالنظر إلى أن الإنسان في أوقات الأزمة يتّخذ دوماً القرار المناسب، فقد اتجهت دون خشية نحو الضباب.

قلت في نفسي، وأنا أحاول جاهداً العثور على العلامات الصفراء فوق الصخور وأشجار الطريق: «لا بدَّ أن لهذه الغيمة نهاية». منذ حوالى الساعة، وأنا أمشي ضمن رؤية ضعيفة جداً، متابعاً الغناء، لأبعد عني الخوف، ومنتظراً أن يحدث شيء خارق. وقد نظرت إلى طريق مار يعقوب، والضباب يحاصرني وحيداً في هذا الجو الوهمي، وكأني أمثّل فيلماً يجرؤ فيه البطل على القيام بأشياء لم يسبقه إليها أحد من قبل، فيما المتفرّجون في الصالة يعتقدون أن هذه الأشياء لا تحدث إلا في السينما. لكنّي كنت أنا البطل، وكنت أعيش هذه الحالة بالذات في الحياة الواقعية. ازدادت الغابة سكوناً، وأخذ الضباب ينجلي بشكل واضح. لعلّني سأصل إلى منتهى الطريق، لكن هذا النور يشوّش عليَّ الرؤية، ويرسم المنظر بألوان غامضة ومرعبة.

كان الصمت شبه تام. أصغت السمع، وخلتني أسمع صوت امرأة يصدر عن يساري. توقفتُ على الفور. انتظرتُ أن يتكرّر الصوت،

لكن لم يكن هناك إلا الصمت، الصمت المطبق: حتى الأصوات، التي نسمعها عادة في الغابة: أصوات الجنادب والحشرات والحيوانات التي تطأ الأوراق اليابسة، اختفت. نظرت إلى ساعتي: إنها السابعة والربع. قدّرت المسافة الباقية، لأصل إلى توريستريللا، بحوالى أربعة كيلومترات تقريباً. وكان لديَّ الوقت الكافي لاجتيازها في ضوء النهار.

حين رفعت نظري عن الساعة، سمعت من جديد صوت المرأة: ساعيش ابتداءً من هذه اللحظة إحدى التجارب الأهم في حياتي كلّها.

لم يكن الصوت صادراً عن أيّ مكان، بل كان منبعثاً من داخلي. استطعت سماعه بوضوح وجلاء، وجعله حدسي أقوى حضوراً. لم أكن سيد هذا الصوت، كذلك لم يكن أستران. لم يقل لي الصوت إلّا أن أتابع المسير، وأطعت دونما تردد. كان الأمر كما لو أن بتروس قد عاد ليعلّمني الأمر والطاعة، أو كأنني، في هذه اللحظة، أداة الطريق التي «تقودني». كان الضباب ينقشع، وقد بدا على وشك الاضمحلال. كانت قربي أشجار مبعثرة، وأرض رطبة زلقة، ومنحدر وعر أجتازه منذ فترة طويلة.

فجأة، وبسحر ساحر، انجلى الضباب تماماً، ورأيت أمامي صليباً مرتفعاً بمهابة فوق قمة الجبل.

نظرت حولي، فرأيت بحر الغيوم الذي خرجت منه، وبحر غيوم آخر فوق رأسي. وبين هذين المحيطين انتصبت رؤوس الجبال الشاهقة وقمة «السبريرو». استولت عليَّ رغبة عميقة في الصلاة، بدا كل ما عداها غير مهمّ، حتى لو اضطرني ذلك إلى التخلّي عن طريق توريستريللا. عزمت على ارتقاء الجبل حتى القمة، وتأدية صلواتي وتأملاتي عند أسفل الصليب. استغرق الصعود أربعين دقيقة،

وسط الصمت الخارجي والداخلي. أما اللغة التي كنت اخترعتها فقد فارقت روحي، ولم تعد تساعدني على الاتصال لا بالبشر ولا بالله. كانت طريق مار يعقوب هي التي «تقودني»، وهي التي ترشدني إلى مكان السيف. مرةً أخرى، كان بتروس محقّاً.

عند القمة، رأيت رجلاً يجلس قرب الصليب، وهو منصرف إلى الكتابة. لوهلة، اعتقدت أنه «رسول»، أو أنني أشاهد رؤيا خارقة. لكن حدسي قال لي: لا. ورأيت الصَدَفة قد حيكت فوق ملابسه. كان حاجاً. نظر إلي وقتاً طويلاً، ثم رحل، وقد أزعجه حضوري. لعلّه كان ينتظر أمراً خارقاً كما كنت أنتظر: ملاكاً مثلاً؟ ثمّ اكتشفنا، معاً، أن من ينتظرنا رجلٌ، وليس ملاكاً على طريق الناس العاديين.

وعلى الرغم من الرغبة التي دفعتني إلى الصلاة، كنت عاجزاً عن قول أي شيء. بقيت، لوقت طويل، أمام الصليب، أراقب الجبال والغيوم التي تحجب السماء والأرض، فلا يشقّ الضباب إلا رؤوس القمم الشاهقة. على بعد مئة متر في الأسفل، أضيئت الأنوار في ضيعة تحوي خمسة عشر بيتاً وكنيسة صغيرة. على الأقل، لديَّ مكان أستطيع قضاء الليل فيه عندما تقرّر الطريق. لا أعرف متى سيحدث هذا بالضبط، لكن، رغم غياب بتروس، كان لديَّ مرشدي، ولم أحرم منه: الطريق التي «تقودني».

تسلّق حمل تائه الجبل، وانتصب بين الصليب وبيني. نظر إليَّ وفي عينيه شيء من الذعر. بقيت وقتاً طويلاً أتأمل السماء شبه السوداء، والصليب، والحمل الأبيض في أسفل الصليب، وأحسست، فجأة، بوطأة هذه المرحلة الطويلة من التجارب والصراعات والتعاليم والمسير، وهي تلقي بثقلها على كاهلي. انتابني ألم فظيع في المعدة، وامتدّ حتى حلقي، متحوّلاً إلى شهقات جافة دون بكاء، أمام هذا الحمل، وهذا الصليب الهائل المتوحّد الذي يُظهرُ المصير الذي لم يختره الإنسان لإلهه، بل لنفسه. واسترجعت كلّ تعاليم طريق مار يعقوب وعبرها في ذهني، وأنا أشهق أمام هذا الحمل الوحيد.

قلت، وقد تمكّنت أخيراً من الصلاة:

– يا ربّ، لستُ مسمّراً على هذا الصليب، ولا أراك مسمّراً أنت أيضاً. هذا الصليب فارغ، ويجب أن يبقى كذلك إلى الأبد، لأن زمن الموت ولّى وانقضى. وها إن إلهاً يُخلق فيَّ الآن. هذا الصليب هو رمز القدرة اللامتناهية التي نملكها جميعاً، لتسمير الإنسان وبعثه إلى الهلاك. أما الآن، فهذه القدرة تُوظَّف من أجل الحياة. فالعالم أُنقِذ، وأنا قادر على إنجاز معجزاتك، لأني عبرت طريق الناس العاديين، وفيهم وجدتُ سرّك. وأنت أيضاً عَبرتَ طريق الناس العاديين. جئتَ لتعلّمنا ما نحن قادرون عليه، ورفضنا تقبّله. برهنتَ لنا أن القدرة والمجد هما في متناول الجميع، وأن هذه الرؤية المفاجئة لقدراتنا كانت أكبر من أن نحتملها. صلبناك ليس لأننا ناكرو الجميل حيال ابن الله، بل لأننا كنا نخاف أن نتقبّل قدراتنا، نحن بالذات. صلبناك، لأننا خفنا أن نصير آلهة. ومع مرور الزمن وتعوُّدنا ما نحن فيه، رجعت ألوهة بعيدة، ورجعنا إلى مصيرنا كبشر.

ليس خطيئة أن نكون سعداء. فتمارين قليلة وإنصات يقظ يكفيان لكي يحقق الإنسان أحلامه المستحيلة. كنت فخوراً بحكمتي، فجعلتني أعبر الطريق التي يستطيع الكل عبورها، وأكتشف ما يستطيع جميع الناس اكتشافه، لو أوْلوا الحياة قليلاً من الاهتمام. لقد أريتني أن السعي وراء السعادة أمر شخصي وأن لا وجود لنموذج نستطيع نقله الى الآخرين. قبل أن أكتشف مكان سيفي، كان علي أن أكتشف سرّه، وهو بسيط للغاية: يكفيني أن أعرف ماذا أفعل به، وبالسعادة التي يمثّلها لي.

اجتزتُ كلّ هذه الكيلومترات، لأكتشف أشياء أعرفها من قبل، ونعرفها جميعاً، ولكن يصعب علينا تقبّلها. أي شيء يا ربّ أصعب على الإنسان من اكتشاف أنه قادر على بلوغ القدرة؟ هذا الألم، الذي أشعر به الآن في صدري، والذي يجعلني أشهق وأخيف الحَمل أمامي، رافق الإنسان منذ وجوده. قليلون هم الذين تقبّلوا

جمل النصر، ذلك أن أغلب الناس قد تخلّوا عن أحلامهم، عندما صارت ممكنة، وامتنعوا عن خوض «الجهاد الحسن»، لأنهم لا يعرفون ما يفعلونه بسعادتهم الخاصة. كانوا أسرى أشياء الوجود، تماماً، مثلي أنا الذي يرغب في العثور على سيفه ولا يعرف ما يفعله به.

استيقظ في داخلي إله نائم، وصار الألم أكثر حدّة. شعرت بحضور معلّمي. ونجحت، للمرة الأولى، في تحويل الدموع إلى شهقات. بكيت عرفاناً لأجله، هو الذي دفعني لأبحث عن سيفي على طريق مار يعقوب. وبكيت عرفاناً لأجل بتروس الذي علّمني، دون أن يقول شيئاً، أنني سأحقّق أحلامي، متى اكتشفت ما عليّ فعله بها. رأيت الصليب عارياً. ورأيت الحمل أمامه حرّاً في التنزه، حيثما يشاء على هذا الجبل، وفي تأمّل الغيوم.

نهض الحمل وتبعتُهُ. كنت أعرف إلى أين يقودني. ورغم الغيوم، فإن العالم قد أصبح شفّافاً بالنسبة لي. لا أرى المجرّة في السماء، لكن لديَّ اليقين الكامل بأنها موجودة، وأنها ترشدني إلى طريق مار يعقوب. اتّجه الحمل ناحية القرية التي تحمل اسم «السبريرو»، كجبلها. هنا، ذات يوم، على هذا الجبل، حصلت معجزة، وتحوّل ما نفعله إلى ما نؤمن به: سرّ سيفي والطريق الغريبة لمار يعقوب.

فيما كنت أنحدر من الجبل، تذكّرت هذه القصة: صعد أحد المزارعين، في يوم عاصف جداً ليسمع قدّاساً على جبل «السبريرو». كان هذا القدّاس قد أقامه راهب قليل الإيمان، ويحتقر في داخله تقوى المزارع وتضحيته. لكن، في لحظة التكريس، تحوّل القربان جسد المسيح، والخمر دمه فعلاً. ولا تزال الذخائر موجودة ومحفوظة في هذه الكنيسة الصغيرة، وهذا كنز يفوق كنوز الفاتيكان قاطبة.

توقّف الحمل عند مدخل القرية التي تقود طريق واحدة فيها إلى الكنيسة. عندئذٍ تملّكني الرعب، وأخذت أرتدّ دون توقف: «يا رب لست مستحقاً أن أدخل بيتك». لكن الحمل نظر إليّ نظرة اخترقتني كسهم. كان يقول لي أن أنسى إلى الأبد عدم استحقاقي هذا، لأن القدرة بُعثت فيّ، كما يمكن أن تبعث في جميع الناس الذين يجعلون من الحياة «جهاداً حسناً». قالت عينا الحمل إنه سيأتي يوم ويرجع الإنسان من جديد فخوراً بنفسه. وعندئذٍ، ستحتفل الطبيعة بأكملها بيقظة الله الذي يهجع فيه.

كان الحمل مرشدي على طريق مار يعقوب. في وقت ما، أصبح كلّ شيء مظلماً، ورأيت أمامي مشاهد تشبه، إلى حد بعيد، تلك التي قرأت عنها في رؤيا القديس يوحنا: الحمل الأكبر جالس على عرشه، والناس يغسلون ثيابهم، ويطهّرونها بدم الحمل. كانت هذه يقظة الإله الهاجع في كلّ واحد منّا. رأيت، أيضاً، معارك واضطرابات وكوارث تهزّ الأرض هزاً في السنوات المقبلة. لكن كلّ شيء سوف ينتهي بانتصار الحمل، وكلّ كائن بشريّ، على وجه الأرض، سيوقظ، بكلّ قدرته، الإله الهاجع فيه.

تبعتُ الحمل إلى الكنيسة الصغيرة التي شيّدها المزارع، والراهب، الذي بدأ يؤمن بما يفعل. لا أحد يعرف شيئاً عنهما. وهناك حجرا ضريح مجهولان، في المقبرة المجاورة، يشيران إلى الموقع الذي دُفنت فيه عظام الميتيْن. لكن من المستحيل تمييز قبر الراهب من قبر المزارع، ذلك أن حصول المعجزة يتطلّب أن تتّحد القوتان لتخوضا «الجهاد الحسن».

كانت الكنيسة مضاءة عندما وصلت إلى الباب. أجل، كنت أستحقّ الدخول، لأنني أحوز سيفاً، وأعرف ما أفعل به. لم تكن بوابة الغفران، فقد غُفر لي وغسلت ثيابي بدم الحمل. ولا أريد، الآن، إلّا أن أضع يديَّ على سيفي، وأذهب لخوض «الجهاد الحسن».

في المبنى الصغير، لم يكن هناك صليب، بل كان على المذبح ذخائر المعجزة: الكأس والصينية اللذان رأيتهما أثناء الرقصة، ومذخر من الفضة يحوي جسد المسيح ودمه. عدت إلى الإيمان بالمعجزات التي يستطيع الإنسان تحقيقها كلّ يوم. وبدت القمم العالية المحيطة بي، وكأنها تقول إنها ليست هنا، إلا لتتحدّى الإنسان، وإن الانسان لم يوجد إلا ليتقبّل شرف هذا التحدّي.

توارى الحمل وراء أحد المقاعد. نظرت أمامي: عند المذبح، وقف معلّمي مبتسماً، وقد اطمأنت نفسه، حاملاً سيفي في يده.

توقّفت. اقترب منّي، ثمّ تجاوزني، وخرج. لحقتُه إلى أن وقف أمام الكنيسة: نظر إلى السماء القاتمة، ثم استلّ السيف من غمده، وطلب منّي أن أشاركه حمله معه. شهر النصل، وهو يتلو المزمور المقدّس الخاص بهؤلاء الذين يسافرون ويصارعون بحثاً عن الظفر:

«تسقط عن جانبك الألوف وعن يمينك الرّبوات

ويقترب السوء إليك

لا يصيبك شرّ، ولا تدنو ضربة من خبائك

لأنه يوصي ملائكته بك ليحفظوك في جميع طرقك».

عندئذٍ جثوت راكعاً، وضرب المعلم بنصل السيف كتفيّ الواحدة تلو الأخرى، وهو يقول:

«تطأ الأسود الأفعى

تدوس الشبل والتنين».

ما إن أنهى تلاوة هذه الكلمات حتى بدأ المطر بالهطول. كانت تمطر، والمطر يخصب الأرض. وهذه المياه لن ترجع إلى السماء قبل أن يولد برعم، وتنمو شجرة، وتتفتح زهرة. كانت تمطر بغزارة شديدة، وأبقيت رأسي مستقيماً: أستقبل، للمرة الأولى على طريق

مار يعقوب، الأمطار الهاطلة من السموات. أتيتُ من الحقول المتصخرة، وأنا سعيد، لأن هذه الليلة ستفيض فيها الحقول ماءً. تذكّرت صخور ليون، وحقول القمح في «نافارا»، و«القحط» في كاستيليا، وكروم «ريوخا» التي ترتوي اليوم من المطر الهاطل بغزارة، مقطِراً قوة السموات. تذكّرت أنني أنهضت صليباً ستوقعه العاصفة من جديد، لكي يتمكن حاجّ آخر تعلّم الأمر والطاعة بواسطته. فكّرت بمسقط الماء الذي يهدر الآن بقوة أكبر، لأن ماء المطر يغذيه. وفكّرت بـ «فونسبادون»، حيث تركت الكثير من القدرة لإخصاب التراب من جديد. فكّرت بكل المياه التي شربتها من سبل كثيرة، وقد استعادت الآن ما فقدته. كنت جديراً بسيفي، لأنني أعرف ماذا أفعل به.

قدّم المعلم السيف إلي فأخذته. بحثت عن الحمل، لكنه كان قد اختفى. ومع ذلك، ليس لهذا أهمية تذكر: كانت الأمطار الحية تهطل من السموات، وتجعل نصل سيفي براقاً.

* * *

خاتمة
سانتياغو دو كومبوستيلّا

من نافذة الفندق، حيث نزلت، أبصر كاتدرائية مار يعقوب وبضعة سيّاح أمام البوابة الرئيسية. كان هناك طلاب يتنزّهون وسط الحشد، وهم يرتدون ملابس قاتمة قروسطية، وبائعو التذكارات يبدأون وضع تخشيباتهم. كنت في وقت مبكر من الصباح. وكانت هذه السطور، باستثناء بعض الملاحظات، أول سطور كتبتها على طريق مار يعقوب.

وصلتُ إلى المدينة البارحة، بعد أن أقلّتني الحافلة التي تؤمّن الاتصال بين «بدرافيتا»، القريبة من «السبريرو»، وكومبوستيلا. لقد أمكن في أربع ساعات، اجتياز المئة والخمسين كيلومتراً التي تفصل بين المدينتين. وعدت بالذاكرة إلى مسيرتي مع بتروس، حيث كان يلزمنا أسبوعان لنجتاز مثل هذه المسافة. بعد قليل، سأخرج وأضع على قبر مار يعقوب صورة سيدة «أباريسيدا» المزدانة بالأصداف. وبعدها، إذا كان الأمر ممكناً، ستقلّني طائرة لأرجع إلى البرازيل، حيث تنتظرني أعمال كثيرة. تذكّرت أقوال بتروس، عندما أخبرني أنه اختصر كل تجربته في لوحة. عبرت ذهني فكرةُ تأليف كتاب عمّا عشته، لكن هذا أيضاً لا يزال مشروعاً بعيداً، ولديَّ أشياء كثيرة يتوجب عليَّ فعلها الآن، وقد استعدت سيفي.

يبقى سرّ سيفي لي وحدي، ولن أعلن عنه أبداً. لقد كتبته

وتركته تحت حجر. لكن المطر، الذي هطل، أتلف الورقة بالطبع. وهذا أفضل. أما بتروس، فليس في حاجة إلى معرفته.

سألت معلّمي كيف عرف التاريخ الذي ساصل فيه، وهل كان وصل قبلي بوقت طويل. فضحك قائلاً، إنه وصل صباح البارحة، وإنه سيرحل غداً، حتى لو لم آتِ. كنتُ مصرّاً أن أعرف كيف يمكن حدوث ذلك، فلم يجبني. وعندما افترقنا، وفيما كان يتّخذ مكاناً في السيارة التي ستقلّه إلى مدريد، أعطاني شعاراً صغيراً من منظمة «مار يعقوب حامل السيف»، وقال لي إن أمراً عظيماً قد تجلّى لي عندما نظرتُ إلى عيني الحمل. لكن، لعلّني ساتوصّل، يوماً ما، إلى أن أفهم أن الناس يصلون دوماً في الوقت المناسب، إلى حيث ننتظرهم.



